محمد حسنين هيكل

عند مفترق الطرق

حرب أكتوبر...
ماذا حدث فيها
وماذا حدث بعدها!

دار الشروق

عند مفترق الطرق

محمد حسنين هيكل

عند مفترق الطرق

إصدار جديد
لمناسبة خاصة

طبعة أولى ٢٠٠٣

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ (٢٠٢) فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى : e-mail: dar@shorouk, com.

مقدمة

هذه المجموعة من الأحاديث لها عندى منزلة خاصة، فلقد كانت مفترق الطرق بين الرئيس المصرى السابق «أنور السادات» - يرحمه الله - وبينى..

كانت آخر ما كتبت ونشرت فى الأهرام فى الفترة ما بين ٥ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى أول فبراير ١٩٧٤.

أى أنها سبقت بدء عمليات حرب أكتوبر بيوم واحد، ثم توقفت بعد إتمام الاتفاق المبدئى على فك الارتباط الأول بأسبوع واحد.

مسافة أربعة شهور كانت حاسمة وفاصلة فى تأثيرها - ليس فقط على مستوى تاريخ الشعب المصرى وأمته العربية - ولكن أيضًا على المستوى الشخصى والمهنى.

□

قبل كتابة ونشر هذه المجموعة من الأحاديث - كنت قريبًا من قمة السلطة فى مصر، وبعد كتابتها ونشرها أصبحت مبعدًا عنها ومقصيًا - ،رضيت.

وقبل كتابة ونشر هذه المجموعة من الأحاديث - كنت أعيش وأكتب فى مصر، وبعد كتابتها ونشرها أصبحت أعيش فى مصر وأكتب خارجها - وقبلت.

وأعترف أننى - أثناء الكتابة والنشر - تلقيت النصيحة تلو النصيحة بأن أتوقف - «وإلاَّ!»

ولم أكن على استعداد لتحمل مسئولية أن أتوقف، ولكنى كنت على استعداد لتحمل مسئولية: «وإلاَّ».

وتحملتها عن طيب خاطر، بل لعلى لا أتجاوز إذا قلت إننى تحملتها بشىء كثير من الرضا الداخلى والسلام مع النفس. كنت مقتنعًا بأن كل مشتغل بالشئون العامة تواجهه فى حياته لحظة يتحتم عليه فيها أن يقف - دون تردد أو تلعثم - ليجعل صوته مسموعًا ومفهومًا، ثم ليكن بعدها ما يكون!

وبالنسبة لى فإن ظروف حرب أكتوبر والملابسات التى أحاطت بها فى فترة تلك الشهور الأربعة الحاسمة والفاصلة، وضعت أمامى - أو وضعتنى أمام - ما لا يجوز فيه التردد أو التلعثم - كذلك أحسست. وكان النداء غلابًا، وأطعت عارفًا مقدمًا بحجم التكاليف، وأولها: الخروج!

وكان الرئيس «السادات» يراهن فى الضغط عليّ بأوراق ثلاث ظنها رابحة:

● **الورقة الأولى**: أننى لن «أطيق البعاد» عن لعبة السياسة العليا فى مصر، وقد كانت أصابعى فيها لأكثر من عشرين عامًا، والقرب من لعبة السياسة العليا فى أى بلد فى العالم حالة يمكن أن تكون لها قوة الإدمان!

● **والورقة الثانية**: أننى لن «أقدر على الفراق» مع الأهرام بعد أن وضعت فيه من سنوات عمرى ما وضعت - أكثر من ثمانية عشر عامًا هى الشباب كله، وما بعد الشباب!

● **والورقة الثالثة**: أننى لن «أجد ما أعمله» إذا ابتعدت. فالمهنة التى اخترتها لنفسى - الصحافة - أصبحت فى مصر ملكًا خالصًا لسلطة الدولة، فإذا أنا خرجت من أحد الأبواب فقد خرجت من كل الأبواب!

وأشهد لـ «أنور السادات» أنه حاول أن يترك الباب نصف مفتوح بعد الخروج. فلقد كان قراره الأول المنشور فى كل الصحف صباح يوم ٢ فبراير - أن أنتقل من الأهرام إلى قصر عابدين مستشارًا لرئيس الجمهورية. ولم أضع قدماى فى قصر عابدين. ولحظت موقفى فى تصريح نشرته صحيفة «الصنداي تيمس» فى عددها الصادر يوم ٩ فبراير ١٩٧٤، وقلت فى هذا التصريح:

«أنني استعملت حقى فى التعبير عن رأيى. ثم إن الرئيس السادات استعمل سلطته».

وسلطة الرئيس قد تخول له أن يقول لى: «اترك الأهرام» - ولكن هذه السلطة لا تخول له أن يحدد لى أين أذهب بعد ذلك. القرار الأول يملكه وحده.. والقرار الثانى أملكه وحدى!».

وخرجت، ولم أعد بعدها، ولا أظننى أريد أن أعود.

لم أعد - ولا أظننى أريد أن أعود إلى لعبة السياسة العليا وما فيها من قوة الإدمان، ثم إن تطورات الأحوال لم تترك لى مجالاً لمعاودة التفكير. لقد كنت مشدودًا إلى ما يجرى على الساحة حين كانت المنطقة «مسرحًا للتاريخ»... وحيث تحولت المنطقة إلى «مسرح العرائس» فقد وجدتنى أمام لون من الفنون له بالتأكيد جمهوره، ولكننى - ولو حتى بالسن والمزاج - لا أحسب نفسى فى عداد هذا الجمهور.

ولم أعد - ولا أظننى أريد أن أعود إلى الصحافة - بما فيها الأهرام - رغم أن الرئيس «السادات» - بعد عروض أخرى بمناصب أكبر فى الدولة، بينها منصب مستشاره للأمن القومى - «كيسنجر بتاعى» على حد تعبيره بالنص - أو منصب نائب رئيس الوزراء - عاد فقال لى فى ربيع سنة ١٩٧٥ «إننى أستطيع أن أعود إلى الصحافة إذا أحببت وفى أى مكان أريده، على شرط واحد وهو أن «ألتزم»!

وكان ردى عليه يومها - نقلاً عن دفتر مذكراتى لتلك الفترة:

- سيادة الرئيس، إننى لا أعرف ما هو بالضبط ما تطلب منى أن ألتزم به؟ ولا أتصور أنه فى مقدور أحد أن يلتزم خارج قناعاته، ولقد كتبت ما كنت مقتنعًا به وما اعتبرته جوهر التزامى، ولكنك غضبت.

ثم إننى لا أظنك ترضى لى - وأنا بالقطع لا أرضى لنفسى - أن أخرج بقرار ثم أعود بقرار... قد أخرج بقرار ولكنى أظل صحفيًا بالمعنى الذى أفهمه، ولكنى إذا عدت بقرار فلن أعود صحفيًا بالمعنى الذى أفهمه».

ثم قلت له:

- إنني لست من الذين يستشهدون بـ«كارل ماركس» يعتبرون أقواله إنجيلاً مصدقًا، ومع ذلك فإنني من المعجبين بقول مأثور له مؤداه: إن التاريخ لا يكرر نفسه، وإذا فعل فإن المرة الأولى تكون دراما مؤثرة، وأما المرة الثانية فإنها تصبح ملهاة مضحكة.

وأنا لا أريد أن أعود إلى الصحافة ظلاً باهتًا لما كنته ذات يوم. ذات يوم كنت في الأهرام، وكنت أفكر وأكتب، وأقرر وأتحرك - دون أن ألتفت خلفي. وإذا رضيت بالعودة الآن فسوف أعود وفي وجداني رواسب ما حدث. سوف أجدني مترددًا فيما أفكر وأكتب، وسوف أجدني مهمومًا بما وراء ظهري أتلفت إليه محاولاً تأمين نفسي مما عساه يصل إليك عما أقول أو أفعل، وذلك شيء لا أريده، كما أني لست في حاجة إليه».

ومن يومها - من يوم كتابة ونشر هذه المجموعة من الأحاديث في تلك الفترة الحاسمة والفاصلة، رحت - مقيمًا دائمًا في مصر - أكتب خارجها لصحف عربية وغربية رحبت كريمة بما أكتب، ولدور نشر دولية تفتحت أمامي أبوابها في ظروف كان من حظي فيها أن تزايد اهتمام العالم بشئون الشرق الأوسط، وهكذا وجدت لي في مكتبات هنا - من يومها وإلى الآن - ستة كتب والسابع في الطريق!

لا بد أن أقول إن أسبابًا للخلاف وقعت بين الرئيس «السادات» وبيني من قبل أن تجيء حرب أكتوبر والملابسات التي أحاطت بها في تلك الشهور الأربعة الحاسمة والفاصلة، وقبل أن أكتب وأنشر تلك المجموعة من الأحاديث التي افترقت عندها الطرق.

اختلفنا سنة ١٩٧١ فيما كان يقوله عن «سنة الحسم». وكتبت ونشرت آرائي دون إلحاح.

واختلفنا سنة ١٩٧٢ في الطريقة التي أخرج بها السوفييات من مصر، وفي

الطريقة التى عالج بها مشكلة ما أسماه بـ «الفتنة الطائفية»، وحاولت معه بقدر ما استطعت.

واختلفنا سنة ١٩٧٣ فى مواجهات اندفع إليها دون مبرر - من وجهة نظرى - مع شباب الجامعات، ألقى بهم فى السجون وقدمهم للمحاكمات، ومع جماعات من المثقفين والصحفيين نقلهم بجرة قلم إلى مصلحة الاستعلامات، والتزمت بموقفى وإن حاولت جاهدًا أن أتفادى ما يقترب من حد الاستفزاز.

ولقد غضب عدة مرات وثار، واتهمنى بأننى أريد أن أفرض آرائى عليه، وأننى أتجاوز الخط الفاصل بين دور الصحفى وبين مسئولية الحاكم، وردد بعض ذلك فى خطب علنية. وحاولت مخلصًا أن أشرح له موقفى:

«كان رأيى أن حرية الصحافة بالمعنى الحقيقى هى حرية مناقشة صنع القرار، العوامل المؤثرة عليه والمناخ المحيط به والنتائج التى يمكن أن تترتب بعدها».

ولم يكن ذلك رأيه فى حرية الصحافة. كان القرار فى رأيه مسئولية الحاكم وحده، وكنت مستعدًا أن أوافقه فى ذلك عن معرفة بظروف العالم الثالث كله ومرحلة التطور التاريخى التى تمر بها بلدانه. ولكن مسئولية إصدار القرار شىء، وحق مناقشة هذا القرار وتقييمه وما يتصل به من مقدمات ونتائج شىء آخر!

ولم يكن على استعداد لأن يقتنع. ومن جانبى فلقد كنت حريصًا على أن لا تصل الأمور إلى صدام.

□

والحقيقة أنه كان من دوافعى لتجنب الصدام أننى تمنيت - ولعلى أردت - أن أظل قريبًا حتى تجىء معركة لإزالة آثار العدوان. كنت أعلم أنها قادمة كأحكام القدر تفرض نفسها على الجميع أرادوا أو لم يريدوا... أقدموا أو ترددوا!

□

وفى بداية خريف سنة ١٩٧٣ أصبح واضحًا أن المعركة لم يعد ممكنًا تأخيرها.

ولسوف أظل إلى آخر العمر مدينًا لـ «أنور السادات» بأنه أشركنى فى عملية الإعداد السياسى والإعلامى لها. وهكذا فإنى منذ أوائل سبتمبر ١٩٧٣ وحتى بدأت المعارك واحتدمت فى أكتوبر، وجدتنى أقرب الناس إليه. وكان يستطيع تجنبى لو أنه شاء، ولم يكن فى مقدورى أن أفرض نفسى عليه.

ولقد كنت طرفًا محاورًا - بتجرد وإخلاص - معه طوال أيام الأمل وأيام القلق... أيام التخطيط وأيام التنفيذ. وكنت شبه مقيم فى بيته أو فى قصر الطاهرة الذى انتقل إليه - كمقر قيادة له - قبل بدء العمليات بيومين.

وتكفينى للدلالة على عمق ما كان بيننا من ترابط فى تلك الأوقات وثيقتين هما أهم وثائق تلك المرحلة:

□

كانت خطة «جرانيت» (١) - العبور بخمس فرق من غرب القناة إلى شرقها على خمسة محاور والتمسك بخمسة رءوس كبارى فى الشرق - قد وضعت فى حياة «جمال عبد الناصر» الذى وضع عليها توقيعه بالاعتماد فى شهر مايو ١٩٧٠، ثم طلب تطويرها إلى «جرانيت» (٢) - الوصول إلى المضايق - لكن الحياة لم تمهله. ولقد تصورت أن استمرار قربى من عملية صنع القرار حتى تجيء المعركة - وأنا واحد من أقرب الناس إليه - مهمة مقدسة ربما يرضيه وهو فى رحاب الله أن أقوم بها.

وهكذا صبرت.

● **الوثيقة الأولى**: إننى أنا الذى كتبت التوجيه الاستراتيجى الصادر منه إلى القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية الفريق أول «أحمد إسماعيل على».. وفى هذا التوجيه تحددت استراتيجية الحرب، بما فيها أهدافها. وقد وقعه الرئيس «السادات» بتاريخ أول أكتوبر ١٩٧٣.

(وقد ذكرت هذه الواقعة وسجلتها فى محاضر تحقيق المدعى الاشتراكى معى فى صيف سنة ١٩٧٨، وفى حياة الرئيس «السادات» وفى عنفوان سلطته.

ونشرتها كاملة فى كتاب (وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى(*)). وكنت بذلك أرد على تهمة «الانهزامية» التى حاول - غفر الله له - أن يلصقها دون سند بى).

وترتب على هذا التوجيه تكليف مكتوب أيضًا للفريق أول «أحمد إسماعيل على» ببدء العمليات، وقعه الرئيس «السادات» يوم ٥ أكتوبر ١٩٨٣.

● **الوثيقة الثانية**: إننى أنا الذى كتبت للرئيس «السادات» خطابه أمام مجلس الشعب بتاريخ ١٦ أكتوبر، وفيه أعلن الرئيس «السادات» خطته لما بعد المعارك، بما فيها مقترحاته لمؤتمر دولى فى جنيف يجرى فيه حل الأزمة فى إطار الأمم المتحدة وتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

إلى هذه الدرجة كان قربنا فى تلك الظروف. وأستأذن أن أقول، مع ما فى القول من تجاسر أعتذر عنه مقدمًا - إننى على نحو أو آخر كنت أشعر فى أعماقى أن وجودى فى أجواء المعركة مهمة مقدسة... هناك بالطبع قداسة الواجب الوطنى لأى إنسان تواتيه الظروف. وكان هناك أيضًا نوع من القداسة العاطفية.. بشكل ما وعلى نحو ما فقد كنت أشعر أن «جمال عبد الناصر» ربما يرضيه حيث هو فى رحاب الله أن واحدًا من أصدقائه لا يزال قريبًا من وقائع حدث تاريخى عظيم أعد له ونذر نفسه لتحقيقه وعاش من أجله ورحل قبل أن يحين أوانه.

ولست أنكر أن تلك كانت أكثر فترة أعطيت فيها من نفسى لـ «أنور السادات». فقد بدا لى فى تلك الأيام - بصرف النظر عن كل شىء وأى شىء - حامل علم تنبض مع خفقاته كل رموز الحياة والإرادة.. كأن التاريخ تجمع كله فى لحظة مجد شامخة.

□

لكنى بدأت أحس فى وسط المعارك بأشياء بدت لى غير مفهومة... ثم بدأ غير المفهوم يتحول أمامى إلى ما هو غير مقبول.

(*) الناشر شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ص ب ٨٣٧٥ بيروت - لبنان.

وفى البداية حاولت السيطرة على هواجسى، ولكن تطورات الساعة كانت تحول هذه الهواجس إلى ظنون.

كانت هناك ظواهر لفتت نظرى حتى من قبل أن تبدأ المعركة، ولكن ضغوط المعارك المنتظرة وقوة الجذب الكامنة فيها راحت تكتسح كل شىء.

كانت قوة الاندفاع نحو ساعة السفر تجرف فى طريقها تساؤلات كثيرة حرت فى الوصول إلى جواب عليها.

ثم بدأت الأمور تأخذ منحنى خطيرًا ابتداء من يوم ١٠ أكتوبر ١٩٧٣.

ثم تأكد لى المجرى الجديد للأمور فى ملابسات القبول بوقف إطلاق النار، خصوصًا يوم ٢٠ أكتوبر.

وحين جاء «كيسنجر» إلى المنطقة والتقى بالرئيس «السادات» يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣ ـ وجدتنى أمام لحظة يتحتم عليّ فيها أن أقف ـ دون تردد أو تلعثم ـ لأجعل صوتى مسموعًا ومفهومًا، ثم ليكن بعدها ما يكون!

ولقد اعتقدت، وما زلت أعتقد، أن السياسة فى حرب أكتوبر خذلت السلاح ـ ولا أقول خانته ـ بمقدار ما أن السلاح فى سنة ١٩٦٧ خذل السياسة ـ ولا أقول خانها!

وأظن أن الخطأ الذى وقع فيه الرئيس «السادات» فى حرب أكتوبر ـ وكان بعده ما كان ـ أنه لم يستطع أن يفرق بين القتال والحرب.

القتال نيران بين دبابات ودبابات، ومدافع ومدافع، وصواريخ وطائرات... إلى آخره!

وأما الحرب فهى شىء آخر... الحرب صراع إرادات، تستعمل كل الموازين بما فيها الموازين الناشئة عن نيران ميدان القتال ـ للوصول إلى نتائج سياسية.

وليس ذلك اختراعًا جديدًا، فقد لخصه «كلاوزفيتز» فى كتابه «عن الحرب» ـ قبل مائتى سنة ـ حين قال: «إن الحرب هى مواصلة السياسة بطريقة أخرى».

وهكذا فإن الحرب هي عمل سياسي... تمهد له السياسة، وتدير جهده السياسة، وتوجه نتائجه السياسة.

وفي الحرب المحدودة - التي هي الحرب الوحيدة المتاحة الآن في ظلال التوازن النووي - فإن أخطر فترة في الحرب ليست هي فترة المعارك، وإنما هي فترة ما بعد المعارك.. فتلك هي الفترة التي يكون فيها على صاحب القرار أن يمسك بيد حازمة كل عناصر موقفه - بما فيها معارك القتال - لكي يدير حركة هذه العناصر بمقدرة واستنارة حتى يصل بها إلى النتائج السياسية التي يريدها.

وأقر - آسفًا - أنني لا أعرف في تاريخ الحروب الحديثة حربًا اختلفت فيها النتائج عن المقدمات، وتناقض فيها مسار التطورات مع خواتيمها - كما حدث في حرب أكتوبر.

ويكفينا هنا ثلاث نظرات محددة على ثلاثة مواقع بعينها:

(١) النظرة الأولى على الهدف الذي حددناه لأنفسنا في حرب أكتوبر، وأستشهد فيها بنص التوجيه الإستراتيجي النهائي الصادر من الرئيس «السادات» إلى الفريق أول «أحمد إسماعيل علي» يوم ٥ أكتوبر، وكان نصه:

توجيه استراتيجي من رئيس الجمهورية

والقائد الأعلى للقوات المسلحة

إلى: الفريق أول أحمد إسماعيل علي

وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة

١ - بناء على التوجيه السياسي العسكري الصادر لكم مني في أول أكتوبر ١٩٧٣ وبناء على الظروف المحيطة بالموقف السياسي والإستراتيجي:

قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الإستراتيجية الآتية:

أ ـ إزالة الجمود العسكرى الحالى بكسر وقف إطلاق النار اعتبارًا من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

ب ـ تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة فى الأفراد والأسلحة والمعدات.

جـ ـ العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة.

٢ ـ تنفيذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية.

٩ رمضان ١٣٩٣هـ

٥ أكتوبر ١٩٧٣م

(توقيع)

أنور السادات

رئيس الجمهورية

(٢) النظرة الثانية على الموقع الذى كنا عنده فى أواخر سنة ١٩٧٣، وحين كان العالم كله ـ بما فيه «هنرى كيسنجر» ـ يشهد لنا بأننا أحرزنا «انتصارًا استراتيجيًا على إسرائيل لا شك فيه» ـ بصرف النظر عن أخطاء فى مجرى الحرب أو بالقرب من مسارح العمليات.

(٣) النظرة الثالثة على نص البيان الذى أصدره «مناحم بيجن» فى مطلع السنة اليهودية الجديدة ـ سنة ٥٧٤٣ ـ وقد نشر هذا البيان فى جريدة الـ «جيروزاليم بوست» بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩٨٢، وفيه يحدد «بيجن» ما تحقق لإسرائيل فى لبنان. وكانت لبنان هى الخاتمة الطبيعية لطريق موحش بدأ بفك الارتباط الأول فى يناير ١٩٧٤.

فى هذا البيان - صراحة أو ضمنًا - حدد «مناحم بيجن» تسعة أهداف حققتها إسرائيل على النحو التالي :

● تأكد ارتباط مصر بصلحها مع إسرائيل وفقًا لنصوص كامب دافيد.

● تحقق تحطيم القوة المسلحة للثورة الفلسطينية، وبالتالى ضرب هيبتها ونفوذها.

● ثبت أن العالم العربى لا يستطيع أن يرفع أصبعًا فى مواجهة إسرائيل - ولم يكن لدى دوله جميعا إلا قبول «الإرهابيين» الفلسطينيين كلاجئين ليس لهم مكان إلا معسكرات محاصرة ومعزولة.

● تم وضع سوريا فى مكانها لا تتجاوزه.

● جرى وضع الاتحاد السوفياتى فى موضع العاجز.

● أثبت السلاح الأمريكى - الإسرائيلى تفوقه.

● ظهر احتمال معاهدة صلح بين دولة عربية ثانية - بعد مصر - وبين إسرائيل (يقصد لبنان).

● لم يعد هناك بديل لهدوء شامل على كل الجبهات العربية، ولن يجرؤ أحد على الاقتراب، وهكذا فإن الكل فى وضع أشبه بوضع معاهدة عدم اعتداء مع إسرائيل.

● تغيرت موازين القوى بين المسلمين والمسيحيين فى لبنان.

□

ثم أترك هذه المجموعة من الأحاديث التى افترقت عندها الطرق تروى قصتها.

ولقد حرصت على أن لا أقترب - ولا بلمسة - مما كتبت فى تلك الفترة الحاسمة والفاصلة، ولم أشأ حتى أن أضمن هذه المقدمة استشهادات مما كتبت فيها بقصد الضغط على بعض الإشارات والإيماءات التى وجدتها فى ذلك الوقت مدعاة للشك

والقلق، وخطر لى أن مثل تلك الاستشهادات سوف تكون محاولة غير مطلوبة ولا مبررة تحمل على الأقل مظنة ادعاء الحكمة والعصمة، وهو شىء مكروه. وإذا كان لى أن أضيف ملاحظة أخيرة فى هذه المقدمة فهى الرجاء بأن يتفضل الذين يستعيدون تاريخ تلك الشهور الأربعة الحاسمة والفاصلة - من خلال إعادة قراءة هذه الأحاديث - بأن لا يكتفوا فقط بقراءة السطور - ولو أن السطور تحمل ما فيه الكفاية - وإنما أن يقرءوا أيضًا ما بين السطور ذاكرين أن هذا كله كتب فى وقته وفى حينه، وأن جو الحرب كان لا زال مخيمًا وقت كتابتها بما يفرض من قيود يضعها الكاتب على نفسه حتى وإن ما يفرضها عليه أحد.

وأتلفت إلى تلك الأيام - وأنا أستعيد قراءة تاريخها من خلال هذه الأحاديث - بكثير من الأسى والألم قائلاً لنفسى:

- هناك كان مفترق الطرق.

ليس فقط على المستوى الشخصى والمهنى، ولكن أيضًا على مستوى التاريخ!

واقع الحال أمامنا شاهد لا يكذب..

حزينًا أقولها!

محمد حسنين هيكل

.. والخطر على الشرق الأوسط

٥ أكتوبر ١٩٧٣

قد يكون ضروريا - وربما مفيدًا - أن أعيد تركيز بعض ما كنت أتكلم فيه وابتعدت عنه لألحق بمواكب الذكرى الثالثة لرحيل جمال عبد الناصر.

كنت قد استعرت عبارة شهيرة عن زعيم الصين «ماوتسى تونج» يقول فيها:

«احملوا السلاح دفاعًا عن حدودكم، وتأملوا فى نفس الوقت أحوال العالم وراء هذه الحدود... وافهموا».

□

وعلى ضوء ما تنادى به هذه العبارة الشهيرة فقد حاولت تحليل الموقف على القمة العالمية اليوم وخلصت بما يلي:

١ - هناك حالة وفاق بين القوتين الأعظم [الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى].

٢ - هناك تعارض تاريخى بين القوتين الأعظم بحكم المصالح والمبادئ وهذا التعارض يخضع لقانون التاريخ: الصراع والحركة والتغيير.

٣ - أن ما تغير بالوفاق بين القوتين الأعظم هو مجال وأسلوب التعارض بين الاثنتين فلم يعد المجال هو علاقاتهما المباشرة، ولم يعد الأسلوب هو احتمال الحرب

(*) نشرت هذا الحديث - كما هو واضح من تاريخه - قبل نشوب المعارك بيوم واحد، وكنت به أستكمل سلسلة تتابعت حلقاتها قبله. وقد آثرت أن أضمه إلى هذه المجموعة من الأحاديث، حتى يكون بمثابة نقله طبيعية إليها - وقد كان كذلك فعلا.

أو التلويح بها من قريب أو بعيد، لأنها بينهما أصبحت مستحيلة تماما ولو فى المستقبل المرئى على أقل تقدير.

وترتيبًا على ذلك فلقد حاولت البحث عن مجالات التعارض الجديدة بين القوتين الأعظم ووصلت إلى أن هناك فيما نرى اليوم وغدا مجالين:

أولهما: أوروبا الغربية: وهى بؤرة الاهتمام الأولى فى سياسة الاتحاد السوفيتى فى الظروف الراهنة[شرحت ذلك بالتفصيل].

والثانية: الشرق الأوسط: وهى بؤرة الاهتمام الأولى فى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى الظروف الراهنة[شرحت ذلك بالتفصيل أيضًا].

□

ثم خطوت بعد ذلك خطوة فى البحث عن هدف الاتحاد السوفيتى فى أوروبا الغربية وكان تقديرى فى النهاية هو أن الاتحاد السوفيتى يريد«فنلدة» أوروبا الغربية أى فرض نوع من الحياد السلبى عليها يقبع راضيًا فى ظلال القوة السوفييتية الهائلة ويمارس تحت هذا التأثير وفى حدوده، حركته وحريته بما يمكن أن يعنيه ذلك فى مثل تلك الظروف[وضع فنلندا الآن].

***

وأريد أن أضيف اليوم أنه ليس معنى ذلك أن اهتمام الاتحاد السوفيتى بالشرق الأوسط قليل، وإنما معناه أن اهتمام الاتحاد السوفيتى بأوروبا الغربية أكثر.

وربما كان السبب أن الاتحاد السوفيتى، رغم كونه إحدى القوتين الأعظم فإنه على وجه اليقين ليس قوة إمبريالية... أى إن إستراتيجيته بالدرجة الأولى - ومن وجهة النظر العسكرة - إستراتيجية دفاعية، وهذا يجعله حساسًا بالنسبة لاعتبارات أمنه. والمداخل القاتلة إلى قلب الاتحاد السوفيتى هى على طرق الاقتراب من أوروبا الغربية والوسطى، وليست من الشرق الأوسط.

وبلا شك فإن الاتحاد السوفيتى له إستراتيجية هجومية، ولكن هذه الإستراتيجية الهجومية سياسية وعقائدية بالدرجة الأولى، وليست عسكرية:

● وإستراتيجية الأمن والدفاع عن انفس عادة ذات طابع فوري وملح.

● وإستراتيجية التأثير السياسى والعقائدى عادة ممتدة، تنضج بالوقت وليس هناك داع لاستعجالها خصوصًا إذا كان من شأن ذلك أن يؤدى إلى محاذير فى العلاقات مع القوة الأعظم الأخرى - الولايات المتحدة - التى تعتبر الشرق الأوسط بؤرة اهتمامها الأولى، دون تقليل من أهمية أوروبا الغربية بالنسبة لها لأنها من ناحية تعتبر صلات أوروبا الغربية بها وثيقة، ثم هى من ناحية ثانية تعتبر أن أوروبا الغربية قادرة بطاقاتها المادية والحضارية على الوقوف لو أنها حزمت أمرها وتحملت مسئوليات أكثر فى الدفاع عن نفسها.

□

ولقد أضيف اليوم أيضًا أن هناك ظواهر محددة تشير إلى أن الشرق الأوسط - ضمن مجالات التعارض بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى - لا يأخذ أولوية أولى فى الاهتمامات السوفييتية، وليس ذلك لومًا له أو حتى عتابًا، لأنى أحد الذين يؤمنون بأنه لا مجال لمثل ذلك فى العلاقات الدولية، فالعلاقات الدولية ليست أمانى وعواطف، ولكنها مصالح وموازين.

وتلفت نظرى فى هذا الصدد ثلاث ظواهر محددة:

١ - إننا ارتكبنا نصيبًا من الأخطاء فى حق العلاقات العربية - السوفييتية، ولكنه من الإنصاف للحقيقة أن نقول أن الاتحاد السوفيتى كان فى وسعه - لو أن ذلك كان متفقًا مع المصالح والموازين التى تعنيه بالدرجة الأولى - أن يساعد العرب بأكثر مما ساعدهم.

إن التجارب الراهنة فى العالم تقول لنا إنه ليست هناك واحدة من القوتين الأعظم يصعب عليها - إذا أرادت - أن تحول صديقًا لها أو حليفًا إلى قوة عسكرية لها شأنها.

● الولايات المتحدة فعلت ذلك مع إسرائيل، وفعلته مع كوريا الجنوبية، وفعلته مع فيتنام الجنوبية.. بل وفعلته مع الماريشال شيانج كاي شيك فى تايوان[فورموزا].

● الاتحاد السوفيتى فعل ذلك مع كوريا الشمالية، وفعله مع فيتنام الشمالية.. بل وفعله مع الهند وهى ليست دولة شيوعية.

ولا يمكن أن يقال إن نوعية الإنسان أو نوعية السلطة فى كوريا الجنوبية والشمالية، فى فيتنام الجنوبية والشمالية، فى تايوان وفى الهند، كانت من قماش يختلف يجود فيه التفصيل هناك ولا يجود فيه التفصيل هنا فى الشرق الأوسط!

حينما أرادت إحدى القوتين الأعظم - بمصالحها وموازينها - تحويل صديق أو حليف إلى قوة عسكرية لها شأنها فإنها استطاعت.

٢ - إن مسألة هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل، ظاهرة أخرى تلفت النظر، وأريد أن أقول وبمنتهى الإنصاف إننى أفهم بعض ظروف الاتحاد السوفيتى فى السماح بالهجرة:

● فهو يتعرض لحملة تشهير مروعة سببها صداقته مع العرب.

● ثم هو لا يستطيع أن يرغم أحدًا على البقاء فيه رغم إرادته.

● ثم إن فى مقدوره أن يقول للائميه من العرب:

«لقد بلغ عدد اليهود الذين هاجروا من يهود البلاد العربية إلى إسرائيل قرابة نصف المليون، وأما عدد المهاجرين من يهود الاتحاد السوفيتى إلى إسرائيل فلم يصل حتى الآن إلى مائة ألف».

لكن الإنصاف من ناحية أخرى يقتضى أن نقدر أن هناك فارقًا فى النوع بين المهاجرين من اليمن وبين المهاجرين من ليتوانيا، كما أن التوقيت يلعب دورًا مهمًا فقد هاجر الذين هاجروا من البلاد العربية في وقت يختلف تمامًا عن الوقت الذى يتدفق فيه اليهود السوفييت على إسرائيل.

ولست واثقًا من أن هذه القضية أُثيرت مع الاتحاد السوفيتى من جانب العرب بطريقة جادة وواضحة، ولقد آن لمثل ذلك أن يحدث خصوصًا بعد ما جرى أخيرًا فى النمسا وبعد الموقف الذى اتخذه مستشارها كرايسكى. وصحيح أن الاتحاد السوفيتى يريد - بمساعدة سياسته فى الهجرة المفتوحة - أن يحصل من الولايات المتحدة على الامتيازات التجارية التى تتمتع بها الدولة الأولى بالرعاية، ولكن العالم العربى باستمرار عملية الهجرة سوف يصبح المنطقة الأكثر تعرضًا للخطر.

٣ - ظاهرة أخرى تلفت النظر وهى صفقات السلاح الهائلة التى عقدتها الولايات المتحدة الأمريكية مع إيران، وقد يبدو لأول وهلة أن ذلك أمر لا علاقة للاتحاد السوفيتى به، ولكن أى متتبع لقواعد اللعبة الدولية فى العصر الحديث ومصالحه وموازينه، يدرك أنه ليس فى استطاعة إحدى القوتين الأعظم أن تساعد على وجود مثل هذا الحشد الهائل من السلاح فى بلد متاخم لحدود القوة الأعظم الثانية دون موافقتها أو دون استئذانها.

وموضوع تسليح إيران ليس هو موضوع بحثى اليوم فهو قضية أخرى متشعبة ومتداخلة ولكن النقطة التى تعنينى اليوم هى:

إن الاتحاد السوفيتى - وهذه حقيقة من حقائق ممارسة القوة فى العصر الحديث لا تقبل المناقشة - استؤذن فى حجم ونوع التسليح الإيرانى، وقد أعطى موافقته لأن هذا التسليح يتم تنفيذه بالفعل.

ودوافع إيران إلى هذا الحجم والنوع من التسليح يمكن فهمها.

ودوافع الولايات المتحدة إلى المساعدة عليه يمكن فهمها.

وأمّا السؤال الذى لا يجد إجابة واضحة حتى الآن هو:

لماذا وافق الاتحاد السوفيتى ولماذا أعطى الإذن؟!

☐

إن هذه الظواهر كلها - إلى جانب ما سبق لي شرحه - تشير إلى أن الاتحاد

السوفيتى يعطى الأولوية التى لا تقبل شكًا لأوروبا الغربية «وفنلدتها» وأما الشرق الأوسط فإنه يجىء فى ترتيب يلى ذلك ويلحق به.

وهنا أصل إلى النقطة التى أقصدها فى حديث اليوم وهى الأولوية المطلقة التى تعطيها الولايات المتحدة الآن للشرق الأوسط وكونه بؤرة الاهتمام الرئيسية فى إستراتيجيتها الآن خصوصًا بعد حل مشكلة فيتنام وبعد الوفاق مع موسكو وبعد الدق على أبواب بكين.

***

لقد اتفقنا على أن الاتحاد السوفيتى يعطى الأولوية الأولى لأوروبا الغربية لأنه يريد «فنلدتها» وذلك لا يعنى أن اهتمامه بالشرق الأوسط قليل فذلك مستحيل بالنسبة إلى كل ظروف وخصائص المنطقة..

ثم إننا اتفقنا على أن الولايات المتحدة تعطى الأولوية الأولى للشرق الأوسط...

وعلينا الآن أن نبحث عن مقاصدها الكبرى فيه وعن وسائلها لتحقيق هذه المقاصد فى ظل الأوضاع الراهنة.

وما تريده الولايات المتحدة - أى مقاصدها الكبرى فى الشرق الأوسط - لم يتغير ويمكن تلخيصه فيما يلى:

١ - السيطرة الإستراتيجية على المنطقة.

٢ - استمرار الحصول على ثرواتها وبالذات من البترول.

٣ - المحافظة على وجود وأمن إسرائيل لأسباب سياسية معنوية ترجع إلى تداخل إسرائيل بعمق فى الحياة الأمريكية، وأسباب سياسية عملية ترجع إلى أن إسرائيل أثبتت نفعها كأداة ردع فى يد السياسة الأمريكية فى المنطقة.

إذا كانت هذه هى المقاصد فما هى الوسائل التى تستعملها الولايات المتحدة فى ظل الأوضاع الراهنة؟

إن المقاصد الكبرى هى الإستراتيجية العليا للولايات المتحدة فى هذه المنطقة، والوسائل هى الإستراتيجية الأمريكية فى هذه المنطقة وإذن فإن سؤالنا يصبح الآن هو:

ما هى إستراتيجية الولايات المتحدة فى هذه المنطقة وفى هذه الظروف الراهنة؟

وهنا نجد أمامنا خطوطًا إستراتيجية متعددة متوازية أحيانًا ومتداخلة فى أحيان أخرى ولكنها جميعًا فى نفس الإتجاه.

■ ■ ■ **الخط الأول**: هو إخراج الاتحاد السوفيتى من المنطقة العربية كطرف مباشر فى علاقاته معها [ومع الاحتفاظ له بحقوقه ضمن المصالح والموازين العالمية باعتباره واحدًا من القوتين الأعظم].

وكانت وسيلة الولايات المتحدة إلى ذلك هى تجميد أزمة الشرق الأوسط بكل الوسائل.

● قفل أبواب أى حل معقول على أساس قرار مجلس الأمن.

● وفى نفس الوقت فتح أبواب مخازن السلاح بغير حساب لإسرائيل.

وهكذا لم تتجمد أزمة الشرق الأوسط فقط، ولكن تجمد أيضًا دور الاتحاد السوفيتى فى حلها وفى ذلك فإن الولايات المتحدة استغلت إلى أقصى حد فهمها لأولويات الاتحاد السوفيتى ونظريته الدفاعية عسكريًا، ونظريته الهجومية سياسيًا وعقائديًا.

كانت تعرف أن الأمن الأوروبى شاغله الأكبر.

وكانت تعرف أن أسلوبه فى الشرق الأوسط - كما فى غيره من مناطق الهجوم السياسى والعقائدى - أسلوب مدى طويل ينتظر التفاعلات التاريخية وتطوراتها الطبيعية.

وكانت تعرف فى نفس الوقت أن الأمة العربية تعيش بنفاد الصبر وإن جرحها بعدوان سنة ١٩٦٧ لا يستطيع انتظار التفاعلات التاريخية وتطوراتها الطبيعية.

ومتى تجيء؟

وهكذا بدأ التململ والتبرم فى العلاقات العربية السوفييتية. ومن سوء الحظ أن الطرفين العربى والسوفيتى معًا لم يستطيعا تحليل هذا الخط الأمريكى، أو أنهما حللا ثم عجزا عن التصرف أو اختلفت بينهما السبل.

■ ■ ■ **الخط الثاني:** وهو متصل بالخط الأول هو: إخراج السلاح السوفيتي من المنطقة.

ولقد كان دخول السلاح السوفيتى إلى المنطقة هو بداية الدور السياسى السوفيتى النشيط فيها، ويمكن أن يكون خروج السلاح السوفيتى هو نهاية الدور السياسى السوفيتى النشيط فيها.

وكانت الحملة الأمريكية ضد السلاح السوفيتى ضارية، ومن سوء الحظ مرة أخرى أن الطرفين العربي والسوفيتي شاركا بنصيب فى النجاح الجزئى الذى أصابته هذه الحملة حتى الآن واندفعا إلى حوار لم يكن فى مصلحة أي منهما:

● سنة ١٩٦٧: كان الاتحاد السوفيتى يقول للعرب:

-إنكم أسأتم إلينا وكشفتم موقفنا حينما عجزتم عن استعمال سلاحنا».

● سنة ١٩٦٨: كان العرب يقولون للاتحاد السوفيتى:

-إنكم لم تعطونا ما كان لازمًا للمعركة ولا بد أن تصححوا».

● سنة ١٩٦٩: كان الاتحاد السوفيتى يقول للعرب:

-السلاح لم يصنع لكى يتكدس فى المخازن ولكن لكى يتم استيعابه».

● سنة ١٩٧٠: كان العرب يقولون للاتحاد السوفيتى:

-قارنوا بين الفانتوم وبين الميج ٢١».

● سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧١ وسنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٧٣ كان العرب ما زالوا يحصلون على سلاح من الاتحاد السوفيتى، ولكنهم كانوا قد بدءوا يدقون أبوابًا

أخرى: بعضهم ذهب إلى أوروبا الغربية وهذا معقول لأن سلاحها يمكن استخدامه ضد إسرائيل، وبعضهم الآخر ذهب إلى الولايات المتحدة ذاتها وهذا غير معقول لأن سلاحها لا يمكن استخدامه ضد إسرائيل..

والمسألة أن السلاح ليس ارتباط يوم، وإنما السلاح ارتباط سنوات طويلة، بالتدريب والخبرة وقطع الغيار إلى آخره.

■ ■ ■ **الخط الثالث للإستراتيجية الأمريكية**: هو تعميق التناقضات الإقليمية فى المنطقة وإضافة تناقضات جديدة إلى ما هو موجود منها فعلاً.

لقد جرى مثلاً تعميق التناقض العربى الإسرائيلى، فإن التأييد الأمريكى لإسرائيل جعل مشكلة إسرائيل أكبر من مشكلة فلسطين.

لم تعد الأزمة فى الشرق الأوسط ـ كما كانت قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ ـ هى حقوق شعب فلسطين وإنما أصبحت الأزمة هى تراب الشعب المصرى وتراب الشعب السورى والخطر الإسرائيلى على كل تراب عربى.

وهناك الآن أمام عيوننا محاولة لخلق وتعميق تناقض إقليمى آخر وهو التناقض العربي ـ الإيرانى.

وكان هذا التناقض حتى الأمس فى إطار نزاع المياه الإقليمية فى شط العرب بين إيران والعراق.

وهذا التناقض يمكن أن يصبح غدًا تناقضًا بين المملكة العربية السعودية وبين إيران بسبب أمن الخليج العربى كله، بل إنه فى هذه الحالة سوف يصبح تناقضًا إيرانيًا ـ عربيًا شاملاً وهذا خطر يجب التنبه إليه وتداركه.

وأتذكر إننى كنت أخيرًا فى مناقشة مع «الجنرال شودري» القائد العام السابق للجيش الهندى وهو الآن خبير من خبراء مركز الدراسات الإستراتيجية فى لندن وقد كان مارًا بالقاهرة قادمًا من إيران، ولفت نظرى فى حديثه قوله لى:

ـ عندما رحت أدرس حالة استعداداتهم العسكرية فى إيران خطر لي السؤال

التقليدى الذى يجب أن يسأله كل طرف لنفسه عندما يبدأ فى بناء قوته فوق أي حد طبيعى وهو:

ـ من هو العدو الذى تبنون له هذه القوة المسلحة؟

ولم أتلق جوابًا»

ويستطرد الجنرال شودري فى كلامه فيقول لي:

ـ لم أتصور بالطبع أن هذا الاستعداد موجه إلى الجار الكبير لإيران فى الشمال وهو الاتحاد السوفيتى...

إن هذا الاستعداد أقل مما هو لازم لمواجهة مع الاتحاد السوفيتى ولكنه أكبر مما هو لازم لبقية جيران إيران فى أوضاع طبيعية».

■ ■ ■ **الخط الرابع للإستراتيجية الأمريكية**: هو إرهاق وإنهاك القوى الوطنية التى تصدت للولايات المتحدة فى مرحلة المد الثوري لحركة القومية العربية فى السنوات المجيدة ما بين ١٩٥٥ إلى ١٩٦٦.

إن عدوان سنة ١٩٦٧ كان موجهًا أصلاً لإصابة هذه القوى بأعمق الجراح، واستمرار العدوان سنة بعد سنة مقصود منه أن تبقى هذه الجراح العميقة نزيفًا مستمرًا ثم هى جراح مفتوحة قابلة للتلوث بالعفن.

وإذا ما حدث ذلك فإن المنطقة يمكن إعادتها ببساطة إلى ما قبل سنة ١٩٥٢، أي ما قبل التجربة الثورية المصرية وأبعادها العربية المتعددة الجوانب سياسيًا واجتماعيًا وفكريًا.

والحملة أشد ما تكون ضد نظم أو أحلام قادرة على الحركة وعلى الانطلق وربما من هنا كان التركيز الشديد على الثورة الليبية وعلى احتمالات الوحدة بين مصر وليبيا.

■ ■ ■ **الخط الخامس للإستراتيجية الأمريكية**: هو الإمساك بموارد الطاقة فى المنطقة بأسلوب شديد البراعة والخبث.

إن الولايات المتحدة أول من يشعر بأزمة الطاقة، ولكن الغريب فى نفس الوقت أن الولايات المتحدة هى أول من يبالغ فى أزمة الطاقة.

أزمة الطاقة موجودة، ومفاتيحها فى يد العرب.

والولايات المتحدة لا تكل من الحديث عنها، وهى لا تمل من الإشارة إلى مفاتيحها.

وهى بفهمها للعقلية العربية حتى الآن تعرف أن العرب يتحدثون أحيانًا عن السلاح ويستغنون بذلك عن استعماله.

الكلمة عندهم أحيانًا بديل للفعل.

والتشخيص لديهم فى بعض المرات براءة من العلاج.

وهذا ما نراه الآن فعلاً!

الكل يتحدث عن أزمة الطاقة وما يمكن أن يحدث فى الولايات المتحدة إذا استخدم العرب سلاحهم الكبير..

والحقيقة التى لا تقبل الشك إن إنتاج البترول العربى يزداد فى السعودية ويزداد فى العراق ويزداد فى الجزائر ويزداد فى إمارات الخليج، لكن الحقائق ضائعة فى ضباب الوهم.

وربما كان هناك سبب آخر تعتمد عليه الولايات المتحدة إلى جانب ضباب الوهم:

بعض الناس يعيشون أسرى فقرهم.. والبعض الآخر يعيشون أسرى غناهم، وهذه قمة - أو هى قاع؟ - المأساة!

■ ■ ■ **الخط السادس للإستراتيجية الأمريكية:** هو السيطرة على السيولة العربية الفادحة.

إن الأرقام تتفاوت فى تقديرات الدخول والودائع العربية السائلة.

كانت الدخول العربية السائلة من البترول قبل سنوات شيئًا قليلاً بنسبة ما هى عليه الآن، وشيئًا لا يقارن بما ستكون عليه فى المستقبل المنظور.

كان دخل المملكة العربية السعودية مثلاً سنة ١٩٦٧ فى حدود ٣ بلايين دولار فى السنة.

دخل المملكة العربية السعودية هذه السنة ١٩٧٣ـ ٩ بلايين دولار فى السنة.

دخل المملكة العربية السعودية سنة ١٩٨٠ ـ فيما تقول به أوثق التقديرات ـ ١١بليون دولار فى السنة.

وفى سنة ١٩٨٠ سيكون الدخل العربى السائل كله من البترول ما بين ستين إلى ثمانين بليون دولار كل سنة.

وهذه أرقام فلكية من ناحية السيولة.

إنها ليست خطيرة بمعايير ثروات الأمم التى تحسن توظيف ما لديها، ولكنها خطيرة بمعايير ثروات الأمم التى تترك ما لديها دون توظيف، تصبح الثروات فى هذه الحالة نوعًا من البحث عن المغامرة والتشرد والتسكع.. تصبح أموالاً مائعة، وساخنة حسب التعبير الذى يستعملونه فى الغرب الآن.

والسيطرة على السيولة لها وسائل:

● الخصم منها بتخفيض الدولار مثلاً وليتحمل الآخرون تكاليف الحماقات الأمريكية.

● الرهن عليها بالاستثمار فى الولايات المتحدة.

● أكثر من ذلك محاولة مصادرتها تقريبًا بنظم نقدية جديدة تضع قيودًا على حركتها تحت دعاوى تأمين نظام النقد العالمى.

■ ■ ■ **الخط السابع للإستراتيجية الأمريكية**: وهو الخط الثانى من خطوطها هو: ضمان التفوق العسكرى لإسرائيل.

إذا لم ينجح ما سبق كله .. فإن العصا الإسرائيلية الغليظة موجودة وهى قادرة على أن تهوى فوق أى رأس يريد أن يرتفع.

....

....

كانت تلك - ولا تزال - هى المقاصد الثلاثة للإستراتيجية العليا للولايات المتحدة فى المنطقة.

كانت تلك - ولا تزال - هى الوسائل السبع للإستراتيجية الأمريكية فى المنطقة فى الأوضاع الراهنة!

ولقد تحدثنا من قبل عن هموم أوروبا وهذه اليوم هى المخاطر على الشرق الأوسط.

محاولة تصور للموقف

١٢ أكتوبر ١٩٧٣

مازال الوقت مبكرًا لرواية قصة ما حدث، وعرض وقائعه، وتحليل تطوراته، واستخلاص نتائج تساعد بدورها على التأثير فيما هو محتمل..

الوقت يعطى الفرصة بالكاد لتعليق سريع، أو لتعبير عاطفى، أو للقطة بآلة تصوير لا تتعدى مسئوليتها أن تمسك بمشهد واحد فى الحركة المستمرة والمتدفقة والهادرة للشلال المندفع فوق جنادل الصخور.

ومع ذلك، فلقد يكون مناسبًا أن نحاول الوصول إلى تصور متماسك للموقف العام كله، وبقدر ما تسمح به سرعة إيقاع الحوادث من ناحية، وضرورات الكتمان، احترامًا لاعتبارات الأمن، من ناحية أخرى.

□

وأجد أمامى ثلاثة أسئلة محددة، تتصل بالأمس، وباليوم، وغدا. وهذا فى ظنى أوسع نطاق نملك الحديث فيه اليوم:

قبل الأمس مضيعة للوقت فى هذه اللحظات.

وبعد الغد مغامرة مع المجهول لا ضرورة لها.

ومعنى ذلك أن الأسئلة الثلاثة المحددة المتصلة بالأمس وباليوم وغدا هى على النحو التالى:

١ ـ ماالذى حققناه حتى الآن فعلا؟

٢ ـ ماالذى يتعين علينا عمله الآن؟

٣ ـ وأخيرًا.. غدًا، وكيف نستطيع أن نأخذه لصالحنا؟

***

■■■ السؤال الأول: ماالذى حققناه حتى الآن فعلاً؟ والرد عليه كما يلى:

١ ـ حققنا «القرار» بقبول التحدى، و «القرار» هنا مرادف دقيق لمعنى «الإرادة».

كانت حالة اللاسلم واللاحرب قد طالت بأكثر مما هو لازم لأى شعب يريد أن يحتفظ بحيويته النضالية، ولكن القرار لم يكن سهلاً، وخصوصًا أن الملابسات المحيطة بالعمل الوطنى فى مصر ـ وربما فى غيرها من بلاد العالم النامى كله ـ تضع مسئولية القرار على كتفى رجل واحد.

أى أنه بالنسبة لأنور السادات، فإن القرار كان مصيريًا، وفى الوقت نفسه فقد كان عليه أن يتخذه وحده.

وربما كان من حقه وواجبه أن يسمع وأن يناقش، لكنه فى النهاية كان مطالبًا بأن يكون وحده، عقلاً وقلبًا وضميرًا، ثم يصل إلى القرار ويتحمل تاريخيًا مسئوليته.

وأتذكر حوارًا مع أنور السادات جرى فى مساء يوم الجمعة ٢١ سبتمبر الماضى فى شرفة استراحة برج العرب المطلة على البحر..

كان جالسًا فى صمت لبعض الوقت، وكان فيما بدا يتأمل منظر غروب الشمس فى هذه البقعة الجميلة من شاطئ مصر الغربى، لكنه فجأة شد نظره عن مشهد الطبيعة المهيب ليقول لي:

-إن القرار بالنسبة لغيرى تعامل مع الأفكار والتقديرات والاحتمالات، وأمّا بالنسبة لي فإن القرار تعامل مع الحياة والموت، والمسألة لا تتعلق بشخصى فقد عرفت الحياة وواجهت الموت، ولكنها تتعلق بألوف.. مئات الألوف من الرجال

سـوف يأخـذون الكلمـة منى.. وفـوق ذلك هـناك كرامـة ومـسـتـقبل وحيـاة أمـة فى الميزان».

ولم أشـعـر أننى أحس بأزمـة «الاخـتـيار الإنسـانى» كمـا أحـسـست بها فى تلك اللحظة.

لكن ذلك كان دوره وكان قدره كما قال هو أكثر من مرة..

كـان «اخـتـيـاره» هو «القـرار» وكـان «القـرار» هو الـتعـبـيـر عن «الإرادة» الـوطنيـة والقومية وربما كان من الإشارات ذات المعانى أن أنور السادات بعد أن استقر قراره على أنه سـوف يقبل أول تحدٍ يقوم به العدو اختار لما سوف يقوم به اسمًا رمزيًا لا يخطر بسهولة على البال..

كان الاسم الرمزى الذى اختاره بنفسه لما ينوى أن يفعله هو: «الشرارة».

... كـيف خطر له هـذا الاسـم؟ .. مـا هـى الإيماءات والإيحـاءات الكامنـة فـيـه؟ - إنه وحده الذى يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة ولكن.

الاسم معبأ بالكثير: الأمل .. اللهب .. البعث .. وغير ذلك وغيره!

٢ - حققنا بعد ذلك «اجتياز حائط الخوف» وذلك شىء بالغ الأهمية فى حياة أى أمة مهما كانت النتائج.

وكان «حائط الخوف» متمثلاً فى عبور قناة السويس وفى اقتحام خط بارليف:

● القناة نفسها حاجز مائى من أصعب الحواجز.

● وخط بارليف على حـافتـهـا سـلاسل مـتـصلة من المواقع الحـصـينة اسـتـفـاد بدروس الحصون الشهيرة فى الحرب العالمية الأخيرة: خط ماجينو الفرنسى وخط سيجفريد الألمانى.

وكـان كل الخبـراء العسكريين فى العـالم وبغـيـر اسـتـثناء يرون عـمليـة العبـور صعبة.. كان تقديرهم أنها ليست مستحيلة، ولكن مخاطرها تفرض التفكير طويلاً، ثم إنها تتطلب تضحيات ليس من السهل قبولها.

ولست أظن أن الوقت ملائم لشرح الطريقة التى تمكنت بها القوات المسلحة المصرية من اجتياز حاجز الخوف: عبور القناة تحت النار واقتحام خط بارليف، وإن كنت أقول على الفور إن واحدًا من أفلام التليفزيون التى عرضت على الناس قد ظلم هذه العملية المجيدة ظلمًا فادحًا فقد ذهبت العدسات إلى مواقع بدء العبور فى اليوم التالى وكان المسرح كله قد انتقل إلى الضفة الشرقية وبدت الصورة كما ظهرت على شاشة التليفزيون أمام الناس وديعة مسالمة كأنها رحلة على بحيرة، وهى لم تكن كذلك حقيقة فى اليوم السابق!!

كانت عاصفة برق ورعد، وكانت ملحمة شجاعة وتضحية.

كانت صفحة القناة نارًا ودمًا لكن الرجال لم يترددوا، ويوم تكتب القصة الكاملة لطلائع العبور التى اجتازت القناة - وسط الصواعق - فى قوافل من قوارب المطاط لتمهد لإقامة الجسور على الضفة الشرقية - فإن أمة بأسرها سوف تشعر بأنها عاشت لحظة من أعظم لحظات حياتها.

.. لقد انطلقت الكتائب والألوية والفرق تشق طريقها وسط الخطر إلى الضفة الأخرى وعبرت أجزاء ضخمة من هذه التشكيلات فعلاً إلى الضفة الشرقية ولم تكن جسور العبور قد تم تركيبها.

كان بالرجال شوق إلى الانطلاق.

كانوا يشعرون أنهم تحملوا بما لا طاقة لهم به وبما لا ذنب لهم فيه، وقد أحسوا بالجرح فى أجسادهم وفى جسد مصر، وكأنهم أرادوا أن يؤكدوا، بما لا يدع مجالاً للظن، قدرتهم على القتال واستعدادهم له.

وفى ثلاث ساعات من بعد ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣، ما بين الثالثة إلى السادسة مساء كانت مصر، وكانت الأمة العربية كلها، قد اجتازت «حائط الخوف»!

وبأى مقياس عسكرى فإن عملية العبور سوف تصبح حدثًا فى تاريخ الحروب ولست أقول ذلك حماسة أو مبالغة.

إن الفيلد مارشال مونتجمري احتاج إلى خمسة أيام من التمهيد بالمدفعية ومن محاولات الاختراق لكي يتمكن من عبور حقل الألغام الكبير في جبهة العلمين أمام روميل سنة ١٩٤٢، وكان هناك حقل الألغام الكبير ولم يكن هناك المانع المائى الخطير، ولا كانت هناك عقد التحصينات المتشابكة. واحتاج مونتجمرى كما قلت إلى خمسة أيام واعتبر ذلك نجاحًا له يفوق أى نجاح.

ولم يكن حقل ألغام العلمين الكبير شيئًا إذا ما قورن بما كان يتحتم على الجيش المصرى أن يجتازه فى عملية العبور.

٣ - حققنا أخيرًا بعد «القرار» وبعد «اجتياز حائط الخوف» - تجربة المواجهة مباشرة، بالتخطيط وبالعمل مع العدو الإسرائيلى، وهو عدو أعطيناه أكبر مما يستحق.

ولكى لا يخطئ أحد فى فهم ما أقول فنحن أمام عدو عصرى، وعدو متعلم، وعدو متمكن من وسائل العصر، لكننا بالغنا فى تقدير ما لديه لكى نعوض لأنفسنا ما نحس به فى أعماقنا من قصور.

كان فى استطاعتنا دائمًا أن نكو عصريين مثله، متعلمين مثله، متمكنين من وسائل العصر مثله، وكان فى استطاعتنا دائمًا لو أننا حولنا «الكم العربى» إلى «كيف عربى» أن نصل إلى تفوق ساحق عليه، لكننا كنا نكتفى بتجسيد الوهم وتجسيم الوهم حتى نعفى أنفسنا بالخوف من قبول تحديه.

وأريد أن أقول إن المعركة ما زالت فى بدايتها وما زالت الأوقات الصعبة أمامنا، وما زال المجهود الرئيسى للعدو فى انتظار لحظة مناسبة ليندفع وينقض، لكن هناك حقائق لا يمكن إنكارها:

● إن القيادة العسكرية المصرية واجهت القيادة العسكرية الإسرائيلية، وكانت المبادأة فى يد القيادة المصرية وإن كان العدو هو الذى بدأ بالاستفزاز.

● إن الضابط المصرى واجه الضابط الإسرائيلى وكان المصرى هو المهاجم.

● إن الجندى المصرى واجه الجندى الإسرائيلى وكان المصرى هو الذى يقتحم المواقع ويطلق النار ويتلقى النار فى صدره ولا يدير لها ظهره.

إن الدعاية الإسرائيلية، وقبلها دعايات الاستعمار بقضه وقضيضه حاولت التركيز بقوة وقسوة على سمعة القوات المسلحة المصرية وكان ذلك مقصودًا لإضاعة الثقة تمامًا بأكبر قوة دفاع وردع يملكها العرب.

ولقد استغلت مأساة سنة ١٩٦٧ استغلالاً بشعًا ضد الجيش المصرى بينما الحقائق المؤكدة تقول إن ثمانين فى المائة من القوات صدر إليها الأمر بالانسحاب وهى لم تشتبك مع العدو أصلاً وكانت خسائر هذه القوات من الرجال قبل صدور أمر الانسحاب لا تتجاوز ٢٥٠ شهيدًا، فإذا هى بعده وبسببه ترتفع إلى حدود غير مقبولة فى ظروف غير محتملة.

ذلك ما تحقق حتى الآن فعلاً:

القرار - اجتياز حائط الخوف - المجابهة مع العدو: خطة أمام خطة، وقوة أمام قوة، وأفرادًا أمام أفراد.. ووجهًا لوجه.

لقد انكسرت أساطير كثيرة في ذلك اليوم السادس من شهر أكتوبر:

● أسطورة العجز العربى عن اتخاذ قرار.

● أسطورة الخوف الذى تمكن فى القلوب رهبة من العدو.

● أسطورة القوة الرادعة الإسرائيلية التى لا قبل لأحد بتحديها وبالتالى فإنه لا بديل غير الخضوع لها!

***

نجىء إلى ثانى الأسئلة الثلاثة المحددة وهو السؤال الذى يقول:

■ ■ ■ ما الذى يتعين علينا عمله الآن؟

والرد عليه كما يلى:

١ ـ عدم فك الاشتباك مع العدو على الجبهتين المصرية والسورية مهما كان الثمن، أى مواصلة القتال ضده بصرف النظر عن أية تضحيات أو ضغوط.

لم يعد ممكنًااللعبة «إطلاق النار» و «وقف إطلاق النار» أن تتكرر أكثر مما تكررت:

- سنة ١٩٤٨ فى هدنتين.
- سنة ١٩٦٧ بعد ستة أيام من المعارك.
- سنة ١٩٧٠ بعد فترة طويلة من حرب الاستنزاف، وإن كان وقف النار فى تلك السنة هو المرة الوحيدة التى يمكن تبريرها، فقد كان الهدف هو بناء شبكة الصواريخ على الضفة الغربية لقناة السويس وهذا حدث.

. . . اللعبة بعد ذلك غير قابلة للتكرار إلا إذا بلغنا هدفًا نستطيع عنده أن نقول: هذا هو الحل الذى نرتضيه لأنفسنا عدلاً وسلامًا.

ولقد نتذكر أن هناك طاقة للعدو يمكن حسابها.

إنه الآن فى قمة حالة التعبئة العامة، وهو لا يستطيع البقاء فى هذه الحالة بالنسبة لظروفه البشرية أكثر من مدة تتراوح بين خمسة عشر يومًا وعشرين يومًا. واستمرار القتال والأمر على هذا النحو فيما يتعلق بالتعبئة العامة ـ سوف يصل بالعدو إلى موقف بالغ الخطر.

إن لديه الآن وفقًا لأوثق التقديرات خمسين لواء تحت السلاح، أى قرابة ثلاثمائة ألف جندى، أى عشر السكان الذين يعيشون على الأرض التى اغتصبها أو احتلها. .

وكان العدو يرتب نفسه باستمرار لمعركة خاطفة يفرغ فيها من جبهة ويستدير لجبهة ثانية. . يبدأ انتصاره فى واحدة ويؤكده فى الأخرى!

ولقد كان هاجسه وكابوسه هو احتمال الحرب على جبهتين، ولهذا فإنه حاول بكل شدة أن يستوعب أسلوب الحرب الخاطفة ليضرب هناك ويصفى، ويستدير ليضرب هنا ويصفى. وهذا ما لا ينبغى ـ مهما كان أو يكن ـ أن نسمح له به.

ولقد كانت السياسة الأمريكية شبه واثقة من استطاعة إسرائيل إنهاء الحرب هذه المرة في ثلاثة أيام بدلاً من ستة أيام سنة ١٩٦٧.

ويوم نشوب القتال على قناة السويس وبدء عمليات العبور اتصل الدكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية بالدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية المصرية تليفونيًا.

كان كيسنجر في واشنطن وكان الزيات في نيويورك.

وكانت الرسالة التي يريد كيسنجر إيصالها للزيات هي:

- ما فائدة هذا الذى قمتم به؟ . . إن إسرائيل سوف تعبئ قواها في يومين اثنين . . وسوف تقوم بهجوم ساحق».

ثم مضى كيسنجر يعرض اقتراحًا بوقف إطلاق النار وعودة القوات إلى الخطوط التي كانت عليها قبل بدء العمليات.

وكان هذا موقفًا مزعجًا في تحيزه لإسرائيل، ذلك لأن الولايات المتحدة الأمريكية تتحمل أكثر من أى طرف آخر مسئولية العذاب الذى تحملته المنطقة باستمرار حالة اللاسلم واللاحرب ست سنوات.

وكانت هي التي رفضت أن يقترن قرار وقف إطلاق النار سنة ١٩٦٧، بعودة القوات المتحاربة إلى المواقع التي كانت فيها قبل بدء العمليات، وهكذا فإن إطلاق النار توقف ولكن الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية استمر.

وكانت هي التي عطلت تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . . عطلت مهمة يارنج، وعطلت مشاورات الدول الأربع الكبرى وعطلت اتصالات القوتين الأعظم، وعطلت مبادرة روجرز. . بل وعطلت مبادرة الرئيس أنور السادات بفتح قناة السويس مقابل انسحاب إسرائيلي محدود كمرحلة أولى تكون مرتبطة - وفق جدول زمني محدد - بانسحاب كامل على أساس قرار مجلس الأمن.

● ثم كانت هي التي أعطت لإسرائيل السلاح - أعطتها خلال خمس سنوات أخيرة

أكثر مما حصلت عليه خلال عشرين سنة سبقتها من عمر إسرائيل. وذلك مكنها من أن تضرب عرض الحائط بأى قرار دولى، وبأى التزام أدبى وأخلاقى، وبكل القيم التى ارتضاها مجتمع الدول قانونًا له وميثاقًا.

إن القوات المصرية كانت قد عبرت «حائط الخوف» إلى أرض مصرية وكانت حربها حرب تحرير بالمعنى القانونى والواقعى.

وكان ما تحملته وحققته تحت النار معجزة بأى مقياس.

ومع ذلك وفي آخر نهار مجيد يجيء رجل فى مثل ذكاء كيسنجر ويسمح لنفسه بأن يقترح على وزير الخارجية المصرى ما اقترح!

٢ - التركيز على إلحاق أكبر خسائر بقوات العدو. وقد كانت هذه بالفعل هى الإستراتيجية التى توصلت لها القيادة العامة للقوات المسلحة ونفذتها بنجاح واقتدار.

إن أشياء كثيرة تغيرت فى أهداف الحرب وأساليب الحرب ولكن مبدأ من المبادئ التى ظلت باقية هو أن تدمير قوات العدو هدف أساسى يجب تطويع كل الوسائل لبلوغه.

قوات العدو وليس أى شيء آخر.

إن تدمير قوات العدو هو الذى يفتح الباب أمام الأهداف الكبرى من استعمال القوة المسلحة:

الأرض.. الإرادة السياسية إلى آخره.

فضلاً عن ذلك فإن التركيز على تدمير القوات المسلحة للعدو هو أكبر قوة دافعة للروح المعنوية لقواتنا ذاتها.

ثم إنه أنشط طاقة محركة لفاعلية القتال وتأثيره من ناحيتنا.

وعلى الجانب الإسرائيلى فلقد نتذكر أن الدم الإسرائيلى هو الشيء الوحيد الذى يهز إسرائيل إلى أعماق أعماقها.

المال ليس مشكلة فى تقديراتهم.

والسلاح ممدودة قوافله من وراء الحدود.

وأما الدم ففضلاً عن اعتقادهم بامتيازه على أى دم آخر - وهذه دعوى العنصرية بعينها - فإن نبعه محدود: ثلاثة ملايين فى إسرائيل ومهما جاءت أسراب المهاجرين فإن الأعداد قليلة بمقاييس التفوق البشرى العربى!

٣ - إن ميدان المواجهة يجب أن يتسع بأسرع ما يمكن وبأبعد مما تستطيع إسرائيل أن تؤثر عليه أو تستطيع الولايات المتحدة أن تحكمه.

لقد وقعت المواجهة فعلاً بين الأمة العربية وبين إسرائيل ووراءها الولايات المتحدة الأمريكية التى لا تخفى مشاعرها مع إسرائيل أو التزاماتها العملية تجاهها.

وإذا اتسع ميدان المواجهة فإن ذلك سوف يدعم المطلبين السابقين وهما: عدم فك الاشتباك مع العدو، والتركيز على إلحاق أكبر الخسائر بقواته.

إن ميدان المواجهة ليس هو الأرض التى يتحرك فوقها جنودنا فقط، ولكن ميدان المواجهة يجب أن يصبح كل الأرض التى تعيش عليها أمتنا العربية.

***

ونصل إلى السؤال الثالث عن الغد وهو استطراد منطقى للأمس ولليوم والسؤال هو:

■ ■ ■ كيف نستطيع أن نأخذ الغد لصالحنا؟»

والرد كما يلى:

ما فعلناه بالأمس قد تحقق.

وما نفعله اليوم يسير فى طريق التحقيق وربما دفعناه أبعد.

وإذا تأكد ذلك، فإننا سنجد أنفسنا أمام احتمالات هائلة لا يستطيع أحد حساب

تقديراتها بسهولة، وفى ظنى أن العدو الإسرائيلى سوف يركز كل جهده خلال الساعات القادمة لكى يعطل هذه الاحتمالات.

وهذه الاحتمالات كما يلى:

١ - أن تتحرك الإمكانية العربية الهائلة وهى قادرة بغير شك على أن تؤثر بطريقة حاسمة على موقف الولايات المتحدة الأمريكية.

إن إمدادات البترول العربى قد لا تكون ماسة فى اللحظة الراهنة باعتبارات الأمن القومي الأمريكى مباشرة ولكن البترول كعملية تجارية تحصل أمريكا وحدها على ستين فى المائة من أرباحها، يستطيع الآن وفى الصميم أن يمس قلب الولايات المتحدة وربما تذكرنا أن الولايات المتحدة:

قلبها فى جيبها!

وحتى إمدادات البترول تقدر الآن على أن تضع الولايات المتحدة فى موضع حرج إزاء حليفاتها على الضفة الأخرى من الأطلنطى.

ولو أن ورقة البترول استعملت بطريقة علمية ومستنيرة غدًا وليس بعد غد فإن الولايات المتحدة سوف تواجه أزمة مع حليفاتها ربما تفك تماسك الغرب كله.

وفى الأوضاع السائدة اليوم فإن سلاح البترول لا يمس أزمة الطاقة فى العالم فقط ولكنه يمس أيضًا أزمة النظام النقدى العالمى.

ولقد أثير بغير تحرج مسألة أخرى:

إن الأنباء الواردة من نيويورك تقول إن إسرائيل طلبت إلى يهود الولايات المتحدة وحدهم أن يجمعوا لها من تبرعاتهم وعلى الفور ألف مليون دولار - مع ملاحظة أن معدل دعمهم لها سنويًا ٥٠٠ مليون دولار.

إن إسرائيل لم تتحرج وهى تطلب، ولا انتظرها يهود الولايات المتحدة حتى تتقدم إليهم باسطة كفها طالبة منهم.

تلك مواقف أو مشاهد لا تعرفها تجارب الذين يشعرون بوحدة المصير أو حتى بالتضامن فى مواجهة المستقبل.

ولقد جاء الوقت لكى يوضع هذا الأمر فى مكانه الصحيح من تجربة الأمة العربية وبغير عقد أو حساسيات.

ولقد يقال بغير نكران لأى جميل أن كل ما حصلت عليه مصر من اتفاقية الدعم العربى فى الخرطوم وعلى طول السنوات الست الماضية أقل مما حصلت عليه إسرائيل فى أى سنة واحدة من تلك السنوات الست!

هذه حقيقة.

ولقد يقال إن هناك زيادات على اتفاقية الدعم، ولكن هذه الزيادات لا تعد بأكثر من عشرات الملايين من الدولارات ومعظمها على شكل ودائع لآجال محددة يحل بعدها السداد.

وهذه حقيقة أخرى.

وحقيقة ثالثة هى أن عائدات الدول المنتجة للبترول زادت بشكل هائل نتيجة مباشرة لأزمة الشرق الأوسط . . أو أزمة مصر.

بسبب هذه الأزمة وبسبب إغلاق قناة السويس زادت أسعار البترول إلى أكثر من الضعف بكثير.

وبسبب هذه الأزمة وجو التوتر الذى صاحبها فإن الشركات العاملة فى العالم العربى كانت على استعداد لأن تسترضى الحكومات العربية حتى تضمن استمرار مصالحها.

ولم تكن بمصر غيرة من أحد ولا حسد لأحد لأنها تعرف قدر نفسها ثم إنها تعرف يقينًا أن المستقبل العربى شركة واحدة.

والآن ما الذى يحدث لو أن دول البترول العربى اجتمعت واجتمع - من حول قادتها - أغنياء العرب وهم كثيرون ثم قرروا، عل الأقل، أن ما تحصل عليه إسرائيل

من يهود العالم، سوف تحصل عليه مصر من المقتدرين العرب، دولارًا بدولار. وسنتًا بسنت!

وإذا كان يهود أمريكا وحدهم سوف يعطون لإسرائيل هذا الأسبوع ألف مليون دولار، فإن المقتدرين العرب سوف يعطون لمصر هذا الأسبوع ألف مليون دولار: ذلك سوف يجعل قدرة مصر على الصمود أقوى، ثم إنه سوف يجعل العالم كله يشعر أنها أمة بأسرها تواجه مصيرها.

إن حكومة الكويت قد دعت إلى عقد مؤتمر لديها من دول البترول لبحث ما يمكن أن يؤديه البترول العربى من دور فى المعركة.

وليت هذا المؤتمر يعقد فى الرياض وبرئاسة الملك فيصل نفسه وعلى مستوى القمة من دول البترول فى شبه الجزيرة العربية والخليج: السعودية والكويت ودولة الإمارات وقطر والبحرين.

ثم ليت هذا المؤتمر يضع لنفسه جدول أعمال من ثلاث نقاط:

● دور البترول العربى فى المعركة [كما اقترحت الكويت].

● دور الأرصدة العربية فى المعركة [وهناك تقرير فى هذا الصدد درس فى جامعة الدول العربية].

● ثم دعم مصر وسوريا ماديًا بمستوى ما تتلقاه إسرائيل من الدعم المالى على الأقل.

ولقد كان فى مصر من يستحيون من مجرد التفكير فى ذلك خلال السنوات الماضية، وبالذات مع هوان حالة اللاسلم واللاحرب.

والآن ومصر وسوريا فى المعركة وسط طوفان من الدم وجحيم من اللهب - أما جاء الوقت الذي تقال فيه كلمة الحق للحق وبالحق؟!

إن الشعب المصرى والشعب السورى يدفعان ضريبة النضال القومى بالنار

وبالدم وبأعباء مادية ونفسية لا حدود لضغوطها وأثقالها ولكن النضال القومى ليس حكرًا على مصر وسوريا وحدهما؟

٢ - إن الوفاق بين القوتين الأعظم معرض لتأثيرات سلبية أصبحت الآن بادية للعيان وقد أشار إليها الدكتور هنرى كيسنجر نفسه فى تصريح رسمى له.

وينبغى أن يقال وبكل صدق ونزاهة أن الاتحاد السوفيتى أثبت إلى آخر لحظة أنه صديق وهذه فرصة لا تعوض لإعادة بناء الجسور وإقامتها على قواعد صلبة.

وربما قيل للحق وللتاريخ أن مصر حاربت حتى هذه اللحظة بما كان لديها أصلاً من السلاح، معنى ذلك أن ما قاتلت به مصر حتى اليوم هو السلاح السوفيتى وحده.

ولم أرَ الفرحة على وجه إنسان هذا الأسبوع كما رأيتها على وجه فيلاديمير فينوجرادوف سفير الاتحاد السوفيتى فى القاهرة.

كان خارجًا بعد مقابلة مع الرئيس أنور السادات، وكان الرئيس السادات قد قال له:

- إن سلاحكم هو الذى كان فى أيدينا عند العبور».

وقا لى فينوجرادوف والابتسامة بعرض شفتيه:

- لقد قضيت ثلاث سنوات حتى الآن سفيرًا فى القاهرة.

لقد عشتها بأيامها الحلوة وأيامها المرة ولكن تلك كانت ذروة عملى فى القاهرة».

٣ - إن تأثيرات عميقة سوف تحدث فى الرأى العام العالمى.

إن العالم لا يحترم إلا أولئك الذين يعرفون هدفهم، يعيشون من أجله، ويموتون من أجله.

ثم إن العالم الآن على استعداد لسماع وجهة النظر العربية بجد.

لقد كان العالم مقتنعًا بها مع العطف على المظلوم.

وأصبح العالم أشد اقتناعًا بها مع استعداد المظلوم لحمل سلاحه والقتال ضد ظالميه.

وكان ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا واضحًا كل الوضوح ومعبرًا أصدق تعبير عن الرأى العام العالمى حين قال بعد اجتماع لمجلس الأمن الفرنسى برئاسة جورج بومبيدو ـ ما نصه:

من الذى بدأ المعارك هذه المرة ؟!.. هذا موضوع يصعب القطع فيه.. لكننا لا نستطيع أن نوجه اللوم إلى شعوب تقاتل لاسترداد أراضيها ولا ناس لا يطلبون إلا أن يعودوا إلى ديارهم».

□

تبقى كلمة أخيرة: وهى أن تلخيص كل ما حدث هذا الأسبوع فى عبارة واحدة يصل بنا إلى القول وبغير تجاوز:

ـ إن الخريطة السياسية للشرق الأوسط قد تغيرت!».

حقيقة لنا أن نقولها، وإن كان علينا أن نقولها بمنتهى الشعور بالمسئولية، وبالتواضع كله، وبالفهم العميق لأوضاع العالم، وموازينه وقوانينه...

سؤال

١٣ أكتوبر ١٩٧٣

هناك مواقف لا تحتمل الانتظار ومنها ما أريد أن أتحدث عنه الآن.

أريد أن أقول إن الضغط العربى على الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن يصبح الآن، فى هذه الساعات بل وفى هذه اللحظات، محسوسًا، مؤكدًا ومعلنًا.

والدول التى تستطيع أن تمارس ضغطًا على الولايات المتحدة هى دول البترول العربى فهى التى تملك مفاتيح المصالح الأمريكية فى المنطقة، وهى التى تملك أن تمنح وأن تمنع.

والسبب الذى يدعونى إلى القول بأن هذه هى الساعات بل اللحظات التى يتحتم فيها أن يصبح الضغط العربى محسوسًا ومؤكدًا ومعلنًا، يتمثل فى الاعتبارات التالية:

١ - إن الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون منهمك فى اجتماعات متصلة مع مجلس الأمن القومى الأمريكى لبحث «دور الولايات المتحدة فى حرب الشرق الأوسط» ونستطيع أن نفهم على الفور من هذا التعبير أن الرئيس الأمريكى وكبار مساعديه يبحثون فى الطريقة التى يستطيعون بها مساعدة إسرائيل.

٢ - وبالتأكيد فإن الناحية العسكرية هى الناحية الملحة الآن وخصوصًا أن تقديرات «البنتاجون» هيئة أركان حرب الجيش الأمريكى - التى أبلغت إلى بعض دول أوروبا الغربية - تقول إن «خسائر إسرائيل فى الأيام الخمسة الأولى من المعارك» - توقيت إعداد التقرير - وصلت إلى: مائة وعشر طائرات وأربعمائة دبابة،

وحوالى ثلاثة آلاف قتيل، وحوالى ألف أسير - بينهم ٤٣ طيارًا - عدا خمسة عشر ألف جريح، وبعد ذلك أو قبله تأتى الصدمة النفسية التى أحست بها إسرائيل من الرد العربى على الجبهتين، ومن نجاح القوات المصرية فى عبور القناة واجتياح خط بارليف.

ويحدد التقرير مثلاً - كما أبلغ لبعض الدول الغربية - أن إسرائيل خسرت فى الأيام الخمسة الأولى عشرين فى المائة من قوة طائرات الفانتوم لديها؟

[وربما كانت التقديرات العربية عن خسائر إسرائيل تقول بأكثر من ذلك ولكنى وفى هذا الحديث تركت التقديرات الأمريكية كما هى لأن الصورة التى أتعرض لها هى حساباتهم هم وليست حساباتنا نحن].

٣ - ترتيبًا على ذلك فإن الرئيس الأمريكى وكبار مساعديه على وشك اتخاذ قرارات بمساعدة إسرائيل عسكريًا، وقد بدأت بعض المساعدات تصل فعلاً إلى إسرائيل ولكن الجزء الأهم ما زال ينتظر القرار السياسى للرئيس الأمريكى.

● ولقد تلقت إسرائيل - فيما نقلت الأنباء - ما بين ثلاثة أو أربعة أسراب من طائرات الفانتوم.

● وكان أسطول شركة العال - شركة الطيران الإسرائيلية - مجندًا بالكامل خلال الأيام الأخيرة لنقل كميات كبيرة من المعدات الأمريكية من ولايتي «فرجينيا» و«أوكلاهوما» إلى إسرائيل، والمعدات التى تنقلها كلها فيما يبدو من التقارير معدات إليكترونية وقذائف وصواريخ؟

وهذا خطير ولكن ما يليه قد يكون أخطر!

٤ - والمشكلة فى وضع الرئيس الأمريكى اليوم بالذات وبالتحديد أنه في وضع بالغ الضعف أمام الكونجرس الأمريكى بسبب فضيحة ووترجيت وبسبب فضيحة نائبه سبيرو آجنيو الذى اعترف بما اقترف واستقال فى المحكمة وترك منصب نائب الرئيس خاليًا.

وطبقًا للأحكام الدستورية فإن الرئيس الأمريكى سوف يختار نائبه. ولكنه سوف يتقدم به إلى الكونجرس [مجلس الشيوخ ومجلس النواب] لكى يوافق عليه.

والرئيس الأمريكى يريد نائبًا له من اختياره هو وعلى مزاجه وهواه.

وإذن فإنه فى وضع ضعيف أمام الكونجرس.

كان ضعيفًا من الأصل بسبب فضيحة ووترجيت وهو الآن أضعف لأن الكونجرس هو وحده الذى يملك التصديق على المرشح الذى يختاره ليكون نائبًا للرئيس.

٥ - إن التأييد لإسرائيل فى الكونجرس بدرجة مائة فى المائة على أقل تقدير!

ولقد يستطيع الرئيس الأمريكى - أحيانًا - أن يراعى المصالح الإستراتيجية البعيدة المدى للولايات المتحدة. وقد يستطيع أن يراعى اعتبارات توازن القوى الدولية. وقد يستطيع أن يراعى نواحى أخرى غير ذلك، ولكن الكونجرس لا تحكمه إلا اعتبارات السياسة المحلية فقط.

وهذه نقطة الخطر.

لأن ضغط الكونجرس كله سوف يكون كاسحًا فى اتجاه إسرائيل وفتح أبواب المساعدات بلا حدود أمامها.

□

مجمل هذه الاعتبارات يدعونا إلى القول بما يلى:

- فى هذه الساعات بل وفى هذه اللحظات يجب أن تتدخل كل الإمكانيات العربية لتؤدى دورها فى الضغط على الولايات المتحدة الأمريكية ويجب أن يكون هذا الضغط كما قلت محسوسًا ومؤكدًا ومعلنًا.

لماذا؟

لقاعدة أساسية من قواعد ممارسة القوة فى السياسة الدولية وهى قاعدة تقول

بأننا إذا أردنا أن نمارس ضغطًا له قيمة فعلية وتنتج عنه آثار عملية فلا بد من توافر ثلاثة شروط:

١ ـ أن يكون سلاح الضغط موجودًا [البترول موجود].

٢ ـ أن يكون قابلاً للاستعمال [أزمة الطاقة قائمة].

٣ ـ أن لا يكون الطرف الآخر الذى سوف يتعرض للضغط فى شك من أن هذا الضغط سوف يمارس يقينًا، بل إن ممارسته قد بدأت فعلاً [ولم تشعر أمريكا الحكومة، أو الكونجرس، أو الرأى العام بذلك، وبشكل حاسم حتى اليوم].

وفى الخلاصة:

فإن الرئيس الأمريكى على وشك أن يمضى فى الشوط أبعد إلى مواقف شديدة الخطر علينا..

والسؤال المطروح هو:

هل نتركه يذهب فى الشوط إلى آخره وهو تحت تأثير الكونجرس الموالى لإسرائيل مائة فى المائة؟..

... أو..

نفرض عليه فى هذه الساعات بل فى هذه اللحظات أن يضع فى اعتباره عنصرًا آخر وهو:

المصالح الإستراتيجية والاقتصادية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ومستقبلها على المدى القريب والمدى البعيد؟!

هذا هو السؤال.

وهذه هى الساعة... بل هذه هى اللحظة!

نظرية الأمن الإسرائيلى

النقطة الساخنة فى الصراع الدائر الآن!

١٩ أكتوبر ١٩٧٣

برغم كل مشاريع السلام التى تطير فى الأجواء كأنها أسراب من الحمام الأبيض روعتها طلقات المدافع. وبرغم الخط الساخن الذى يعمل طوال النهار والليل بين البيت الأبيض فى واشنطن والكرملين فى موسكو ينقل إلى كل طرف - مسبقًا - نوايا الطرف الآخر وتحركاته مخافة خطأ فى التقديرات يؤثر على سياسة الوفاق - وبرغم النشاط الحائر فى الأمم المتحدة، يهم ويقعد، يمشى ويقف، باحثًا عن صيغة أو حتى عن مشروع صيغة يمكن أن يساعد على وقف الحرب فى الشرق الأوسط..

... برغم ذلك كله فلا بد أن أقول إنه يصعب عليّ - حتى هذه اللحظة - أن أرى نهاية قريبة لهذه المعارك الطاحنة التى تدور رحاها على المرتفعات السورية فى الشمال وعلى رمال سيناء فى الجنوب.

وحتى إذا حدث - ولا أظن أنه سيحدث - وتوقف القتال فى منتصف الطريق، فلعلي أقول من الآن ومبكرًا أن إسرائيل لن تنتظر طويلاً قبل أن تعود إلى إطلاق النار مرة أخرى وإلى إشعال الحريق..

وإذا بدا لبعضنا أو لغيرنا أن إسرائيل لا تمانع الآن فى قبول وقف إطلاق النار فى المواقع الحالية التى وصلت إليها قواتنا شرق قناة السويس - فلقد يكون مفيدًا أن نحتاط وأن نقدر أن هذا القول الإسرائيلى ليس علامة تسليم من جانبهم بأمر واقع

جديد وإنما هو فرصة وقت لالتقاط أنفاس أربكتها المفاجأة ثم اضطرب انتظامها مع سرعة تدافع الحوادث بعد المفاجأة!

تكرار جديد - مخيف أكثر وخطير أكثر - لمأساة الهدنة الأولى فى فلسطين صيف سنة ١٩٤٨!

□

ما هو معنى ذلك؟

وهل هى من جانبى دعوة لاستمرار القتال إلى أجل غير مسمى؟

وهل غيرت رأيى فجأة فأصبحت من أنصار ما يسمونه بالحل العسكرى أى الحل بالقوة المسلحة من الخطوة الأولى إلى الخطوة الأخيرة؟

أو ماذا؟

لا أظن أننى من أنصار القتال لمجرد القتال، فالحرب كانت ولا تزال فى تقديرى ذروة المأساة الإنسانية.

ولا أظن إننى غيرت رأيى فى اشتراطات وحدود استخدام القوة المسلحة فى زماننا وهذا موضوع تحدثت فيه من قبل تفصيلاً ولا أجد مبررًا للعودة إليه الآن.

لكنى أظن إننا وقد بدأنا القتال، وإننا وقد تركنا السلاح يؤدى دورة كعنصر ضمن عناصر القوة السياسية الشاملة - فإنه قد أصبح محتمًا علينا أن لا نتوقف قبل تحقيق الهدف من هذا القتال الدائر اليوم.

□

سوف أترك الهدف النهائى للصراع العربى الإسرائيلى فتلك قصة أخرى، وإنما يهمنى أن أركز على سؤال حيوى يطرح نفسة علينا الآن . . سؤال يقول:

- ما هو الهدف؟ . . ما هو الهدف من قتالنا ضد عدونا الآن؟ وما هو الهدف من قتال عدونا ضدنا الآن؟ ما هو الهدف من هذه المرحلة بعينها من الصراع؟

هل الهدف قطعة أرض فى الجولان؟

هل هو كل الجولان؟

هل الهدف قطعة أرض من سيناء؟

هل هو كل سيناء؟

وماذا عن القدس والضفة الغربية وغزة، وحقوق شعب فلسطين الضائعة من قبل ما ضاع سنة ١٩٦٧؟

أقول فى الرد على ذلك ما يلى:

- إنه ليس مجرد أراضٍ اغتصبتها إسرائيل ونسعى نحن لاستردادها . . وهذا هو الهدف الآن!».

أكاد أقول:

- إنه شىء آخر فى هذه المرحلة، وقد تكون الأرض - الجولان وسيناء - مسرحًا له، ولكنها ليست هدفه الرئيسى الآن على الأقل».

أصل إلى القول:

- إن هدف الصراع الآن نقطة واحدة لا بد أن نضعها أمامنا ومن الغريب إنها نفس النقطة التى تضعها إسرائيل أمامها».

أى أن:

- هدفنا من مرحلة الصراع المسلح الدائر الآن، وهدف إسرائيل من مرحلة الصراع المسلح الدائر الآن: هدف واحد.

هذا الهدف باختصار هو:

- نظرية الأمن الإسرائيلى . . وهل هى صحيحة أم هل هى خاطئة؟

وبالتالى فإن ما يجرى فى ميدان القتال الآن من صراع رهيب بالحديد والنار والدم، يمكن ترجمته سياسيًا فيما يلى:

١ ـ نحن نريد أن نثبت أن نظرية الأمن الإسرائيلى خاطئة.

٢ ـ وإسرائيل تريد من ناحيتها أن تثبت أن نظرية الأمن الإسرائيلى صحيحة.

وهذا هو لب الصراع المسلح فى هذه المرحلة!

***

إن الرئيس أنور السادات أشار إلى هذه النقطة فى خطابه الكبير يوم الثلاثاء الماضى وعلينا أن نتابعها بعد كلامه إلى أبعادها المترامية.

إن نظرية الأمن الإسرائيلى تأخذ فى حسابها اعتبارين:

١ ـ إن إسرائيل جزيرة وسط بحر عربى واسع: رقعة من الأرض محاصرة.. وعمق عربى حولها من الخليج إلى المحيط.. وخلل فى التوازن السكانى لغير صالحها يتمثل فى مائة مليون عربى أمام ثلاثة ملايين فى إسرائيل.

٢ ـ إن الموقف الدولى ليس مضمونًا فى موازينه لأنها متحركة باستمرار. وكان اعتماد إسرائيل يومًا على بريطانيا ولكن القوة البريطانية تراجعت، ثم كان اعتماد إسرائيل يومًا على فرنسا ولكن القوة الفرنسية تباعدت، ثم كان اعتماد إسرائيل ولايزال على القوة الأمريكية، والقوة الأمريكية ما زالت عاتية لكنها قوة فى أزمة ثم هى قوة هوائية مفتوحة لضغوط ومؤثرات متناقضة أحيانًا ومتعارضة.

□

ومن هذين الاعتبارين بداية فإن نظرية الأمن الإسرائيلى تقوم على الأسس التالية:

١ ـ لا بد أن يكون لإسرائيل تفوق عسكرى ساحق يمكنها من حسم أى تهديد ضدها فى أسرع وقت.. فى ساعات أو أيام أو أسابيع قليلة تعد على أصابع يد واحدة وليست أكثر.

٢ ـ ذلك يتطلب أن يكون لدى إسرائيل جيش لا يجوز له أن يتعرض لهزيمة مهما

كانت الظروف، ولا بد أن يثبت مهما كانت التحديات إنه أقوى من كل الجيوش العربية المحيطة بإسرائيل مجتمعة، يركز قوته عليها واحدًا بعد واحد ويفرغ من كل جبهة فى ساعات قليلة ليستدير إلى جبهة ثانية!

٣ - إن هذا الجيش لابد أن يأخذ فى يده بتفوقه الكاسح زمام المبادأة باستمرار لكى ينقل الحرب من الساعات الأولى إلى أرض العدو - الأرض العربية المحيطة بإسرائيل - لأن عمق إسرائيل الضحل لا يسمح له بحرية الحركة الواسعة التى تفرضها الحرب الحديثة بالمدرعات والطيران، فضلاً عن أن التركيب الاقتصادى الاجتماعى فى إسرائيل وهو ما زال فى مرحلة النمو لا يستطيع أن يتحمل على أرضه جراح المعركة أو كسورها المؤلمة.

٤ - إن الحرب يجب أن تكون خاطفة لأنه: لا الموارد البشرية الإسرائيلية ولا الموارد الاقتصادية الإسرائيلية - تستطيع أن تتحمل حربًا ممتدة تفرض ضريبتها من النزيف لوقت طويل.

ومعنى التعبئة العامة فى إسرائيل أن أكثر من نصف القوة العاملة فيها سوف تكون تحت السلاح، وإذن فإن الطاقة الإنتاجية الإسرائيلية - أى المصانع والحقول - سوف تكون نصف معطلة.

وهكذا فإن معنى التعبئة العامة فى إسرائيل أن الحياة كلها سوف تكون هى الحرب وأن الحرب سوف تكون هى الحياة كلها.

وهذا الوضع لا يحتمل بعد حد معين.

٥ - إن هذا معناه أن إسرائيل يجب أن تواجه «الكم العربى» الكبير «بكيف إسرائيل» منتقى.

يجب أن تواصل باستمرار تطوير وتدعيم الكيف الإسرائيلى بشريًا - بالهجرة من بلاد متقدمة، وعلميًا - بتوجيه جزء هام من مواردها للعلوم والتكنولوجيا.

ويجب عليها فى نفس الوقت أن تدفع «الكم» العربى وراء أسوار التخلف

ولاتسمح له مهما كانت اللظروف أن يحوّل نفسه من «حجم الكم» إلى «صفة الكيف» أيضًا.

باختصار سياسة إسرائيل هنا:

● أن تجعل العدد الإسرائيلى المحدود له قيمة.

● وفى نفس الوقت تلغى قيمة العدد اللامحدود فيما يتعلق بالعرب.

وإذا ضاعت قيمة العدد فإنه يتحول إلى عبء ولا يصبح ميزة!

٦ - إن كل هذه الأسس فى نظرية الأمن الإسرائيلى تستطيع بقدرتها على الردع أن تجعل بدايته فى قلب العرب خوفا ورعبا من «ضربات إسرائيل القوية ويدها القادرة على الوصول إلى أى مكان»، حسب تعبير الجنرال ديان.

ولقد مشت سياسة تخويف العرب، وخلع قلوبهم من الرعب على خط طويل من مذبحة دير ياسين سنة ١٩٤٨ إلى الفخ الذى نصب للطيران السورى فوق طرطوس قبل أيام قليلة من إندلاع الجولة الرابعة فى الصراع العربى الإسرائيلى.

بعد أسوار التخلف وحبس العرب وراءها.. يجىء دور حائط الخوف وتجميد العرب تحت ظلاله الكثيبة!

٧ - إن الضمان الأخير لنظرية الأمن الإسرائيلى هو وجود صديق دولى كبير يساند إسرائيل ويدعمها بدون تردد أو حتى بدون وساوس مهما كان مصدرها:

● ولم يدخل بن جوريون إلى مغامرة السويس إلا بعد أن اطمأن إلى اتفاق مكتوب وموقع فى سيفر - قرب باريس - عليه تعهد وإمضاء فرنسا وبريطانيا معًا بأنهما سوف تدخلان الحرب وراء إسرائيل بست وثلاثين ساعة.

● وحين ذهب ديان إلى مقابلة دافيد بن جوريون فى مستعمرة سد بوكر فى الأيام الأخيرة من مايو سنة ١٩٦٧، يقول له إن إسرائيل قد قررت أن تضرب فإن سؤال بن جوريون الأول والأخير كان:

ـ هل أميركا معكم.. إذا كانت معكم فادخلوا.. وإذا لم تكن فانتظروا فرصة أخرى!».

* * *

هذه هى نظرية الأمن الإسرائيلى.

وهى الآن بالضبط محور هذه المرحلة الراهنة من الصراع المسلح بين العرب وإسرائيل.

ولقد كان هدف العمل العربى فيما أظن وكما نرى من تتبع خطواته واحدة بعد واحدة هو تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى.

أمام كل أساس من أسس نظرية الأمن الإسرائيلى كانت هناك حركة عربية:

١ ـ حشد قوة عربية تستطيع أن تواجه التفوق الساحق الإسرائيلى.

٢ ـ حرب على جبهتين ضد إسرائيل لا تستطيع بسهولة أن تفرغ من واحدة وتستدير إلى الأخرى.

٣ ـ المبادأة والمفاجأة فى يد العرب بعد استفزاز إسرئيلى كان بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير.

٤ ـ حرب ممتدة، لم تحسمها إسرائيل فى ساعات ولا فى أيام.

٥ ـ «كيف» عربى وليس مجرد «كم» عربى أمكن إعداده أمام «الكيف» الإسرائيلى..

٦ ـ حاجز الخوف تهاوى بعد اقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف.

٧ ـ الولايات المتحدة تحت ضغط يستطيع بحد أدنى من الإرادة العربية أن يجعل نفسه محسوسا وملموسًا.

□

والآن ما هى الاحتمالات؟

هل فى وسع إسرائيل أن تترك هذه التحركات العربية تمارس فعلها وتأثيرها ضد أسس نظرية الأمن الإسرائيلى؟

ردى: ـ ليس بهذه السهولة.

لأن الناس قد يتخلون عن بعض ما فى أيديهم اليوم، ولكنهم لا اليوم ولا غدًا يستطيعون التخلى ـ بسهولة ـ عن فلسفة أقاموا عليها حياتهم.

ـ إن نظرية الأمن الإسرائيلى ليست قطعة من الجولان أو قطعة من سيناء أو قطعة من القدس أو قطعة من الضفة الغربية أو قطعة من غزة، إنها شىء أعمق من ذلك وأكبر وأخطر. إنها فلسفة الحياة لمجتمع وضع نفسه ـ صوابًا أو خطأ ـ فى مكان أصبح فيه الأمن هو قضيته الأولى والأخيرة».

* * *

والمشكلة أن اهتزاز نظرية الأمن الإسرائيلى لن يقتصر تأثيره على المرحلة الراهنة من الصراع العربى الإسرائيلى، ولكن التأثير سوف يمتد بعيدًا وعميقًا إلى مراحل لاحقة.

إن الأمر الآن لا يتعلق بتحرير الأراضى العربية المحتلة بعد ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وإنما هو يضرب فى المستقبل الإسرائيلى إلى أبعد وأعمق، حتى وإن لم يكن هذا باديًا للعيان من الآن.

ذلك إنه إذا استطاع العرب تحرير أراضيهم المحتلة بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ بالقوة المسلحة فما الذى يمنعهم فى مرحلة تالية من تحرير فلسطين نفسها بالقوة المسلحة.

المسألة قبل أى شىء وبعد أى شىء مسألة موازين قوى وهنا مكمن الخطر بالنسبة لإسرائيل.

□

ولو أننى حاولت أن أتصور ردود الفعل الإسرائيلية إذا ما واصل العرب تحديهم

لنظرية الأمن الإسرائيلى لوجدنا السلسلة تترابط حلقاتها.. أو ربما تنفك حلقاتها على النحو التالى:

١ ـ رد الفعل الأولى هو الصدمة: ماذا حدث؟.. كيف حدث؟.. أين كنا؟

لكن الكل سوف يشعر بعد ذلك بأن هذه الأسئلة لابد من تأجيلها حتى نهاية المعركة ولكى لا تؤثر على سيرها وخصوصا أن أساطير القوة لا تنهدم مرة واحدة فى عصر يوم واحد حتى ولو كان يوم الغفران أو يوم التوبة أو يوم الخلاص.. يتوقف على اختلاف الاجتهادات فى الترجمة من العبرية إلى العربية «ليوم كيبور».

٢ ـ سوف تسمع صرخات الصقور فى إسرائيل بعد ذلك بأعلى مما كانت تسمع من قبل وسوف تروح الصقور تقول:

ـ أما كنا ننادى دائمًا بعدم عودة أى شبر من الأرض المحتلة إلى العرب مهما كانت الشروط؟ ماذا كان يحدث لو أن العرب بدءوا هذا الهجوم من الخطوط السابقة على ٥ يونيو ١٩٦٧؟.. معناه أن الحرب كانت تدور الآن فى إسرائيل ذاتها.

إن خطوط وقف إطلاق النار سنة ١٩٦٧ يجب أن تصبح هى حدود إسرائيل، لأنها حدود أمن إسرائيل على قناة السويس، على نهر الأردن، وفوق مرتفعات الجولان!».

٣ ـ سوف تبدأ المقصلة دورانها وتسقط رءوس كثيرة وكبيرة فى إسرائيل.. رءوس كانت نظرية الأمن الإسرائيلى فى عهدتها وتحت مسئوليتها.

وربما كان ذلك سر العصبية الخرقاء فى تصريحات قادة إسرائيل العسكريين بعد الساعات الأولى من نشوب القتال.

لقد فهموا ما حدث يوم السادس من أكتوبر بعد وقت طويل.

وحين فهموا فإنهم فوجئوا.

وحين فوجئوا فإنهم ظلوا لعدة ساعات وربما لعدة أيام فى حالة ارتباك.

وربما لا أبالغ إذا قلت إنه مهما حدث أو يحدث فإن مستقبل الجنرال موشى ديان العسكرى والسياسى قد انتهى يوم السادس من أكتوبر.

وربما لا أبالغ إذا قلت أن كل الجيل الجديد من المؤسسة العسكرية الإسرائيلية قد اهتزت الأرض من تحته والدليل على ذلك قرار الحكومة الإسرائيلية بالعودة إلى جيل قديم من القيادات دُعى على عجل من الاحتياط ليتدارك الموقف إذا استطاع.

٤ - إذا ما استمر ذلك كله فما الذى سيحدث للهجرة إلى إسرائيل؟

لأيام وربما لأسابيع وشهور فإن سيل المتطوعين سوف يتدفق على إسرائيل، لكن ما تحتاجه إسرائيل على المدى البعيد ليس هم المتطوعين وإنما المهاجرون.

كان نداء الهجرة يرتكز إلى جانب الأسطورة الدينية على أن الفرصة متاحة فى إسرائيل، ثم إن الأمن حديد.

٥ - وبريق إسرائيل فى العالم: دافيد الذى تحدى جوليات.. الصبى الذى أمسك بسيفه القصير وقتل العملاق الخطير كما تقول الأساطير - ماذا يتبقى منه؟

لقد كان هذا البريق هو الذى يعطى لإسرائيل جزءًا كبيرًا من دورها العالمى الخاص.

كان ذلك البريق يجعل كل شىء لامعا فى إسرائيل.

كان يعطيها مزيجًا غريبًا يخلط بين قصص سفر الخروج فى العهد القديم وقصص السفر إلى القمر فى العصر الحديث... مزيج من التاريخ والتكنولوجيا.

٦ - وإذا ما خفت أسئلة الصدمة الحائرة، وإذا ما تلاشت صرخات الصقور، وإذا ما دارت المقصلة وسقطت رءوس، وإذا نضبت ينابيع الهجرة، وإذا ما انطفأ البريق - إذا ما حدث ذلك كله فما الذى سيكون عليه حال سكان إسرائيل؟

ماهو المستقبل؟

أين هو الأمن؟

هذه ستكون أسئلتهم.

إنهم مجتمع جرى تكوينه وسارت حياته على فلسفة معينة.

وأى مجتمع يستطيع - بسهولة - أن يفقد أو يتخلى عن قطعة أرض ولكن أى مجتمع لا يستطيع أن يفقد أو أن يتخلى - بسهولة - عن فلسفة حياته ذاتها.

***

تبقى حلقة سابعة فى السلسلة المتصلة أو المفكوكة إذا ما تحطمت نظرية الأمن الإسرائيلى. ومع أنها تالية لما سبق كله ومترتبة عليه فلقد يحسن بنا - ولأهميتها - أن نفصلها عنه.

هذه الحلقة هى علاقة إسرائيل بالقوة العظمى التى كان ارتباطها بها جزءًا مهما، وضمانا أخيرًا، فى نظرية الأمن الإسرائيلى:

ذلك أنه إذا تم تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى بنجاح فإن العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين إسرائيل سوف تشهد تغييرًا جذريًا.

كانت إسرائيل بنجاح نظرية الأمن خصوصا بعد سنة ١٩٦٧ قد استطاعت أن تنقل علاقتها من مستوى تابع للولايات المتحدة إلى مستوى شريك.. شريك صغير ولكنه شريك.

وزاد دور إسرائيل فى المنطقة بزيادة اعتماد السياسة الأمريكية عليها، فقد أصبحت مركزًا أماميًا متقدمًا قادرًا على حماية نفسه وقادرًا على حماية المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط.

إن النجاح العربى الذى تحقق حتى الآن فى تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى - ولو أن هذا النجاح ما زال فى بدايته - قد أحدث بالفعل أثره ويكفى أن نتأمل بعمق تصريحات الرئيس ريتشارد نيكسون الأخيرة.

قال ريتشارد نيكسون:

«إن موقف الولايات المتحدة من أزمة الشرق الأوسط الآن تمليه نفس الاعتبارات

التى أملت الموقف الأمـريكى تجـاه أزمـة لبنان سنة ١٩٥٨ وأزمـة الأردن سنة ١٩٧٠».

وبدون أن أسىء إلى لبنان أو الأردن فلا أظن أنهم فى إسـرائيل سـعـدوا بهـذه المقارنة التى تضع إسرائيل فى موضع لبنان سنة ١٩٥٨ والأردن سنة ١٩٧٠..

* * *

وإذن ماذا؟

أقول باختصار إن إسرائيل سوف تخوض قتالاً مروعًا لا هوادة فيه.

وإذا كان من مصلحتها أن يتوقف أيامًا تلتقط فيها أنفاسها فإنها سوف تنتهز أول فرصة لتعود إليه.

والهدف ليس مجرد استعادة أجزاء من الجولان.. أو جسر الضفة الشرقية لقناة السويس...

الهدف هو إنقاذ نظرية الأمن الإسرائيلى.

فلسفة مجتمع بأسره.

□

إن هذه الفلسفة بالضبط هى هدف هذه المرحلة من صراعنا، ولا يجب لأحد أن يخطئ فى تحليل وتقدير هدف هذه المرحلة.

هدف هذه المرحلة هو ضرب نظرية الأمن الإسرائيلى، وهى تتمثل على وجه التحديد فى ثلاثة ملامح ظاهرة:

١ - المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، وهى تحتل بسبب نظرية الأمن مركز القلب فى إسرائيل، بصرف النظر عن الواجهة السياسية.

ولقد اهتزت صورة هذه المؤسسة العسكرية فعلاً منذ الساعات الأولى للحرب ويتحتم تشديد الضغط عليها إلى أقصى درجة ممكنة.

٢ ـ جهاز الحرب الإسرائيلى ـ جيش الدفاع الإسرائيلى كما يسمونه ـ وهو الدعامة الرئيسية للحياة كلها، فهو المدرسة والجامعة، الحقل والمصنع، العلم والثقافة فى إسرائيل.. على الهجوم من جانبنا أن يكون الهدف هو الانقضاض عليه وتدميره، وعلى الدفاع من جانبنا، يجب أن يتحول هذا الجيش إلى أمواج تتحطم على صخورنا الصلبة.

٣ ـ قناع الغرور الذى غطى وجه الشخصية الإسرائيلية وحول الجيتو ـ حارة اليهود فى أى بلد أوروبى ـ إلى قلعة من قلاع القرون الوسطى تتصور أنها قادرة على حكم الريف المحيط بها بوساطة غارات الفرسان الدامية والخاطفة. إن قناع الغرور الذى يغطى وجه الشخصية الإسرائيلية اليوم، هو نتيجة غير مباشرة لحقن مستمر بعناصر نظرية الأمن الإسرائيلى، ثم هو نتيجة مباشرة للدور الذى قامت وتقوم به المؤسسة العسكرية والجيش الإسرائيلى، والهالة التى تحيط بالاثنتين، سواء من تأثير الدعاية أو من تأثير التجارب السابقة، ولا بد مهما كان الثمن من كسر هذا القناع المرسرم بالغرور والادعاء والعداء للتاريخ!

□

فلسفة الأمن الإسرائيلى والملامح الواقعية الظاهرة لهذه الفلسفة، هى إذن مضمون وشكل هذا الصراع المسلح الذى يدور على جبهات القتال الآن، بصرف النظر عن عشرة كيلو مترات إلى الشمال أو عشرة كيلو مترات إلى الجنوب.. عشرين كيلو مترًا إلى الشرق أو عشرين كيلوا مترًا إلى الغرب.

فلسفة ونظرية الأمن الإسرائيلى هى النقطة الساخنة فى الصراع كله الآن.

ساخنة أكثر من لهب القتال الدائر فى البر والجو والبحر على كل الجبهات!

سؤال وجواب

٢٦ أكتوبر ١٩٧٣

هذه أسئلة عديدة وجهتها لنفسى، وذهبت معها بالتفكير بعيدًا وعميقًا قدر ما أستطيع. ووجهها لى غيرى وجئت بها معى إلى هنا الآن، أجرب الكتابة فيها محددًا وواضحًا قدر ما أستطيع.

* * *

■ ■ ■ **السؤال الأول**: «كان رأيى، وقد عبّرت عنه صراحة فى الأسبوع الماضى أنه «يصعب علىّ أن أرى نهاية قريبة لهذه المعارك الطاحنة التى تدور رحاها على المرتفعات السورية فى الشمال وعلى رمال سيناء فى الجنوب. وحتى إذا حدث وتوقف القتال فى منتصف الطريق. فلعلى أقول من الآن ومبكرًا أن إسرائيل لن تنتظر طويلاً قبل أن تعود إلى إطلاق النار مرة أخرى وإلى إشعال الحريق.

وإذا بدا لبعضنا أو لغيرنا أن إسرائيل لا تمانع الآن فى قبول وقف إطلاق النار فى المواقع الحالية التى وصلت إليها قواتنا - شرق قناة السويس - فلقد يكون مفيدًا أن نحتاط وأن نقدر أن هذا القبول الإسرائيلى ليس علامة تسليم بأمر واقع جديد وإنما هو فرصة لالتقاط أنفاس أربكتها المفاجأة، ثم اضطرب انتظامها مع سرعة تدافع الحوادث بعد المفاجأة.

تكرار جديد - مخيف أكثر وخطير أكثر - لمأساة الهدنة الأولى فى فلسطين صيف سنة ١٩٤٨».

لم تكد تمر ثلاثة أيام على هذا الرأى الذى عبرت عنه صراحة الأسبوع الماضى،

حتى كان مجلس الأمن قد أصدر قراراً بوقف إطلاق النار، وقبلته إسرائيل على الفور أثناء جلسة مجلس الأمن فجر يوم الاثنين ثم قبلناه نحن رسميًا بعدها بساعات عند الظهر لكنه عاد إلى الاشتعال مرة أخرى وتلاحق دوى الانفجارات، بعضها غادر وبعضها الآخر غاضب!

ما هو تقديرى لما حدث؟ هل ما زلت عند رأى أبديته فى الأسبوع الماضى؟ هل تغير هذا الرأى؟ هل تغيرت الأوضاع؟ أو ماذا..؟

....

....

....

■ ■ ■ جوابى كما يلى:

لقد أبديت رأيًا، وكل رأى اجتهاد، وكل اجتهاد معلق برؤية صاحبه، ثم إنه مرهون بتقدير ظروف متحركة باستمرار، وقد تختلف الاجتهادات والرؤى وتقديرات الظروف المتحركة باستمرار، ولكنى أريد أن أقول - بأمانة وصدق - إنه فى لحظات معينة من مسار التاريخ لابد أن تكون هناك مساحة واسعة من الحرية لصانع القرار يتحرك فيها على مسئوليته ويلائم فيها شراعه مع الرياح ويملؤه بالهواء من أى ناحية ويحصل لنفسه بذلك على قوة اندفاع أكبر نحو نقطة وصول يرى عندها هدفه.

ولست من أنصار ترك كل شىء لأى فرد مهما بلغت درجة الثقة فيه، ولكنى أعرف أن أحوال العصر الحديث وبينها تعقيد وتشابك القضايا، وتزايد سرعة الحوادث، واحتمالات تراكم وتصادم الاعتبارات - تضع كلها على كاهل صانع القرار فى هذا العصر أعباء ومسئوليات وتبعات لم تكن تخطر على البال فى عصور سبقت.

ولقد يحتدم النقاش بيننا حول قضايا المصير، ولكن هناك لحظات يتحتم فيها على الكل أن يتبعوا الراية العالية الغالية، وأن يحاولوا الفهم إلى أقصى

مايستطيعون، وأن يحاولوا العطاء إلى أقصى ما يقدرون، محيطين كلهم بصانع القرار لأن القرار فى قضايا المصير يصبح حياة وطن وحياة أمة، والجدل حوله بعد الأوان أو قبل الأوان إما نوع من التزيد أو نوع من الترخص كلاهما لا يليق.

ولربما كان أحسن ما نستطيع به متابعة وتحليل وتقييم تصرفات صانع القرار والمسئول عن إدارة الصراع - خصوصا إذا كنا نثق فيه - هو أن نحاول، وبمنتهى الموضوعية، ملاحظة وفهم ودراسة المناخ الذى يفكر ويمارس ويقرر فيه وتحت مؤثراته.

....

....

....

وفيما يتعلق بقرار القبول بوقف إطلاق النار، فإن صانع القرار المصرى، كان فيما أتصور أمام العوامل التالية:

١ - إن القوات المصرية المسلحة أثبتت نفسها بأكثر مما قدر أصدقاؤها وأعداؤها على السواء خصوصا فى نقطتين بارزتين:

النقطة الأولى: دقة التخطيط والتنفيذ لعملية العبور التاريخية التى تم بها وسط النار اقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف.

قد دخلت هذه العملية بالفعل إلى التاريخ العسكرى العالمى كله وسيبقى لها مكانها المرموق فى سجلاته مهما حدث أو يحدث.

النقطة الثانية: روح القتال العظيمة التى حارب بها ضباط مصر وجنودها وفرضوا على الدنيا كلها - بما فيها العدو - احتراما جديدا لقيمة الإنسان العربى واستعداده لمجابهة تحدى الحياة وتحدى الموت معا.

إن هذا العامل ألحق تغييرات جذرية على ما أسميناه اصطلاحًا بأزمة الشرق الأوسط:

● لقد كسر الجمود الذى أحاط بها وغطاها بطبقة من الجليد كانت شبه متحجرة.

● ودعا القوى الدولية كلها إلى الالتفاف نحو ما يجرى على أرض الشرق الأوسط، بعد أن كانت تدير له ظهرها، وإن التفتت إليه بين الوقت والآخر تربت على كتف العرب فى عطف مرة، وتمسح لهم دموعهم بالمواساة مرة أخرى.

● وفتح خريطة الشرق الأوسط، وراجع الخطوط التى كادت تثبت عليها بست سنوات من أمر واقع مفروض، وطرح رسم الخطوط من جديد.

● وأنهى أسلوبًا من الغطرسة والتعالى، اتخذه العدو لنفسه منذ معارك الأيام الستة، وكان هذا الأسلوب يضع العدو فى مركز يسمح له برفض مطالبنا وفرض مطالبه وردعنا بقسوة إذا بدا له تمردنا على الخضوع!

إن ذلك كله معنويًا وسياسيًا وعمليًا كان إنجازًا عظيمًا بأى مقياس، والإنجاز وحده هو الذى يولد الثقة بالنفس والثقة بالنفس تعطى صاحبها قدرًا من المرونة، والمرونة فى هذه الحالة تكتسب معنى آخر غير معنى المساومة.

....

....

....

٢ - إن صانع القرار المصرى وجد أمامه حركة منسقة من القوتين الأعظم فى عصرنا: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. وليس معنى التنسيق أن نفترض وجود وحدة فى المنطلقات، لأن منطلق الولايات المتحدة يختلف عن منطلق الاتحاد السوفيتى أكيدًا ويقينًا.

أى أن التنسيق مع اختلاف المنطلقات هو محصلة نهائية لشد وجذب، وتعارض إرادات ثم هو فى النهاية حكم ضرورات تعطى للقوتين الأعظم - شئنا أو لم نشأ، شاء غيرنا أو لم يشاءوا - دورًا خاصًا لا يحكم وإن كان يتحكم.

أعنى إنه دور لا يملى إرادته على الآخـرين من أعلى، ولكنه دور لا يسـتطيع الآخرون أن يتجاهلوه حيثما كانوا وكانت درجاتهم على السلم الدولى.

وفضلاً عن ذلك فإنه مما يجعل تأثير القوتين الأعظم محسوسًا فى أزمة الشرق الأوسط إنهما معا مصدر السلاح الأساسى للطرفين المتحاربين على أرض المنطقة:

الولايات المتحدة: مصدر السلاح الرئيسى لإسرائيل.

والاتحاد السوفيتى: مصدر السلاح الرئيسى لمصر وسوريا.

ولقد كان مشهد القوتين الأعظم خلال الأزمة مشهدًا عجبًا فى الصراعات الدائرة فى عصر جديد.

وتخطر على بالى عند هذه النقطة مناقشات دارت بين السفير الفرنسى فى القاهرة «برونو دى لوس» وبينى، فى وقت كان القتال فيه محتدمًا بعنف فى صحراء سيناء.. صدام إرادات حتى النهاية، بكتل الحديد وعواصف النار ولحم ودم الرجال والشباب.

وقال لى السفير «دى لوس»:

«- هل تستطيع تصور ما نراه أمام عيوننا بين القوتين الأعظم الآن؟

الحوار بالطائرات والدبابات والصواريخ دائر هنا.. والحوار بينهم هناك فى الصالونات والمكاتب، والرسائل الشفرية على الخطوط الساخنة، وبالتليفونات بين واشنطن وموسكو.

وأغرب من ذلك - أغرب كثيرًا - ما نراه فى الجو والبحر:

● جسر جوى أمريكى قادم عبر البحر الأبيض - طولاً - من أمريكا إلى إسرائيل: من الغرب إلى الشرق.

وجسر جوى آخر سوفيتى قادم عبر البحر الأبيض - عرضًا - من الاتحاد السوفيتى إلى مصر وسوريا: من الشمال إلى الجنوب.

الجسران الجويان يتقاطعان مع بعضهما فى نقطة ما من سماء البحر الأبيض ولكن كلاً منهما يمضى فى سبيله.

● ثم جسر بحرى عبر البحر الأبيض أيضًا.

أمريكى من الغرب إلى الشرق.

سوفيتى من الشمال إلى الجنوب.

والبواخر الحاملة للسلاح تتلاقى على الموج فى النهار وفى الليل. **وتحت الموج غواصات لكل طرف من الطرفين ترى كل شىء وتسمع كل شىء وتسجل ولا تتدخل.**

أليس هذا منظرًا عجبًا؟

كيف نفسره؟ هل درسناه؟ لا بد أن نفعل ذلك».

ويسكت السفير الفرنسى عن الكلام لحظة بشفتيه ولكت عينيه لا تسكتان وإنما تلمعان بخواطر فى مثل ومضات البرق!

....

....

....

٣- ثم تابع صانع القرار المصرى قوة الدولتين الأعظم تمارس حركتها لأول مرة فى عصر الوفاق على مسرح مجلس الأمن، بعد أن تم التوصل بينهما إلى موقف مشترك:

تبادل كل منهما مع الآخر ما لديه من حقائق ومعلومات.

ثم تعرف كل منهما على الحقائق فيما يختص بالطرف المحلى الذى يؤيده فى الصراع:

تعرفت الولايات المتحدة على الحقائق فيما يختص بإسرائيل: ولم تكن سرًا

عليها ولكن الأمر اقتضى مع ذلك أن يذهب هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية إلى مبنى السفارة الإسرائيلية فى واشنطن لكى يتصل من هناك بوساطة خط تليفونى مباشر ومؤمن ضد الاختراق والتسمع، مع جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل، وكان كيسنجر يتصل عدة مرات كل يوم عن طريق هذا الخط بجولدا مائير.

وتعرف الاتحاد السوفيتى على الحقائق فيما يختص بمصر: ولم تكن سرًا عليه، ولكن الأمر اقتضى أن يجيء إليكسى كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى بنفسه إلى خمس جلسات عمل مع الرئيس أنور السادات فى القاهرة ومن المفارقات أن إليكسى كوسيجين ذهب ثلاث مرات من قصر القبة الذى أقام فيه إلى دار السفارة السوفييتية فى الجيزة لكى يتصل من هناك بوساطة خط تليفونى مباشر - مؤمن ضد الاختراق والتسمع هو الآخر - مع الزعيم السوفيتى ليونيد بريجنيف.

ثم طار هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية من واشنطن إلى موسكو فى ساعات وعقد عدة جلسات مع ثلاثى القمة السوفييتية: بريجنيف وكوسيجين وبادجورنى.

وبدأت القوتان الأعظم أول تطبيق عملى لمواجهة أزمة طارئة فى عصر الوفاق:

● دعى مجلس الأمن إلى الاجتماع بعد ظهر يوم الأحد، وكل الأعضاء خارج نيويورك فى عطلة نهاية الأسبوع، ولكنهم تلقوا الدعوة وعادوا جميعا إلى مقاعدهم واجتمع المجلس.

● وكانت بريطانيا تطمح أن تقوم بدور يكون عليها فيه أن تقدم مشروع القرار إلى مجلس الأمن كما حدث سنة ١٩٦٧، ولكن القوتين الأعظم هذه المرة لم تكونا فى حاجة إلى طرف ثالث: وسيط أو واجهة. وهكذا تقدمتا معا بمشروع قرار.

● وبعد ساعتين من المناقشات كان القرار صادرًا بالإجماع بدون اعتراض من أحد.

ولم يعد القرار مجرد إرادة القوتين الأعظم - بعد التشاور مع أصدقائهما فى منطقة الصراع - فحسب، وإنما أصبح إرادة مجتمع الدول كله.

وهو مجتمع بذل العرب جهودا كثيرة ومضنية لكى يجعلوه يميل ناحيتهم بعد أن كان يميل إلى الناحية الأخرى.

....

....

....

٤ - إن صانع القرار المصرى كان عليه أن يأخذ فى اعتباره تطورا له خطره.

فى الأيام العشرة الأولى من الحرب كان يقاتل إسرائيل وحدها: نظرية الأمن فيها، وجهاز الحرب المستعد عندها، وحماقة القوة التى انتشت بها ربع قرن كاملاً من الزمان.

ولقد حقق المقاتل العربى ما لم يكن فى حسبان أحد.

فى الأيام العشرة الأولى من القتال استطاع - وسوف اعتمد هنا على التقديرات الأمريكية وحدها بغض النظر عن التقديرات العربية - أن يحقق ما يلى:

١ - تحطيم ٩٠٠ دبابة إسرائيلية [أى نصف القوة المدرعة لإسرائيل].

٢ - إسقاط ١٦٠ طائرة إسرائيلية [أى ثلث القوة الجوية لإسرائيل].

٣ - قتل ما بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف من ضباط وجنود إسرائيل.

وهذا الرقم خطير لأنه - لو أخذنا فى الاعتبار نسبة السكان فى إسرائيل إلى نسبتها مع الولايات المتحدة - يماثل كما لو أن الولايات المتحدة خسرت فى حرب فيتنام نصف مليون قتيل.

وأهم من كل الأرقام فإن مفاجأة المؤسسة العسكرية فى إسرائيل بكل ما حدث ونتائجه كانت قاسية، كما كانت قاسية أيضا صدمة الرأى العام الإسرائيلى.

إن الولايات المتحدة بادرت من اللحظة الأولى إلى تأييد إسرائيل وراح التأييد الأمريكى لإسرائيل يتصاعد ويتصاعد يومًا بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة:

● جسر جوى وبحرى لإسرائيل تزداد كثفاته.

● الرئيس ريتشارد نيكسون يذهب إلى الكونجرس يطلب منح إسرائيل سلاحًا أمريكيا ثمنه ٢٣٠٠ مليون دولار.

● بنحاس سابير وزير المالية الإسرائيلية يجمع من يهود نيويورك ١٤٠٠ مليون دولار ومن يهود أوروبا الغربية ٦٠٠ مليون دولار، والمجموع ٢٠٠٠ مليون دولار - أى أن الاعتمادات التى أصبحت جاهزة تحت تصرف إسرائيل لمجهود الحرب - فضلا عن الميزانية الإسرائيلية العادية - زاد عليها فجأة مبلغ ٤٣٠٠ مليون دولار.

● متطوعون أمريكيون - خصوصا من الطيارين - يتدفقون على إسرائيل.

● سيل من الخبراء الأمريكيين يظهرون مع الأسلحة الجديدة فى إسرائيل.

● طائرات أمريكية من طراز جالاكسى تحمل الدبابات مباشرة من أمريكا إلى مطار العريش الذى تحتله إسرائيل لكى تنزل الدبابات عليه مباشرة وتتسلمها الأطقم الجاهزة لها من الاحتياط المستدعى، وتتوجه رأسًا إلى ميدان القتال [ولقد ثبت ذلك عمليا بالاستطلاع، بل وحتى بالدليل المادى فإن إحدى الدبابات من طراز م ٧٠ التى تم أسرها أمام المواقع المصرية لم تكن قد سجلت على عدادها أكثر من ١٢٠ كيلو مترا، وكانت تلك هى كل المسافة التى قطعتها هذه الدبابة فعلا على الأرض].

● أخطر من ذلك: طائرتان من طائرات الاستطلاع العالى الأمريكى تخترقان المجال الجوى المصرى والمجال الجوى السورى وتعبران بارتفاع شاهق فوق جبهات القتال والصور بالتأكيد بعد دقائق فى إسرائيل.

● ونتيجة للاستطلاع - إلى جانب نتائج أخرى سوف يجىء وقت الحديث عنها -

فإن الولايات المتحدة تفتح ترساناتها لتقدم لإسرائيل ما يلائم حربها وبعضه مما لم تستعمله هي ـ الولايات المتحدة ـ في حروب خاضتها بنفسها وأهمها قنابل صواريخ «سمارات» و«مافريك» وغيرهما.

والنتيجة أنه بعد الأيام العشرة الأولى من الحرب وجد صانع القرار المصرى أنه أمام تدخل أمريكى مباشر فى ميدان القتال.

وأعترف أننى أحسست ـ عميقا ـ بمشاعر أنور السادات حينما لقيته بعد ساعات من قبوله لوقف إطلاق النار يقول وبغير أسى أو خوف:

إننا ضربنا إسرائيل ضربة لن تنساها مدى العمر...

ونحن الآن نجد الولايات المتحدة فى الحرب ضدنا.

وهذا شرف لنا بغير جدال ولكنه شرف لم أسع إليه ولا أريده بالتأكيد».

ثم يضيف:

- «إن «أولادى» بمفردهم ضربوا إسرائيل بمفردها، ولكنى لا أستطيع بمسئوليتى عنهم أن أقول لهم «واصلوا القتال وأمامكم الولايات المتحدة».. ذلك تقتضينا حسابات أخرى.. وأنا لا أخاف وإنما لابد من إعادة حساباتى».

....

....

....

٥ -إن صانع القرار المصرى تنبه مبكرا إلى التطورات المحتملة فى الموقف كله واضعًا فى اعتباره أنه دخل الحرب وفق استراتيجية ليس له أن ينساها.

ولقد كان الهدف الاستراتيجى المصرى المحدد، هو كسر السلام الإسرائيلى [كما عبر الرئيس أنور السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب واللجنة المركزية يوم ١٦ أكتوبر].

كسر سلام الأمر الواقع..

كسر السلام المفروض بالإرهاب الإسرائيلي.

ومن ذلك الهدف الاستراتيجي ومن التنبه المبكر إلى التطورات المحتملة فإن الرئيس أنور السادات طرح مشروعًا عربيا للسلام [في نفس خطابه يوم ١٦ أكتوبر].

ولقد قدم أنور السادات مشروع السلام العربي قبل خمس ساعات من وصول إليكسي كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتي إلى القاهرة، وبالتالي فإن هذا المشروع العربي للسلام كان على المائدة في اجتماعات قصر القبة بالقاهرة.

ثم كان مشروع السلام العربي على المائدة بعد ذلك، حينما اجتمع ثلاثي القمة السوفيتي مع هنري كيسنجر في قصر الكرملين بموسكو.

وكان مشروع السلام المصري أخيرًا على المائدة، حينما اجتمع مجلس الأمن فجر يوم ٢١ أكتوبر في مبنى الأمم المتحدة بنيويورك.

وأهم من ذلك فإن مشروع السلام المصري كان في عقل وقلب صاحبه المسئول تاريخيا عن صنع القرار المصري حين دق التليفون القابع بجواره باستمرار هذه الأيام، وقيل له في الساعة التاسعة تماما من مساء يوم الأحد ٢٠ أكتوبر، أن السفير السوفيتي في القاهرة فلاديمير فينوجرادوف يطلب مقابلة عاجلة معه، لأن لديه رسالة من ليونيد بريجنيف الذي يجلس الآن مع هنري كيسنجر في موسكو.

وقال الرئيس السادات في التليفون:

- أبلغوه أنني في انتظاره الآن».

وفي نصف ساعة كان السفير مع الرئيس يقدم إليه رسالة بريجنيف وكانت فيما سمعت بعد ذلك رسالة مطولة من أجزاء متعددة:

● تفاصيل عن اتصالات القوتين الأعظم وعلى وجه الخصوص عن محادثات موسكو مع كيسنجر.

● نص مشروع القرار الذى تعتزم القوتان الأعظم تقديمه إلى مجلس الأمن الذى دعى إلى الاجتماع الليلة، وينتظر أن تبدأ جلسته «بعد ساعة ونصف ساعة».

● الضمانات التى اتفقت القوتان الأعظم على إحاطة مشروعهما المشترك بها حتى يتم التنفيذ الفورى والكامل لقرار مجلس الأمن.

● التأكيدات التى يعزز بها الاتحاد السوفيتى ثقته فى هذه الضمانات.

ولقد عرف العالم كله بعد قليل صيغة القرار المشترك الذى تقدمت به الدولتان الأعظم إلى مجلس الأمن، ولكن ما عدا ذلك من رسالة الزعيم السوفيتى ليونيد بريجنيف كان لعلم الرئيس المصرى وحده [وأعتقد بدون معرفة بالتفاصيل أن هناك شواهد عديدة تؤكد أن الاتحاد السوفيتى متمسك بما قدم من تأكيدات لأنه يتحرك خصوصا خلال الساعات الأخيرة بقوة وفاعلية].

وقال السفير السوفيتى للرئيس بعد أن تم نقل الرسالة إليه بكل أجزائها:

- لقد كنت قبل قليل على التليفون مع الرفيق بريجنيف شخصيا.

وهو يقول لك إنه «ظل ليالى طويلة ساهرا معك ومع أحداث المنطقة، وأما الآن وقد توصلنا إلى بداية طريق فإنه سوف يذهب لينام ويقترح عليك أيضا أن تنام لتستريح بعض الوقت».

وقال أنور السادات للسفير السوفيتى:

- أرجوك أن تنقل للصديق بريجنيف كل شكرى على ما سمعته منك الآن.

لقد أحسسنا بجهده الكبير معنا خلال الأيام الأخيرة، ومن حقه أن يستريح الآن بعض الوقت ويذهب لينام».

ثم أضاف أنور السادات:

ـ ومن سـوء الحظ أننى لا أسـتطيع أن أنام.. لم يحن الوقت بعد لنا كى نسـتـريح وننام».

....

....

....

٦ ـ وأخيرًا ـ وبالتـأكيد ـ فـإن صـانع القرار المصـرى كان يتـمثل فى ذهنه بعض المواقف العسكرية الطارئة والمحتملة، سواء على الجبهة الشمالية فى سوريا، أو على الجبهة الجنوبية فى مصر.

وهذا عامل أوثر أن لا أخوض فى تفصيلاته، لأن الضرورات كلها تنهى عنه الآن، وتستبعده، ولكنى أكتفى هنا بإشارات سريعة:

● إن هذه المواقف العسكرية والطارئة لا تسـتطيع أن تغطى على العمل العظيم الذى قامت به قواتنا المسلحة.

● إن هذه المواقف لا صلة لها بشـجاعة المقـاتلين، فلقد كان هؤلاء، وفى أصعب الظروف، شرفا لأوطانهم وإعلامهم وسلاحهم.

● إن جيلاً جديدا قد تعلم فى وهج الحرب لمدة ثلاثة أسابع بأكثر مما استطاع جيل قبله أن يتعلمه فى ثلاثين سنة.

وأمس فـقط كانت هذه النقطة مدار حـديث بين الدكتور مـحـمـود فـوزى وبينى، وكان قوله لى:

ـ لقد كنا ندعى أنَّ فى استـطاعتنا أن نعلم شـبابنا، والآن فـإن علينا أن نتـواضـع، وأن نتعلم من شبابنا.

لقد حاربوا لأول مرة فى حياتهم.

وحاربوا فى عصر جديد يختلف عن عصور مسبقة.

وحاربوا بأسلحة لم تجرب من قبل فى ميدان قتال على هذا المدى الواسع.

ولقد أثبتوا أنهم قادرون على الحياة وعلى العصر وعلى سلاحه، ولا أقصد سلاح القتال وحده، وإنما أقصد سلاح البقاء الحضارى كله».

* * *

كان هذا هو المناخ الذى فكر ومارس وقرر فيه وتحت مؤثراته صانع القرار المصرى، وأعلن قبوله لوقف إطلاق النار.

ولم تتوقف النار حتى هذه اللحظة برغم قرارات متلاحقة من مجلس الأمن وبرغم بيانات ونداءات.

ولسنا فى حاجة إلى تحقيق لكى نعرف من والذى يعود إلى إطلاق النار.

أقول بغير تردد وبغير انتظار تحقيقات تجربها لجان المراقبة الدولية أو غيرها:

- العدو هو الذى يعود إلى إطلاق النار.

إن هدفه هو تدمير القوات المسلحة المصرية.

إن النقطة الساخنة فى الصراع ما زالت كما قلت فى الأسبوع الماضى هى: نظرية الأمن الإسرائيلى.

ولقد استطاعت القوات المسلحة المصرية أن تهز نظرية الأمن الإسرائيلى وهذا شىء يذهب بعيدًا وعميقًا فى تكوين وحياة ومستقبل إسرائيل.

ليست النقطة الساخنة فى الصراع شريطا تحتله القوات المصرية على الشرق من قناة السويس.

وليست النقطة الساخنة فى الصراع ثغرة فتحتها القوات الإسرائيلية على الغرب من قناة السويس.

النقطة الساخنة هى نظرية الأمن الإسرائيلى التى استطاعت القوات المسلحة المصرية أن تهزها بعرق ودم ضباطها وجنودها على ساحات القتال.

وأظن أن إسرائيل بعودتها إلى إطلاق النار تريد تحقيق ثلاثة أهداف تبدو أمامى واضحة:

● محاولة تدمير القوات المسلحة المصرية التى استطاعت أن تهز نظرية الأمن الإسرائيلى بكل ما يعنيه ذلك فى الحاضر والمستقبل.

● التأثير نتيجة لذلك على جو وعمل وموازين مؤتمر السلام المقترح ذلك لأن القاعدة الدولية الثابتة دواما هى أن أى وثيقة لا تستطيع إلا ترجمة الحقيقة.

لأن الواقع هو الذى يملى على الصياغات أن تملى على الواقع.

● وربما كان الهدف الثالث شعوريا أكثر منه عقلانيًا ذلك أن بعض ما يجرى الآن يعبر عن رد فعل بالغيظ لحالة فقدان التوازن بعد المفاجأة التى داهمت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية فى الساعات والأيام الأولى من القتال وأسقطت هيبتها».

□

وليس بى قلق مما يجرى الآن على ساحة ميدان القتال فهذه هى الحرب وجيشنا يخوضها صامدًا لعواصفها وأعاصيرها شجاعًا ومقتدرًا، كما أن جماهير شعبنا فيها بكل وعيها وإصرارها - ولكن قلقى أحيانا مما يجرى فى أعصاب البعض منا.

ولعلنا ندرك أن أعصابنا اليوم هى أقوى سلاحنا، وأختم بملاحظتين:

هناك منجزات لم نعد نملكها وإنما تملكها بطولة الرجال وتضحيات الرجال ودماء الرجال، وقد كان دورهم فى ساحات القتال أنظف وأنبل وأعظم مشهد فى كل حياتنا وتاريخنا.

ثم إن أمامنا مهام عاجلة ومتواصلة، أولاها وأهمها ألا نفك الاشتباك مع العدو حتى إذا هدأت أصوات الانفجارات على الجبهة.. الصراع الآن على الذروة، وحتى إذا سكتت النيران فإن هناك ما لابد - ضرورة - أن نحققه بالقوة، وإن لم يكن - ضرورة - بالنيران.

إن العدو الآن مهما بدا من عنفه مشدود على الآخر مكشوف على الآخر ماديا ومعنويا.. سياسيا واقتصاديا.. عسكريا ودوليا وليس من حقنا أن نتركه ليستريح إلا عند نقطة نستطيع نحن عندها أن نستريح.

وعلينا أن نفكر بسرعة، وعلينا أن نتحرك بسرعة، وعلينا أن نحشد فكرا وعملا قدرات أمة عربية بأسرها عليها الخطر إذا استفحل، ولها الأمن إذا انحصر وانحسر.

* * *

ولقد أطلت ولم أجب إلا عن سؤال واحد مما وجهته لنفسي، ووجهه لي غيري، وهناك أسئلة أخرى كثيرة.

سؤال ثان

قصة التسلل.. الثغرة!..

٢٨ أكتوبر ١٩٧٣

سؤال ثان مطروح بإلحاح، ولعله من أهم الأسئلة التى تثيرها تطورات الحرب الدائرة الآن فى الشرق الأوسط، وأظنه سوف يظل من أكثر الموضوعات مدعاة للجدل فى المستقبل وهو:

ـ ما هى قصة هذا التسلل.. هذه الثغرة.. التى استطاعت القوات الإسرائيلية منها أن تنفذ عبر البحيرات المرة من شرق إلى غرب قناة السويس؟

ماذا حدث؟.. كيف حدث؟.. إلى آخره»؟

□

ولعلى فى البداية أتحفظ فأقول إننى لست خبيرًا بالشئون العسكرية، ولا متخصصا فى علومها وفنونها، وقصارى ما أدعيه لنفسى ـ وقد أكون مخطئًا ـ أن تجربة العمل الطويل، كمراسل حربى قديم فى ميادين قتال متعددة، فرضت على أن أتابع قضايا ومشاكل الفكر الاستراتيجى، ثم إنها ولدت فى عقلى فضولاً شديدًا يحاول باستمرار أن يتعلم، وأن يستكشف، وربما ورطنى فيما أحاول أكثر، إن قضايا الفكر السياسى وقضايا الفكر الاستراتيجى تشابكت معًا فى العصر الحديث، حتى كادت تصبح مجالاً واحدًا من مجالات المعرفة.

والهواية أشد غواية من الاحتراف.

أقول ذلك اعتذارًا مسبقًا عن إقحام نفسى فيما يبدو أنه خارج عن اختصاصى!

....

....

وإذا ما فرغت بسرعة من هذه البداية، فإن جوابى عن السؤال المطروح بإلحاح عن قصة هذا التسلل.. هذه الثغرة، كما يلى:

■ ■ ■ **أولاً**: ربما قلت - ولا أظننى أبتعد كثيرا عن الحقيقة - إن قصة هذا التسلل.. هذه الثغرة، بدأت بالضبط فى الساعة الواحدة وخمس دقائق من بعد ظهر يوم السبت الثالث عشر من أكتوبر.

فى تلك اللحظة، اخترقت المجال الجوى المصرى طائرتان من طراز [س - ٧١]، على ارتفاع ٢٥ كيلو مترًا، شقت الفضاء العالى بسرعة تصل إلى ثلاث مرات سرعة الصوت، وكان خط سيرها من فوق بور سعيد حيث بدأ الاختراق، ثم مرورًا فوق الجبهة المصرية كلها، ثم عبورًا بشاطئ البحر الأحمر، ثم التفافا من وراء نجع حمادى، ثم عودة بقوس إلى سماء القاهرة، ثم مرورًا ثانية فوق الجبهة بالعرض هذه المرة وليس بالطول قاصدة إلى الأرض المحتلة ومنها إلى الخطوط السورية، ثم خارجة إلى البحر متجهة إلى قاعدة فى تركيا أو فى اليونان.

لقد بدا ذلك الاختراق غريبا لأول وهلة، ولكن وجه الغرابة فيه يزول إذا تذكرنا خريطة الأوضاع على الجبهة المصرية وقتها.

كانت الأوضاع كما يلى:

١ - قامت القوات المصرية بعملية العبور التاريخى واقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف فى ساعات أضافت صفحة جديدة إلى التاريخ العسكرى كله.

٢ - تقدمت القوات المصرية شرق قناة السويس، وإلى عمق يتراوح ما بين ١٨ و ٢٤ كيلو مترا، وتمركز الجيش الثانى فى القطاع الشمالى، وتمركز الجيش الثالث فى القطاع الجنوبى.

٣ - كان ذلك - كما تشهد الدنيا كلها - مفاجأة كاملة وقاسية على العدو الذى كان قد بنى خط دفاعه الأول على غروره، وعندما تهاوت واجهة الغرور، فإن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية بدت أمام شعبها وأمام غيره فى وضع قبيح، عبر عنه أحد الخبراء العسكريين البريطانيين بقوله:

ـ لقد ضبط جنرالات إسرائيل فجأة وبنطلوناتهم مدلاة.. نصف عراة»!

٤ - وأحدث ذلك - وكان لابد أن يحدث ذلك - أثره فى إسرائيل، فكان ما أسميناه - وبصدق - حالة فقدان التوازن التى أمسكت بتلابيب القيادة السياسية والعسكرية فى إسرائيل طوال الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى من الحرب.

٥ - ولم يكن فقدان حالة التوازن صورة معنوية، ولكن ضرائبها المادية كانت فادحة، فقد انهارت نظريات، وسقطت خطوط، وتحطمت مئات الطائرات والدبابات والمصفحات، ووقع فى الأسر أو القتل ألوف، وفقد الجيش الإسرائيلى أهم ما يملكه وهو صورته العامة، سواء فى الخيال الإسرائيلى أو فى الخيال العالمى.

....

....

■ ■ ■ **ثانيًا**: فى ذلك الوقت كانت هناك مناقشة واسعة دائرة بين كل الخبراء والدارسين والمعلقين العسكريين الذين شدت انتباههم حب الشرق الأوسط.

وكان موضوع المناقشة، وهو موضوع الساعة أيضا، سؤالا يقول:

ـ ما هى النوايا المحتملة للقوات المصرية بعد المشهد الافتتاحى الأول العظيم لعملية العبور؟

ثم ما هى النوايا المحتملة للقوات الإسرائيلية بعد الصدمة العميقة التى أصابتها بعملية العبور؟

[ولعلى أحدد هنا - احتياطا - أننى فى كل ما أقول الآن، اعتمد على متابعتى

للمناقشات التى دارت بين مراكز الدراسات الاستراتيجية فى أوروبا الغربية عمومًا وفى لندن وباريس على وجه التحديد].

كانت النوايا المحتملة بالنسبة للطرفين بعد افتتاحية العبور العظيمة الأولى هى موضوع المناقشة.. موضوع الساعة كما قلت.

وربما استطعت تلخيص أهم ما قيل خلال هذه المناقشة على النحو التالى:

■ فيما يتعلق بنوايا القوات المسلحة المصرية، فقد كان هناك رأيان:

١ - رأى يقول بأن القوات المسلحة المصرية سوف تتلقى أمرًا بالتشبث بالمواقع الجديدة التى احتلتها على الشريط الممتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة قناة السويس من الشرق، وبعمق يتراوح ما بين ١٨ و ٢٤ كيلو مترًا.

وهذه المواقع تتيح لها أن تتمتع بحماية حائط الصواريخ الهائل على الضفة الغربية للقناة وراءها، وذلك يلاشى بالنسبة لها خطر تفوق الطيران الإسرائيلى: مواقعها الجديدة فى مدى عمل حائط الصواريخ... وحائط الصواريخ يسلب الطيران الإسرائيلى حرية العمل فوقها.

وكان التقدير على أساس هذا الرأى هو أن القوات المصرية سوف تكون بهذه الأوضاع صخرة تتحطم عليها موجات الهجمات الإسرائيلية المضادة موجة بعد موجة، وهذا استنزاف يمكن أن يكون مميتا بالنسبة للقوة الإسرائيلية الضاربة.

٢ - رأى يقول بأن القوات المسلحة المصرية سوف تتلقى أمرًا بالانطلاق إلى المضايق الحاكمة فى سيناء لكى تتمركز فيها، باعتبارها المفتاح إلى قناة السويس، بل المفتاح من مصر إلى فلسطين ومن فلسطين إلى مصر، وهذه حقيقة عسكرية ثابتة أكدتها التجارب قديما وحديثًا.

كان هذا الرأى يرى أن خط المضايق الجبلى واستحكاماته المنيعة، هو الخط الطبيعى والمنطقى للتمركز المصرى، ثم إن هذا الخط ينقل ميدان القتال إلى الشرق سبعين أو ثمانين كيلو مترا ويبعده عن قناة السويس، بل إن أنصار هذا الرأى كانوا

يرون أنه بوصول القوات المصرية إلى هذا الخط والتمركز فيه، فإن الحرب فى سيناء كلها تعتبر فى حكم المنتهية، لأن إسرائيل عليها فى هذه الحالة أن تتراجع إلى الخط الطبيعى الثانى، وهو قريب من خط الحدود الدولية المصرية.

■ وأما فيما يتعلق بنوايا القوات المسلحة الإسرائيلية، فقد كان من المسلم به إجماعًا، أن الضربة المضادة سوف تكون عليها.

إن القوات المصرية ضربت بالعبور وباحتمالات تطويره.

وإذن فإن الضربة المضادة على إسرائيل.

وهنا أيضا كان هناك رأيان فيما يتعلق بنوايا القوات المسلحة الإسرائيلية:

١ - رأى يقول إنه لم يبق أمام إسرائيل إلا أن تدخل فى معارك بالدبابات لمنع احتمالات تطوير الهجوم المصرى.

ومع أن ذلك سوف يجرى فى ظروف غير ملائمة لها، فإنه السبيل الوحيد الباقى أمامها لمنع تطوير الهجوم المصرى.

وكان القول بعدم ملاءمة الظروف يرجع إلى اعتبارين:

إن الأرض المفتوحة من المضايق إلى خط القوات المصرية محصورة، وهى ليست الميدان الأفضل للمناورة بالمدرعات واستعمالها فى حركات الالتفاف والتطويق التى برعت فيها القوات الإسرائيلية، وفضلاً عن ذلك فإن مساحات من هذه المنطقة المحصورة التى لا تسمح بحركات الالتفاف والتطويق، تقع تحت نيران المدفعية المصرية البعيدة المدى على الشاطئ الغربى لقناة السويس.

ثم إن هذه المنطقة المحصورة المفتوحة للعمل قريبة من حائط الصواريخ المصرى، وبالتالى فإن عمليات المدرعات سوف تدور بغير التمهيد والحماية الكافية من القوات الجوية الإسرائيلية.

٢ - ورأى يقول إن القوات الإسرائيلية لابد أن تجد لنفسها ضربة مضادة أكثر ملاءمة من هذا كله.

وإذا كانت القيادة المصرية قد طرحت وضعًا يلائمها، إذن فإن على القيادة الإسرائيلية أن تتجنب هذا الوضع وتبتعد عنه.

أى أنه ليس محتمًا عليها أن ترد على الضربة المصرية فى ميدانها، وحيث رتبت نفسها، وإنما يدعوها فن الحرب إلى البحث عن مجال آخر وتصور آخر توجه منه ضربتها المضادة. إن اللعبة المفضلة للعسكرية الإسرائيلية هى الاختراق والتطويق - تطبيقًا لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر - ولا بد أن تجد القيادة العسكرية لنفسها فرصة تمارس فيها لعبتها المفضلة.

....

....

■ ■ ■ **ثالثًا**: إن واحدًا من مبادئ الاستراتيجية، وهو متكرر فى كل كتابات أقطابها، من «كلاوز فيتز» - منذ مائتى سنة - إلى ليدل هارت - منذ سنين قليلة - يقول إن ضربة الاختراق والتطويق تحدث أثرها دائما فى المفصل الذى يقع بين قوة وقوة على أى خط.

نقطة المفصل دائما هى أضعف النقط خصوصا فى المرحلة المبكرة من العمليات ولذلك فإن تأمينها دائما له إجراءات وصلت فى الحرب العالمية الثانية إلى حد كتابة وثائق موقعة، بإجراءات تدعيم المفصل.

بمعنى أنه إذا كان هناك جيشان على خط واحد، فإن إجراءات تأمين المفصل بينهما تحتم تسجيل وثيقة عليها توقيعات أربعة من ضباط أركان الحرب فى كل جيش من الجيشين.

وهكذا فإن من أهم الأسرار فى عمليات عسكرية ضخمة تشترك فيها قوات على مستوى مجموعات جيوش، أن يعثر العدو المهاجم على نقطة المفصل وأن يحددها تمامًا.

نقطة تنتهى عندها مسئولية جيش، وتبدأ عندها مسئولية جيش آخر. هذه هى النقطة الضعيفة دائما لأنها ملتقى أو مفترق مسئوليتين.

وبالتالى فإنه بالنسبة لأوضاع القوات المصرية شرقى القناة - فقد كان البحث عن نقطة المفصل بين الجيش الثانى فى الشمال، والجيش الثالث فى الجنوب هو الكنز!

ولقد كان مفهوما من قبل، وذلك أمر طبيعى، أن العدو سوف يعرف بمحاولات الاستطلاع والاشتباك نقطة المفصل بين الجيشين، ولكن المسألة المهمة هى: متى؟.. وفى أى ظرف؟

العثور على نقطة المفصل بعد الوقت الملائم لا قيمة له.

والعثور على نقطة المفصل فى غير الظرف الملائم لا قيمة له.

....

....

■ ■ ■ **رابعًا**: لست فى حاجة إلى القول بأن القوات الإسرائيلية اختارت أن تلعب لعبة الاختراق والتطويق.

ولست فى حاجة إلى القول بأن العثور على نقطة المفصل بين الجيشين الثانى والثالث كان شاغلها الأكبر فى الأيام الأولى من معارك سيناء.

ولست فى حاجة إلى القول بأن طائرتى الاستطلاع الأمريكيتين من طراز [س - ٧١] لم تكونا فى نزهة فى الفضاء العالى فوق الجبهة المصرية.

ولست فى حاجة إلى القول بأن ما التقطته عدسات التصوير الدقيقة من ارتفاع ٢٥ كيلو مترا، وبسرعة الصوت ثلاث مرات، وصل إلى إسرائيل.

ويلفت النظر هنا تتابع التوقيت:

كان الاستطلاع الأمريكى على الجبهة المصرية فى الساعة الواحدة وخمس دقائق من بعد ظهر السبت الثالث عشر من أكتوبر.

وكانت الخطوة الأولى فى عملية التسلل - كما أطلق عليها فى البداية - مع آخر ضوء مساء يوم الاثنين الخامس عشر من أكتوبر.

لقد ظهر سر نقطة المفصل ما بين الجيشين.

واستقرت إسرائيل على شكل واتجاه الضربة المضادة التى كان محتمًا أن تقوم بها.

وهكذا بدا الاستعداد للتنفيذ مهما كانت المخاطر.

ولست أريد أن يفهم أحد بأن إسرائيل استقرت على ضربتها المضادة فى ساعات، وإنما لابد أن احتمال الاختراق إلى الغرب كان مدروسا من قبل، وكانت هناك خطط بديلة جاهزة إذا طرأ ما يدعو إليها، بل إن هذا الاحتمال يتجاوز الظن لأنه كان معروفا وبتصريحات علنية لعديد من قادة إسرائيل: «إنه إذا خطر للقوات المصرية فى يوم من الأيام أن تعبر إلى الضفة الشرقية، فإن عبور القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية لا يمكن استبعاده».

ثم جاءت اللحظة التى دخلت فيها جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الثلاثاء السادس عشر من أكتوبر لتعلن أثناء المناقشة العامة فى الكنيست - ولكى تقمع أصوات المعارضة فيه - «إن القوات الإسرائيلية تعمل الآن فى غرب قناة السويس!».

....

....

■ ■ ■ **خامسا**: كانت الضربة الإسرائيلية على هذا الشكل، وفى هذا الاتجاه مغرية إلى أقصى حد بالنسبة لإسرائيل لعدة أسباب:

١ - هى لعبة الاختراق والتطويق مرة أخرى، لعبة المدرعات الإسرائيلية المفضلة.

٢ - إن القيام بها ينقل المعركة من شرق القناة إلى غربها، وبذلك فإنها تتجنب مواجهة الجيوش المصرية وتلف وراء ظهرها.

٣ - إن ذلك معنويا، وسوف يحدث آثارًا كبيرة ترفع من روح الشعب فى إسرائيل وتخفف من وقع الصدمات التى نزلت عليه.

٤ ـ إن ذلك ربما يتيح لها أن تتعامل بالمدرعات مع حائط الصواريخ على الغرب، وقد أعيتها الحيل فى اختراقه وشل فاعليته بالطيران.

٥ ـ إن ذلك يعطيها ميزة المفاجأة كل ما يمكن أن تحدثه المفاجأة على الطرف الآخر فى الحرب وعلى أعصابه.

....

....

■ ■ ■ **سادسًا**: لابد أن يقال، عدلا وإنصافا، أن الجيشين الثانى والثالث حاولا بكل تصميم وعناد سد ثغرة المفصل بينهما، ولكن العدو كان مستعدا عند هذه النقطة أن يصل إلى النهاية، وأن يفتح طريقا للتسلل.. الثغرة مهما كان الثمن، وذلك حدث ويحدث فى الحروب والمهم باستمرار هو ملاقاة الثغرة بهجوم مضاد يضرب فى اتجاهها ويصد فى نقطة المصب، بينما تستمر الجهود لقفل الثغرة والإطباق عليها عند المنبع.

ولابد أن يقال عدلا وإنصافا كذلك إن الخطة المصرية كانت تتوقع فى حساباتها لعبة من هذا النوع تقوم بها إسرائيل، بل ولقد أقول إن المنطقة التى جرى فيها التسلل أو الثغرة كانت أقرب ما تكون إلى ما توقعته الخطة المصرية وتحسبت له.

ماذا حدث؟ .. وكيف؟.. ولماذا؟

لابد أن أقول صراحة إن ذلك ليس مطروحا للمناقشة هنا، كما أنه ليس مطروحا للمناقشة الآن.

ومع ذلك، فلا بد أن أقول إن ما حدث لا ينتقص من قيمة الإنجاز العسكرى المصرى، كما أنه لا يتصل من قريب أو بعيد بروح القتال لدى الضابط المصرى والجندى المصرى.

وفوق ذلك، فإنى أضيف أن ما حدث كان ولا يزال فى نطاق ما يمكن مواجهته وبكل الوسائل.

....

....

■ ■ ■ **سابعًا:** إن القوات الإسرائيلية التى تدفقت من خلال الثغرة التى ركزت عليها المدرعات الإسرائيلية فى المفصل ما بين الجيشين وعبر البحيرات المرة ـ واستماتت فى التركيز عليها ـ سمحت لقوة عمل يقودها الجنرال آريل شارون، وهو من الخبراء فى عمليات الاختراق والتطويق، وأن تنفذ إلى الغرب من قناة السويس.

وكانت قوة العمل الموضوعة تحت قيادة شارون، وفقا لتقديرات «درو ميدلتون»، وهو من أبرز المعلقين العسكريين الآن، تضم مجموعة لواءين من المدرعات، ولواء واحدا من المشاة الميكانيكية، ومجموعة من قوات الكوماندوز.

إن هذه القوة حاربت حربا غريبة، ولعلى أقول إنها حرب جديدة.

أكاد أسميها حرب عصابات بالدبابات.

لقد تمركزت هذه القوة أولا فى منطقة الدفرسوار، وهى ملتقى طرق متعددة: جنوبا إلى السويس، وشمالا إلى الإسماعيلية وبور سعيد.

ثم راحت هذه القوة ثانيا تدفع مغارز صغيرة من الدبابات فى كل اتجاه، تحبس هنا وهناك، وتبحث لنفسها عن طريق تندفع عليه.

كان هدفها مزدوجا:

هدف عسكرى.. وهدف نفسى:

كان هدفها العسكرى أن تطول أقصى ما تستطيع أن تطول من مواقع شبكة الصواريخ المصرية.

وكان هدفها العسكرى أيضا أن تعمل على مؤخرة جيش من الجيشين وعلى طرق إمداده، بينما هو مشغول بمعارك الدبابات أمامه.

وفى النهاية، فإن هذه القوة دفعت بعض عناصرها نحو الجنوب، وبدا أن هدفها هو مؤخرة الجيش الثالث.

وكان الهدف النفسى هو التأثير على الأعصاب، وبالذات هنا فى القاهرة، ووراءها العالم العربى كله ثم العالم الخارجى أخيرًا.

وصدرت البيانات الإسرائيلية تقول إن القوات الإسرائيلية على بعد كذا كيلو متر من القاهرة، وكان هذا كله - عسكريا - لا يعنى شيئا، ولكنه بالنسبة لأعصاب مرهفة كان ثقيلا. وربما أضفت أن لهجة البيانات الرسمية المصرية إلى جانب ما راحت تصبه الإذاعات الأجنبية، جعله أشد ثقلاً!

كانت الحرب هناك - إلى جانب أهداف عسكرية معينة - حربا على الأعصاب هنا.

كانت فى الواقع حرب عصابات بالدبابات.

عشر دبابات تتحرك على طريق، وعشر دبابات تظهر أمام موقع، وعشر دبابات تلف من حول نطاق. بل وأحيانا وصل عدد الدبابات التى تتحرك على طريق، أو تظهر أمام موقع، أو تلف حول نطاق، خمس دبابات... بل وثلاث دبابات فى أحوال عديدة!

ولقد أضع فى اعتبارى هنا عنصر آخر.

ذلك هو أن إسرائيل كانت تتوقع قرارًا بوقف إطلاق النار، ومن هنا فإنها أرادت الانتشار مهما كان هشًا على أوسع مساحة، حتى إذا كانت لا تستطيع بسرعة تعزيز هذا الانتشار أو حمايته. كان يهمها أن يجىء وقف إطلاق النار ووجودها محسوس على أكبر رقعة من الأرض غرب سيناء.

وكان لبعض الخبراء، إلى جانب ذلك، اجتهاد آخر يقول إن إسرائيل بذلك أرادت أن تضع القيادة المصرية أمام أحد سبيلين لمواجهة الموقف:

إما أن تسحب جيوشها من شرق القناة.

وإما أن يزداد ثقل ما تقوم به هى فى الغرب على الأعصاب فى القاهرة.

....

....

■ ■ ■ **ثامنًا** : لابد أن ندرك - وأن نتمسك بكل ما يترتب على هذا الإدراك - أن معظم هذه التحركات الإسرائيلية بالانتشار بالشظايا من حفنات الدبابات جرى بعد صدور القرار الأول بوقف إطلاق النار فجر يوم ٢٢ أكتوبر.

....

....

■ ■ ■ **تاسعًا** : يبقى أن مواجهة هذه العملية من حرب العصابات، بكل الوسائل، ليست معضلة بغير حل إذا استعدنا زمام المبادأة فى قلوبنا وفى عقولنا.

....

....

■ ■ ■ **عاشرًا** : الوضع العسكرى على الجبهة الآن كما يلى:

١ - خطوطنا على الشرق من قناة السويس ثابتة : الجيش الثانى فى القطاع الشمالى فى وضع طيب، والجيش الثالث فى القطاع الجنوبى يحتفظ بصلابته رغم وجود متاعب فى مؤخرته من حرب العصابات بالدبابات.

٢ - الخط على الغرب من الإسماعيلية إلى الشمال سليم، برغم محاولات العدو بالطيران، وبالذات فوق بور سعيد.

٣ - الخط على الغرب من الدفرسوار وجنوبا، يعيش ذلك المشهد الغريب من حرب العصابات بالدبابات، صنعت لنفسها هنا وهناك مواقع كالبقع تتحرك عليها بسرعة وتنتشر فوقها بغير تركيز وبغير عمق.

وهذه هى الصورة كاملة.

ولست من أنصار التهوين، ولكننى لست أيضا من أنصار التهويل.

وأقول بأمانة:

ـ أظننا نستطيع بأعصاب هادئة وبردود فعل محتفظة بتوازنها.. وبكل وسائل القوة السياسية الشاملة [بما فيها السلاح].

ولو استطعنا، فإن ما تصورته إسرائيل مخرجا لها.. قد يصبح مأزقًا لها!

□

ولقد كتبت ما كتبت لأنى لا أتصور أن تعيش مصر هذه اللحظات فى جو إعتام فكرى، والإعتام فى شوارعنا ضرورة ولكن الإعتام فى رؤيتنا للصورة الحقيقية لامبرر له.

ثم إننى كتبت ما كتبت إحقاقا للحق وإنصافا للواقع، وكان فى ضميرى طول الوقت جهد أعظم الرجال، وأشجع المقاتلين، وزشرف الأجيال التى عاشت حتى الآن على أرض مصر.

رجال أعطوا وقاتلوا وأكدوا قيمتهم وقيمة وطنهم، ولا تستطيع قوة على الأرض ولا يجب أن نسمع لقوة على الأرض-أن تسرق عطاءهم وقتالهم وتأكيدهم لقيمتهم وقيمة وطنهم.

لقد صنعوا ما صنعوه كله بالدم وفى النور.

ولا يمكن أن يضيع شىء منه بالغدر وفى الظلام.

السلام البعيد .. البعيد!

٢ نوفمبر ١٩٧٣

... برغم أنني واحد من الذين يترددون باستمرار قبل التطوع بإصدار أحكام مسبقة، خصوصًا في ظروف لم تستكمل بعد شكلها النهائي، وإزاء أفعال ما زالت ردود فعلها تصل إلينا كأصوات رجع الصدى مكتومة ومضغومة بحيث يصعب تفسيرها، على الأقل بالسرعة الكافية . . .

برغم ذلك فلعلي أقول:

- إن ما أراه أمامي، والطريقة التي أفهمه بها، والاستنتاجات التي أخرج بها منه - يدعوني كله إلى الاعتقاد بأن السلام مازال بعيدًا . . . بعيدًا . . . بعيدًا جدًا.

حتى الطريق إلى السلام ما زال بعيدًا . . . حتى بداية الطريق إلى السلام ما زالت بعيدة!».

وربما أضفت إلى ذلك اعتقادي بأن عودتنا إلى ميدان القتال لمواصلة الحرب، أقرب إلى الاحتمال في تصوراتي من ذهابنا إلى مؤتمر للسلام في نيويورك أو في جنيف أو غيرهما من المدن الكبرى المطروحة للمناقشة كبيت لهذا المؤتمر المقترح تحت مظلة الأمم المتحدة وفي إطار مجلس الأمن وبالاشتراك المباشر لبعض أعضائه وبالذات أصحاب المقاعد الدائمة وفي مقدمتهم القوتان الأعظم . . .

والسبب الذي يجعلني أقول بذلك هو ما أستطيع أن ألمحه، وما أستطيع أن أستقرئه، من إشارات وإيماءات، الى اتجاهات التفكير والحركة في إسرائيل.

□

ولعلى أحدد فى هذا الصدد ثلاثة تصريحات إسرائيلية لافتة للنظر بأهمية من صدرت عنهم، وبخطورة ما تعبر عنه، وهذه التصريحات الإسرائيلية الثلاثة، على النحو التالى:

١ - تصريح لجولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أثناء زيارتها يوم ٢٩ أكتوبر لبعض وحدات جيشها فى الثغرة المفتوحة على الضفة الغربية من قناة السويس وقد جاء فيه قولها:

«إننا أرغمنا على قبول وقف إطلاق النار قبل تحقيق أهدافنا، وقد كان أرغمنا على ذلك بوساطة الولايات المتحدة، وقد اضطررنا إلى القبول لأن الولايات المتحدة هى المصدر الوحيد الذى نحصل الآن منه على السلاح».

٢ - تصريح للجنرال دافيد اليعازار رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإسرائيلى أثناء مؤتمر صحفى عقده يوم ٢٨ أكتوبر أمام عدسات التليفزيون الإسرائيلى وقد جاء فيه قوله:

« إننا حرمنا من تحقيق انتصار حاسم كنا قادرين عليه، ولكننا لم نكن قادرين على الضغوط الدولية التى حالت بيننا وبينه بعد أن تحول التيار لصالحنا».

٣ - تصريح للجنرال حاييم هرتزوج رئيس المخابرات الإسرائيلية السابق والمتحدث الرسمى باسم القيادة العامة للجيش الإسرائيلى حاليًا أثناء عرضه اليومى للموقف يوم ٢٧ أكتوبر أمام مجموعات الصحفيين والمراسلين الذين يتابعون أنباء الحرب من الجانب الإسرائيلى وقد جاء فيه قوله:

« إن العالم لم يكن يريد لإسرائيل أن تنتصر وقد أظهر نحوها فى اللحظات الحرجة عداء غريبًا لا نستطيع تفسيره إلا بأنه نزعة من نزعات معاداة السامية».

هذه هى التصريحات الثلاثة اللافتة، أوردتها بنصوصها وفى مناسباتها وبغير تحرج لأنه من المحتم علينا أن نفهمها وأن نناقشها وأن نستخلص منها ما يتحتم

علينا أن نستخلصه وإن كنت أضيف على الفور وبغير انتظار أنها جميعًا معبأة برموز تشير إلى اتجاهات التطورات المحتملة والقادمة!

* * *

ولربما كان ضروريًا قبل أن نحاول فهم هذه التصريحات الإسرائيلية واستخلاص ما تعنيه ودلالاته - أن نسأل أنفسنا أولاً:

- هل ذلك صحيح؟

هل صحيح أن إسرائيل حرمت انتصارًا كان فى يدها لأن ضغوطًا وقعت عليها ومنعتها من أن تلتقط بأصابعها ثمرة كانت ناضجة على الشجرة؟!».

هذا هو السؤال . . .

وهو سؤال لا بد أن نناقشه باستفاضة لأن أشياء كثيرة فى الحاضر وفى المستقبل سوف تتوقف على مناقشته بطريقة لا تترك مجالاً لأى لبس أو سوء فهم.

وأحاول ذلك الآن...

□

سوف أقول - بداية - إنه مما لا شك فيه أن هناك عنصرًا دوليًا دخل على حرب الشرق الأوسط وحولها فى لحظة من اللحظات من مواجهة محلية واقعة بين العرب وإسرائيل إلى مواجهة دولية محتملة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة.

وكان ذلك منطقيًا وكان متوقعًا لعدة أسباب:

الشرق الأوسط منطقة حيوية بالنسبة للقوتين الأعظم على اختلاف المبادئ التى تحكم سياسات كل منهما فيه [لست فى حاجة إلى إعادة التذكير بالأهمية الإستراتيجية والاقتصادية والحضارية للمنطقة].

القوتان الأعظم هما مصدر السلاح بالنسبة لطرفى الحرب المسلحة فى الشرق الأوسط: الاتحاد السوفيتى المصدر الرئيسى للسلاح العربى والولايات المتحدة المصدر الرئيسى للسلاح الإسرائيلى.

ومن هنا فإنه مع أهمية المنطقة، ومع تصاعد الحرب فيها وتزايد الطلب على إمدادات السلاح - فإن القوتين الأعظم سوف تجدان نفسيهما بقرب ميدان القتال فى لحظة من اللحظات.

الوفاق بين القوتين الأعظم ما زال فى بدايته أى أنه ما زال هشًا فى بنائه رغم قوة الدعائم التى يستند عليها، ثم إنه ما زال مفتوحًا لاختبار النوايا لأن الوفاق لم يغير اختلاف الطبائع بين القوتين الأعظم.

من هنا فإننا نستطيع أن نقول بتجرد ونزاهة:

إن حرب الشرق الأوسط دارت على مرحلتين:

مرحلة أولى كانت الحركة فيها هى حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الإسرائيلية.

مرحلة ثانية تداخلت فيه تأثيرات التوازن الدولى مع حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الإسرائيلية.

وقد أحاول تبسيط المسألة أكثر فأقول:

إن حرب الشرق الأوسط التى احتدمت لمدة عشرين يومًا تقريبًا، تنقسم إلى قسمين بالضبط:

عشرة أيام منها، الأيام العشرة الأولى، وقد كانت الحرب فيها بين العرب وإسرائيل وجهًا لوجه، مباشرة، وبقوة كل منهما بمفرده.

عشرة أيام منها، الأيام العشرة الأخيرة، ولم تكن الحرب فيها بين العرب وإسرائيل وجهًا لوجه، ولا مباشرة، ولا بقوة كل منهما بمفرده.

وهكذا فإنه يتحتم علينا أن نسأل أنفسنا سؤالين محددين:

ماذا حدث فى الأيام العشرة الأولى؟

ماذا حدث فى الأيام العشرة الثانية؟

***

نلتفت إلى الأيام العشرة الأولى وسوف نجد ما يلى:

١ - إستراتيجية إسرائيل تقوم على إحساس بالتفوق المطلق وكانت مكونات هذا الإحساس بالتفوق المطلق متعددة:

العرب رهائن لعقدة الخوف ولن يجسروا على اتخاذ القرار.

إذا اتخذوا القرار فإنهم لا يعرفون ما هى الحرب الشاملة.

الأمن الإسرائيلى منيع وراء حاجز قناة السويس ووراء استحكامات خط بارليف.

قوة الردع الإسرائيلى هائلة وسوف يكون انقضاضها رهيبًا.

....

....

....

٢ - إن قرار قبول التحدى وخوض الحرب كان صدمة لإستراتيجية إسرائيل نفسيًا وفنيًا:

نفسيًا: لأنه جاء على عكس كل توقعات وتقديرات القيادة السياسية والعسكرية فى إسرائيل.

فنيًا: لأن مخابرات إسرائيل لم تعرف به، وإن كانوا يقولون الآن - ولعلى أميل إلى تصديقهم فى هذه النقطة فقط - إنهم تأكدوا فى صباح يوم ٦ أكتوبر أن الضربة قادمة فى ساعات، ولكن الوقت كان قد فاتهم ولم يعد فى مقدورهم مهما فعلوا ملاقاة الضربة أو تفاديها.

....

....

....

٣ - إن المفاجأة الحقيقية فى الحرب كانت مفاجأة التاريخ، وهذه نقطة أريد أن أشرحها أكثر.

وكنت أقول - دائمًا - وما زلت أقول إن صميم أزمة إسرائيل إنها تتجاهل التاريخ تمامًا، وتعيش خارجه، بل وتعيش ضده.

إنها مثلاً تقيم أساس وجودها على أسطورة غيبية تقول بأن هناك وعدًا إلهيًا لبني إسرائيل بالعودة إلى أرض الميعاد، وهى في نفس الوقت تنسى الحقيقة التاريخية التى تقول بأن هناك شعبًا اسمه شعب فلسطين عاش آلاف السنين ومازال يعيش على هذه الأرض المقول بأنها أرض الميعاد.

أسطورة غيبية ضد حقيقة التاريخ.

وهى مثلاً تقيم مبرر وجودها على اضطهاد النازية العنصرية ليهود أوربا وحق هؤلاء اليهود فى وطن لهم يأمنون فيه، وهى فى نفس الوقت تنسى أن اضطهاد اليهود حقيقة تاريخية فى أوربا، ولكن اضطهاد اليهود لم يكن فى يوم من الأيام حقيقة تاريخية فى الشرق الأوسط.

فرض حقيقة تاريخية بعيدة على وضع تاريخى لا علاقة له بها.

كنت أقول بذلك دائمًا وأضيف اليوم:

- إن الذى يتجاهل التاريخ هو من ينسى أن البذرة هى التى تصنع الشجرة.
- والذى يعيش خارج التاريخ هو من يتصور أن بمقدوره أن يفرض على اليوم ما لا علاقة له بالأمس.
- والذى يعيش ضد التاريخ هو من يجرى حساباته على شكل الأشياء متغافلاً

عن مضمون الأشياء أو يجرى حساباته على ما هو منظور من العوامل فقط ناسيًا ماهو كامن وهو أحيانًا أقوى وأفعل من المنظور.

ولقد أفرغ بسرعة مما يبدو أنه فلسفة لا داعى لها لأقول:

إن مفاجأة التاريخ التى قلت إنها كانت أكبر مفاجآت الحرب هى:

الإنسان العربى العادى وما استطاع أن يعطيه فى الحرب.

إن إسرائيل حسبت أسباب تفوقها طائرة ضد طائرة، ودبابة ضد دبابة، وصاروخًا ضد صاروخ، ثم اعتبرت إن جرد الحساب كان لصالحها.

كان ذلك هو حساب الشكل والتغافل عن المضمون.

حساب المنظور ونسيان غير المنظور.

أو بمعنى أصح نسيان الاعتبار المعنوى... العتبار التاريخى وأثره على عطاء الإنسان العربى فى المعركة الجديدة.

أقول بوضوح أكثر.

إن بطل الحرب الحقيقى هو الإنسان العربى العادى وما كان ولا يزال كامنًا فى أعماقه، إلى جانب ما كان ولا يزال يحمله من السلاح.

ولقد تتبعت تفاصيل كل المعارك على الجبهة المصرية وعلى الجبهةالسورية وخرجت بيقين لم أتزحزح عنه، وهو أن الإنسان العربى العادى كان هو العنصر الجديد فى الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة... الراهنة.

لقد استطاع أحمد وجرجس... عويس ومرقص أن يواجهوا موشيه وحاييم... آرى وافراهام.

إستطاع خريج الهندسة المصرى المجند مثلاً أن يواجه خريج التخنيون - أرقى معاهد التكنولوجيا فى إسرائيل - الإسرائيلى المجند - كلاهما يدير أعقد الأجهزة الإليكترونية ويوجه أشد الأسلحة فتكًا وأكثرها تعقيدًا.

استطاع «الفلاح» المصرى أن يواجه «السابرا» الإسرائيلى - وليد حركة المستعمرات فى إسرائيل - وأكثر من ذلك استطاع أن يضربه.

كان الإنسان العربى، وهذه هى مفجأة التاريخ التى أعنيها، على استعداد لأن يعطى بأكثر مما كان منتظرًا منه، بل بأكثر مما كان منتظرًا بأى مقياس.

ولقد تابعت نماذج لا ينبغى - ولا يحق - لأحد أن يتجاهل عطاءها.

ومثلاً فلقد كان هناك اعتقاد بأن الطيران المصرى ليس كفؤًا للطيران الإسرائيلى ولكن بعض ما حدث كان لا يصدق ولا يمكن تفسيره إلا على ضوء غير المنظور من أثر العمق التاريخى.

كيف يمكن مثلاً تفسير أن بعض الطيارين قاموا بست وسبع طلعات فى يوم واحد؟

كيف يمكن تفسير حقيقة أن طيارًا مصريًا يقود طائرة من طراز ميج ١٧ استطاع أن يهاجم وأن يسقط طائرة إسرائيلية من طراز ميراج . . . والميراج أقوى من الميج ١٧ بغير جدال، وإذن فإن الفارق كان فى الإنسان الحى ولم يكن فى آلة الحرب؟

ولقد قال لى بعض من سألت من الخبراء العارفين:

- إن الطيارين كانوا يحسون أن هناك من وضعوا جزءًا كبيرًا من نكسة سنة ١٩٦٧ على عاتق الطيران والضربة الأولى التى أصابته صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ . . . ولقد أرادوا هذه المرة أن يثبتوا - برغم كل شىء - إنهم على استعداد للمواجهة مهما كان الثمن».

ولم يكن هذا التفسير كافيًا لإقناعى. ولعلى أعترف أن طيارًا إسرائيليًا أسيرًا أعطى إجابة أكثر قدرة على الإقناع.

كان الطيار الإسرائيلى ضمن تشكيل أغار على قاعدة من القواعد الجوية المصرية

فى الدلتا، وأصابت وسائل الدفاع الجوى المصرى طائرته بصاروخ وقفز هو بالمظلة، بينما هوت طائرته محترقة على أحد الحقول الخضراء.

ونزل بالمظلة ليجد كمينًا فى انتظارة قام بأسره ودخل به إلى القاعدة الجوية التى جاء لمهاجمتها.

وتصادف وقتها أن قائد الطيران المصرى بنفسه كان في القاعدة ، وأتيحت له الفرصة ليرى الهجوم الإسرائيلى ويتابع نتائجه، وحين عرف أن أحد المهاجمين من طيارى العدو قد وصل إلى القاعدة أسيرًا فإنه طلب أن يراه.

وقال القائد المصرى للطيار الإسرائيلى الأسير:

ـ إننى رأيت هجوم تشكيلك على هذه القاعدة الجوية، ولم يكن مستواكم فى الهجوم كما توقعت».

وإستطرد القائد المصرى يقول:

ـ كنا نظنكم أكفأ من هذا... ماذا حدث لكم... هل تغيرتم ؟».

ونطق الطيار الإسرائيلى الأسير ـ نطق بالحكمة كلها ـ قائلا بالحرف:

ـ سيدى... أنتم الذين تغيرتم !!».

....

....

....

٤ ـ لقد كانت النتائج المحققة للمرحلة الأولى من الحرب... الأيام العشرة الأولى من الحرب، وحين كان العرب وإسرائيل وجها لوجه، مباشرة، وبقوة كل منهما بمفرده على النحو التالى:

فقد الجيش الإسرائيلى نصف قوته المدرعة [٩٠٠ دبابة].

فقد الجيش الإسرائيلى أكثر من ثلث قوته الجوية [١٧٠ طائرة].

فقد الجيش الإسرائيلى من ضباطه وجنوده قرابة سبعة آلاف قتيل وأكثر من عشرين ألف جريح إلى جانب مئات من الأسرى.

[ويلاحظ هنا أننى أتحدث عن التقديرات الدولية المحايدة لخسائر إسرائيل وأترك جانبا تقديراتنا كلها مهما كانت مصادرها].

محصلة ذلك فيما هو غير منظور وهو فى رأيى أهم من المنظور أن:

● المؤسسة العسكرية الإسرائيلية - وهى عز إسرائيل وفخرها - فقدت هيبتها.

● حدث انكسار فى الثقة بين المؤسسة العسكرية والمؤسسة السياسية فى إسرائيل.

● حدث اهتزاز فى العلاقة ما بين القمة والقاعدة فى إسرائيل.

● تأثرت بغير جدال صورة إسرائيل العامة فى العالم، وكانت تبثها على أساس أنها تكاد تكون «قوة عظمى إقليمية» إذا جاز هذا التعبير!

* * *

هذه لمحات قد تعطى صورة جمالية لشكل المرحلة الأولى... الأيام العشرة الأولى من الحرب، وقت أن كان العرب وإسرائيل وجها لوجه، مباشرة، وبقوة كل منهما بمفرده.

ولا بد لى أن أضيف شيئا آخر لكى تكون المسائل فى حدودها الحقيقية وفى أحجامها الطبيعية.

أريد أن أضيف أنه قرب نهاية المرحلة الأولى... قرب نهاية هذه الأيام العشرة الأولى من الحرب - فإن القيادة فى إسرائيل، سياسية وعسكرية، تمكنت من استعادة توازنها، وعادت إلى السيطرة على أدوات قوتها، خصوصا بإتمام حالة التعبئة العامة إلى حدودها القصوى.

بدأت تتصرف بعقل..

وبدأت خططها تتحرك بكفاءة.

وراح ذلك يظهر فى ميدان القتال.

وهذا شىء لابد أن نعترف به إذا كنا لا نريد أن نخدع أنفسنا مع العلم بأننا لانسطيع فيها أن نخدع غيرنا!

لكن ما حدث قبل ذلك... كان قد حدث، ولم يعد فى مقدور شخص أو شىء أن يلغى آثاره:

١ ـ استراتيجية إسرائيل القائمة على الإحساس بالتفوق المطلق... مضروبة.

٢ ـ صدمة القرار بقبول التحدى وما يعنيه ذلك نفسيا وفنيا.. قائمة.

٣ ـ مفاجأة التاريخ... أكدت نفسها.

٤ ـ خسائر إسرائيل فى المنظور وفى غير المنظور... حقائق.

وكنت أتحدث وفق هذا المنطق مع أحد سفراء الدول الغربية الكبرى فى القاهرة وقال لى:

ـ إنك فيما كتبت أحيانا كنت تحذر من تجميد الحوادث عند لحظة معينة يكون عليها القياس واستخلاص النتائج... كنت تقول بأنه لا يمكن تجميد لحظة معينة لأن الحوادث مستمرة.

وأريد أن أسألك: ألم يكن من شأن عودة العقل والكفاءة إلى التصرفات الإسرائيلية بعد المفاجآت والصدمات الأولى أن يحدث أثرا بعيدًا على ميدان القتال وتطورات الصراع فيه؟

إننى أسألك... لا لأننى أعترض على سياق منطقك ـ فأنا أوافق عليه فى جملته ـ وإنما أسألك لكى نصل معا إلى تحديد مشترك».

وقلت:

ـ لقد حذرت دائما ـ وما زلت أحذر ـ من تجميد الحوادث عند لحظة معينة لأن الحوادث ببساطة لا يمكن تجميدها.

لكن علينا أن نفرق هنا بين شيئين:

التداعى الطبيعى لموقف معين ... وبقوة عناصره الذاتية.

ثم الحقن الصناعى لموقف من المواقف ... وبما هو خارج عن نطاق عناصره الذاتية.

وإذا أردنا أن نطبق ذلك على الواقع فإنى أقول:

ـ إننا فى المرحلة الأولى ... الأيام العشرة الأولى من الحرب دمرنا من قوة إسرائيل المنظورة غير المنظورة بأكثر مما كانت تستطيع التغلب عليه بقوة ما لديها ذاتيا.

لست أقول إنه كان فى استطاعتنا توجيه ضربة قاضية لها ـ إذا جاز لى استعمال تعبيرات الرياضة فى الملاكمة مثلا.

لكنى أقول إنه مهما كان ما تفعله أو ما تقدر أن تفعله، فلقد كان بعيدا عليها أن تهزمنا ... ولقد أقول بغير تجاوز إننا فى هذه المرحلة من لعبة الحرب هزمناها ... ليس بالضربة القاضية ولكن بالنقط!

وأريد أن تعرف أن الذى هزمناه بالنقط فى هذه المرحلة من الحرب لم يكن دولة، ولا كان جيشا، وإنما كان فلسفة ونظرية ... فلسفة ونظرية الأمن فى إسرائيل هذه هى النقطة الساخنة فى الصراع وسوف أظل ـ وفى غير عناد ـ مصمما على أنها بؤرته الحقيقية!».

* * *

ماذا حدث فى المرحلة الثانية ... الأيام العشرة الأخيرة من الحرب؟

لقد تحركت الموازين الدولية عند القمة.

دخلت الولايات المتحدة بكل ثقلها لنجدة إسرائيل.

وجاء الاتحاد السوفيتى ليقف بجانب أصدقائه العرب.

ولا بد أن نلاحظ هنا فارقين:

١ - من ناحية كانت الولايات المتحدة تلقى بكل ثقلها إلى جانب استمرار احتلال إسرائيل للأراضى العربية بعد سنة ١٩٦٧ - أما الاتحاد السوفيتى فقد كان يقف بجوار حق أصدقائه العرب فى تحرير أراضيهم المحتلة بعد سنة ١٩٦٧.

٢ - إن الولايات المتحدة بالجسر الجوى والبحرى الذى أقامته لإمداد إسرائيل كانت تعطى لإسرائيل مددا جديدا - لم تكن إسرائيل نفسها تظن أنها سوف تحتاجه يوما. وأما الاتحاد السوفيتى فإنه - بالجسر الجوى والبحرى الذى أقامه لإمداد أصدقائه العرب - كان ينفذ بسرعة وبأمانة عقودا سابقة كان العرب قد أحسوا بحاجتهم إلى ما فيها وطلبوها فعلا وتعاقدوا عليها ونشبت الحرب قبل وصولها.

□

نعود إلى السؤال الذى يعنينا هنا:

- ماذا حدث فى هذه المرحلة الثانية ... هذه الأيام العشرة الأخيرة من الحرب؟

إن ساحة الصراع تغيرت ... لم يعد هناك طرفان فيه ولكن أربعة.

لم يعد هناك العرب وإسرائيل وحدهما وإنما نزل إلى الساحة الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية.

أصبح الصراع دائرا على مستويين:

- صدام إقليمى بالسلاح فى الشرق الأوسط.
- واحتمال صدام عالمى عند القمة الدولية بين القوتين الأعظم.

ونتيجة لذلك فقد تغير شكل اللعبة وتغيرت قواعدها لكن الحقائق التى كانت قد فرضت نفسها على ساحة الصراع قبل هذا التطور لم يكن ممكنا خلعها أو نسيانها...

إن التحركات الجديدة فى اللعبة كانت تجرى من حولها.

وأصبح المشهد العام للمسرح كله مزدحما أكثر... معقدا أكثر.

وتلك كلها موضوعات سوف أعود إليها بالتفصيل وإن كنت أفضل هذه اللحظة أن أعود إلى حيث بدأت هذا الحديث بثلاثة تصريحات إسرائيلية لجولدا مائير ولدافيد إليعازر ولحاييم هرتزوج.

* * *

وإذا عدت لهذه التصريحات الثلاثة فما هو تعليقى عليها بعد كل ما قلت؟

تعليقى كما يلى:

١ ـ لم يكن فى وسع إسرائيل أن تحرز انتصارا حاسما علينا ولا كانت هناك ثمرة على الشجرة.

٢ ـ إذا كانت إسرائيل قد عوضت خسائرها وزيادة، فى المنظور أى فى عدد الطائرات والدبابات والمدافع ـ وذلك بفضل المدد الأمريكى المتدفق عليها ـ فليس لها أن تشكو أو تتململ إذا كان الذى أعطاها جرعة القوة الجديدة المضافة تعويضا ونجدة ـ هو الذى يحاول وضع خط لحدود استعمالها.

٣ ـ إن الولايات المتحدة الأمريكية إذا كانت قد وضعت خطا لحدود استعمال ما أعطته لإسرائيل تعويضا ونجدة ـ فإن ذلك لم يحدث محبة فى العرب ولكن حسابا لموازين أخرى على القمة الدولية.

أخلص من ذلك إلى حقيقة أريد إثباتها ظاهرة لكى لا نخطئ وهى:

أن هذه التصريحات الإسرائيلية الثلاثة لا تعكس مقدرة إسرائيلية أرغمت على

التوقف فى منتصف الطريق بقدر ما تعكس نوايا إسرائيلية يراودها الإغراء بأن تفلت وتتجاوز الحد المرسوم لها».

□

بوضوح أكثر فإن الذى أفهمه من قراءة واستقراء هذه التصريحات الإسرائيلية الثلاثة كما يلى:

١ - إن إسرائيل ليست راضية عن نتيجة الحرب حتى الآن لأنها فقدت فيها سواء من المنظور أو غير المنظور ما يفوق تحملها العملى والعصبى.

٢ - إن الحكم القائم فى إسرائيل الآن قد تساوره غوايات أن يفلت من أى قيد وأن يتحرك حتى وإن كانت حركته ستؤدى إلى فتح الباب أمام الطوفان... ليجىء الطوفان وسوف تجد إسرائيل أصدقاء لها يهرعون لإنقاذها قبل اللحظة الأخيرة ويحملونها فى سفينة نيكسون التى تتصورها إسرائيل أكبر وأقوى من سفينة نوح!

٣ - إن الضغوط الداخلية قد تشتد وقد تجنح المؤسسة العسكرية الإسرائيلية إلى مد يدها لتحالف جحال اليمينى المتطرف وتفرض بذلك حكومة ائتلافية فى إسرائيل - يمكن معها تأجيل الانتخابات العامة وهى على الأبواب لظرف آخر - مع التفرغ الآن لتصحيح الأوضاع على هوى إسرائيل تماما فى ميدان القتال.

وفى هذه الحالة فإن احتمال المغامرة الإسرائيلية قد يكون أكثر تجاوزا وإصرارا.

* * *

ولقد حاولت عرض صورة لميدان الصراع والذى جرى فيه والمحتمل بعده، ولعلى أبدى بعض ملاحظات شخصية:

١ - لم أقصد بكل ما قلت أن أبرر شيئا... ليس ذلك شأنى ولا هو دورى.

٢ - لا أريد أن أغطى على شىء لأنى أعتقد حتى الآن أن ما فى يدنا كثير.

٣ ـ لا أستطيع أن أنكر أننا لم نستعمل بعض ما لدينا فى اللحظة المناسبة فى المكان المناسب.

٤ ـ لا أرضى بالمنطق الذى يقول إنه لو لم نفعل شيئا غير عملية اقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف ـ لكفانا فى هذه المرحلة لأنى واحد من الذين يؤمنون بقاعدة أن «من لا يتقدم هو فى الحقيقة يتراجع».

* * *

ثم أقول فى النهاية:

ـ من هذا كله فإن يقينى ما زال كما عبرت عنه:

عودتنا إلى ميدان القتال أقرب فى ظنى من ذهابنا إلى مؤتمر للسلام.

ما زال السلام بعيدا... بعيدا... بعيدا جدا.

....

....

عن السلام الحقيقى أتكلم!».

سؤال ثالث
الدور الأمريكى.. قيمته وقدرته
وكيف يمكن اختبار الاثنتين معا؟!

٤ نوفمبر ١٩٧٣

هناك سؤال لابد أن نسأله لأنفسنا، وعلى وجه اليقين فإن هذا السؤال مثار على كل مستويات الحوار فى مصر وفى العالم العربي كله.

وموضوع السؤال هو: موقف الولايات المتحدة الأمريكية منا، وموقفنا نحن من الولايات المتحدة الأمريكية...

... كونها السند الرئيسى - وربما الوحيد - لإسرائيل فى معركتها الدائرة الآن ضدنا، وكوننا قبلنا بفتح جسر للاتصال معها، مع استمرار المعركة الدائرة الآن ضدنا.

هل ذلك معقول؟... هل هو مقبول؟... أو ماذا؟!».

□

ومن الدواعى التى تسبب الحيرة فى موقف الولايات المتحدة الأمريكية منا، وموقفنا نحن من الولايات المتحدة الأمريكية، هو ذلك الاختلاف الشديد فى رد فعلنا ضد الولايات المتحدة فيما ساندت به إسرائيل فى معارك سنة ١٩٦٧، ورد فعلنا ضد الولايات المتحدة فيما ساندت به إسرائيل فى معارك سنة ١٩٧٣.

سنة ١٩٦٧، كان رد فعلنا ضد الولايات المتحدة عنيفا.

وسنة ١٩٧٣، فإن رد فعلنا ضد الولايات المتحدة هادئ ـ حتى الآن على الأقل.

وذلك على الرغم من أن مساعدات الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل سنة ١٩٦٧، كانت مساعدات خفية، أحسسنا بها ولم نجد دليلا قاطعا عليها، وأما فى سنة ١٩٧٣، فإن المساعدات الأمريكية ظاهرة أمامنا لا يحاول أحد إخفاءها ولا حتى الولايات المتحدة.

وذلك يمكن تعليله، ففى سنة ١٩٦٧، كانت الجهة التى تتولى تقديم المساعدات لإسرائيل هى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأما فى سنة ١٩٧٣، فإن البيت الأبيض تقدم بنفسه لهذه المهمة، وكان الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون هو الذى وضع توقيعه على مشروع قانون بعث به إلى الكونجرس الأمريكى لإقرار مساعدات عسكرية لإسرائيل قيمتها ألفان وثلاثمائة مليون دولار!

هذا هو السؤال المثير بكل مفارقاته وملحقاته.

وهذه فيما يلي محاولة لا تستهدف الرد عليه، ولكنها اشتراك فى المناقشة الدائرة من حوله.

* * *

ولقد أبدأ بتعليق عام يمس الشكل أكثر مما يمس صميم الموضوع، وفى هذا التعليق العام فإننى أبدى الملاحظات التالية:

١ ـ حسن، إن رد فعلنا ضد الولايات المتحدة فيما ساعدت إسرائيل به، لم يكن عنيفا بالطريقة التقليدية، أى طريقة الهياج الهستيرى ينفس عن مشاعره بالغضب ولا يحول غضبه إلى فعل مضاد.

٢ ـ حسن، إن الهياج الهستيرى لم يتملكنا، وإلا لكان ذلك اعترافا منا أمام العالم بأننا فوجئنا بما لم يكن فى حسابنا، وذلك ليس منطقيا، فلقد كان أول ما يتحتم علينا أن نضعه فى اعتبارنا هو أن الولايات المتحدة سوف تهرع لمساعدة إسرائيل... وقد كان.

٣ - حسن، إن أية انفعالات إنسانية - ولو بغير هياج - لم تحجب عنا ضرورة أن تبقى قضيتنا الكبرى بعيدة عن مأزق الاستقطاب الحاد ومخاطره فى الحياة الدولية.

ثم أنتقل بعد ذلك إلى صميم الموضوع الذى أقترح تناوله فى ثلاثة أجزاء محددة على النحو التالى:

الجزء الأول: «نحن وأمريكا بصفة عامة».

الجزء الثانى: «تحفظات على الوضع الأمريكى الراهن».

الجزء الثالث: «اختبار للقدرة، بصرف النظر عن النوايا».

* * *

■ ■ ■ فى الجزء الأول: وعن «نحن وأمريكا» فإنى أريد أن أقول ما يلى:

١ - لقد كان رأيى باستمرار، وما زال، هو ضرورة تحييد أمريكا - أو على الأقل محاولة ذلك - وتحييد أمريكا لا يكون باسترضائها، ولكن بالضغط عليها إلى أقصى ما نستطيع لتحديد مجال الضرر الذى تستطيع إلحاقه بنا بواسطة ماتقدمه إلى إسرائيل.

٢ - لقد كان رأيى باستمرار، وما زال، هو أننا يجب أن نفتح بابا على الولايات المتحدة لسبب واضح، هو أننا فى عصر لم يعد ممكنا فيه أن تسوى أية مشكلة عالمية فى غيبة من القوتين الأعظم: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، لأنهم معا ركيزة النظام العالمى الراهن المتمثل فى الأمم المتحدة، وذلك ما فعلته فيتنام الشمالية... وذلك ما فعلته الصين الشعبية، وذلك ما كان يجب أن نفعله وقد فعلناه.

٣ - لقد كان رأيى باستمرار، وما زال، هو أننا فى أزمة الشرق الأوسط بالذات لانستطيع على الإطلاق أن نتجاهل دور أمريكا، لأنها تكاد تكون - ولا أقول إنها بالضبط - طرفا مباشرا فى الأزمة، بحكم مدى وحجم التزامها تجاه إسرائيل.

ذلك رأيي، وقد قلته من قبل، وعدت إلى إثباته الآن مرة أخرى كموقف عام، أخطو بعده إلى الجزء الثاني الذي وصفته بأنه «تحفظات على الوضع الأمريكي الراهن».

* * *

■ ■ ■ في هذا الجزء الثاني: «تحفظات على الوضع الأمريكي الراهن»، فإني - مع عدم الإخلال بما سبق كله - لا أستطيع الاطمئنان إلى صدق وقيمة الدور الأمريكي في الأزمة الحالية، وأسبابي في ذلك كما يلي:

١ - إذا كنت قد قلت إن مسارعة أمريكا إلى مساعدة إسرائيل لم يكن فيها عنصر المفاجأة، لأنها مسألة متوقعة، فلا بد أن أضيف أن الطريقة التي جرت بها المسارعة إلى المساعدة كانت مزعجة، ذلك أن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون أعطى لإسرائيل من السلاح في دفعة واحدة بأكثر مما أعطاها في طول مدة رئاسته كلها. ومع العلم بأن ما حصلت عليه إسرائيل في مدة رئاسته وحدها يزيد على كل ما حصلت عليه إسرائيل في مدة ولاية أربعة رؤساء سبقوه منذ قيام إسرائيل وهم: «هاري ترومان» و «دوايت إيزنهاور» و «جون كيندي» و«ليندون جونسون».

٢ - والمشكلة أن المسارعة للمساعدة بهذه الطريقة لم تكن صادرة عن قوة الرئيس الأمريكي، وإنما كانت صادرة عن ضعفه، أعني أن المسارعة للمساعدة بهذه الطريقة لم تعكس اقتناع الرئيس الأمريكي، بقدر ما عكست رغبته في استرضاء جماعات الضغط في المجتمع الأمريكي.

٣ - إن قوة إسرائيل الكامنة في المجتمع الأمريكي تتمثل بالدرجة الأولى في جماعات الضغط المؤثرة على الكونجرس الأمريكي، وعلى الصحافة، وعلى مراكز التأثير الاقتصادي والثقافي والإعلامي. وبالتالي قدرتها على توجيه الرأي العام الأمريكي.

ودور جماعات الضغط يقل إذا كان في وسع الرئيس الأمريكي أن يقود.

فإذا كان الرئيس الأمريكى عاجزا، فإن جماعات الضغط هى التى تقود.

٤ - إن الرئيس الأمريكى، وبالذات بسبب فضيحة ووترجيت، فى موقف بالغ الضعف، بل إن هذه الفضيحة لم تؤثر على الرئيس الأمريكى الحالى فحسب، ولكنها أثرت بطريقة مخيفة على هيبة منصب الرئاسة كله.

والرئيس الأمريكى، والحال كذلك، مشغول بالدفاع عن نفسه شخصيا، أكثر من انشغاله بالدفاع عن المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة، وهذه واحدة من مآسى هذه القوة العظمى التى تلعب دورا رئيسيا فى حياة العالم المعاصر، ومع ذلك يكاد يصدق عليها وصف «جورج برنارد شو» لها، بأنها «الإمبراطورية الوحيدة التى انتقلت من مرحلة الهمجية إلى مرحلة الانحلال دون مرور بعصر من الحضارة».

٥ - إن نوعية الزعامة الأمريكية الحالية المتمثلة فى شخص الرئيس ريتشارد نيكسون مثيرة لكل الشكوك، فالرئيس متهم فى وطنه بالتدخل ضد العدالة فى قضية ووترجيت وبالكذب المتعمد على المحاكم، وعلى الكونجرس، وبالفساد المالى، وبالاستعمال التحكمى لسلطة منصبه، إلى درجة لم يسبق لها مثيل. وإذا كان ذلك ما هو متهم به فى وطنه فإن من حق أوطان أخرى أن تكون قلقة على أطراف أصابعها خشية من أخلاقيات تناوله لقضاياها.

٦ - إن الرئيس الأمريكى تورط إلى درجة جعلت كثيرين فى الولايات المتحدة يصلون إلى حد الاعتقاد بأنه لم يتورع عن إعلان حالة الطوارئ فى القوة النووية الأمريكية الضاربة، لكى يغطى على تصرفاته فى فضيحة ووترجيت، عندما طرد وزير العدل «اليوت ريتشاردسون» وطرد أيضا «أرشيبالد كوكس» المدعى الخاص الذى عينه بنفسه للإشراف على التحقيق فى فضيحة ووترجيت.

والذين يعتقدون بذلك فى أمريكا، وهم كثيرون، يقولون إن الرئيس الأمريكى انتهز فرصة الاهتمام الأمريكى بحرب الشرق الأوسط، ولحظة معينة فى مسار

هذه الحرب، وأعلن حالة الطوارئ فى القوة النووية الأمريكية الضاربة، بغير مبرر حقيقى يستوجبه ذلك الإجراء.

كانت الاتصالات بينه وبين الاتحاد السوفيتى مستمرة.

وكانت مواقف كل طرف معروفة سلفا للطرف الآخر.

وفجأة اتخذ الرئيس الأمريكى قراره الذى لم يكن هناك مبرر حقيقى له، وعندما وقف وزير خارجيته «الدكتور هنرى كيسنجر» يتحدث عن أزمة الشرق الأوسط، وما جد من تطوراتها، مما استدعى إعلان التعبئة العامة، كان السؤال الملح الذى وجه إليه هو: «هل كان ذلك الإجراء غطاء على بعض التصرفات فى فضيحة ووترجيت»؟.

ولقد كان الاتحاد السوفيتى أكثر من فوجئ بإجراءات الرئيس نيكسون، وكان التعليق السوفيتى على ذلك الإجراء لاذعا، فقد قالت وزارة الخارجية السوفييتية مانصه:

«إذا كان ذلك الإجراء رسالة تحذير.. فقد كان هناك خطأ فى عنوان المرسل إليه كما كتب عليها».

٧ - إن الرئيس الأمريكى اتخذ قراره بالطريقة التى سارع بها إلى مساعدة إسرائيل، مع علمه أن سلاح البترول العربى مشهر فى وجه الولايات المتحدة.

لكن همه لم يكن مصلحة الولايات المتحدة، وإنما كان همه هو مشكلته الداخلية، ولم تكن سياسته أن يقود، وإنما كان فى وضع لا مفر فيه من أن يقاد.

٨ - إن الرئيس الأمريكى فيما اتخذ من قرار، سواء بالمسارعة إلى مساعدة إسرائيل، أو بإعلان حالة الطوارئ في القوة النووية الأمريكية الضاربة، لم يستشر حلفاءه فى أوروبا الغربية.

فى غمرة زحامه بمشكلته الداخلية، نسى الجانب الآخر من الأطلنطي، برغم أن المساعدة العسكرية الأمريكية لإسرائيل مرت فى قواعد كثيرة من قواعد أوروبا

الغربية موجودة للدفاع عن الفضائح الشخصية للرئيس الأمريكى. ثم إن إعلان حالة الطوارئ جرى أيضا فى هذه القواعد فى أوروبا الغربية، وكان مما يدعو للعجب بالنسبة لأوروبا أن تجد نفسها على حافة حرب نووية - مفترضة أو متوقعة - وهى لا تعرف شيئا عنها ولا عن أسبابها ولا عن إجراءاتها التى تمت فوق أراضيها وضد سيادتها.

٩- إن الاتحاد السوفيتى قد يلائمه أن يتعامل مع رئيس أمريكى ضعيف، مشغول بالدفاع عن نفسه فى ووترجيت، أكثر مما هو مشغول بالدفاع عن أمن الغرب على جانبي الأطلنطى، ولكن ذلك بالنسبة إلينا هنا - وفى أزمة الشرق الأوسط بالذات - قضية مختلفة إلى أقصى حد.

١٠ - إننى واحد من الذين يثقون فى علم وكفاءة الدكتور هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الحالى، ولكن السؤال هو:

- «ما هى سلطة هنرى كيسنجر» ؟»

والرد أن سلطته كلها معلقة بسلطة الرئيس الأمريكى وهيبته وهنا نقطة الخطر!

□

وربما خلصت من هذه التحفظات على الوضع الأمريكى الراهن، بالتعبير عن مخاوف، لا ينبغى لها أن تشل تفكيرنا، وإن كان علينا أن نضعها فى حسابنا، وهى كما يلى:

١ - أخشى أن التفكير الأمريكى القديم - حتى مع افتراض القدرة - لم يتغير، ذلك أن إعطاء السلاح لإسرائيل يبرر دائمًا بأنه الوسيلة التى تعطيها طمأنينة أكثر، ومن ثم فإنها تعطيها مرونه أكبر.

وقد أثبتت التجارب مع إسرائيل بطلان هذا المنطق.

إنها لا تحصل على السلاح لكى تطمئن، ولكنها تحصل على السلاح لكى تمارس التهديد به، ولكى تواصل العدوان.

٢ ـ أخشى أن يكون هدفهم في واشنطن هو كسب الوقت وامتصاص التوتر، وذلك حدث بعد مبادرة روجرز سنة ١٩٧٠، التي توقفت معها حرب الاستنزاف.

٣ ـ أخشى في حالة التقدم إلى حل، أن يكون جهد الولايات المتحدة الأمريكية كله موجهًا إلى حل أمريكي، وهو في هذه الظروف لن يكون إلا حلاً إسرائيليًا.

هذه هي مخاوفي وقد عبرت عنها، وأنتقل بعدها إلى الجزء الثالث والأخير من هذا الحديث، وهو «اختبار للقدرة، بصرف النظر عن النوايا».

***

■ ■ ■ وفي هذا الجزء الثالث: « اختبار للقدرة، بصرف النظر عن النوايا»، فإني أريد أن أقول بمنتهى الموضوعية والأمانة ما يلي:

أتمنى أن أكون مخطئًا في تحليل وتقييم الوضع الأمريكي الراهن، وأتمنى أن يثبت الرئيس الأمريكي أن إحساسه بأمن الولايات المتحدة الأمريكية أقوى من إحساسه بضعف مركزه الشخصي، وأتمنى أن يثبت، كما أثبت أيزنهاور في أزمة السويس سنة ١٩٥٦، إنه في خيار بين الأصدقاء وبين المبادئ، فإنه سوف يختار المبادئ.

أتمنى ذلك كله، ولكن المنى لا تتحقق بمجرد التمني!

ومع ذلك نفترض!

نفترض ثم نسأل أنفسنا: أليس من حقنا في هذه اللحظات، وبينما الولايات المتحدة تتقدم لدور رئيسي في أزمة الحرب الجديدة في الشرق الأوسط، وتحاول القيام بدور الحكم ـ أليس من حقنا في هذه اللحظات أن نطلب منها دليلاً على القدرة بصرف النظر عن النية؟.

لنفترض أن نوايا رئيسها أحسن من سوء ظن الآخرين به،

ولنفترض، ولنفترض، ولنفترض، ما شاءت لنا الافتراضات، أليس من حقنا ـ وواجبنا ـ أن نسأل الولايات المتحدة دليلاً على قدرتها؟.

ولكى لا يكون الكلام مجملاً أو مبهمًا، فإن هناك دليلين اثنين فيهما الكفاية هذه اللحظات:

١ - أن تقوم الولايات المتحدة بإقناع إسرائيل بجدية موقفها، وذلك عن طريق إلزامها بالعودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣، وهى الخطوط التى سرى عندها وقف إطلاق النار الذى تقدمت به القوتان الأعظم إلى مجلس الأمن وقبله أطراف الحرب فى الشرق الأوسط جميعهم.

وإذا لم تكن الولايات المتحدة قادرة على إقناع إسرائيل بالعودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر - كما يقول قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ - فكيف إذن تستطيع إقناعها بالعودة إلى خطوط ٤ يونيو سنة ١٩٦٧، كما يقول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، الذى هو أساس قبول وقف إطلاق النار، بغية إيجاد حل فورى للأزمة؟.

إن الكلام فى موضوع الأسرى الإسرائيليين، وفى موضوع فك الحصار البحرى المصرى على باب المندب عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، يصبح مهزلة بغير التمهيد للحديث عنها بالعودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر.

وحتى إذا قيل بأن التنفيذ العملى لقرار العودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر سوف يدخل بنا جميعًا إلى تفاصيل فنية لا نهاية لها، فإن الحل ليس هو القبول بالأمر الواقع الذى استطاعت به إسرائيل فى يومي ٢٢ و ٢٣ أكتوبر أن تحتل من الضفة الغربية لقناة السويس ضعف مساحة الأرض التى تمكنت من احتلالها من ١٥ أكتوبر حين بدأ فتح الثغرة إلى ٢٢ أكتوبر حين صدر قرار وقف إطلاق النار. ولربما يكون الحل الأمثل فى هذه الظروف هو القفز مباشرة إلى مرحلة الفصل بين القوات المتحاربة على أساس بدء الانسحاب الإسرائيل فعلاً من الضفة الغربية لقناة السويس.

أليس ذلك منطقيًا؟.

٢ - أن تقوم الولايات المتحدة بإقناعنا نحن بجدية موقفها، بمعنى أنه إذا لم تفعل إسرائيل ذلك بقدرة الولايات المتحدة عليها، إذن أفلا يحق للطرف العربى أن يطلب

دليلاً آخر، هو بالتأكيد فى قدرة الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك هو وقف إمداد السلاح المتدفق على إسرائيل، أو على الأقل وضع قيد على بعض الأسلحة المتطورة فى هذا الطوفان المتدفق؟.

أليس ذلك منطقيًا ؟!

***

ولست متشددًا أو متعصبًا، كذلك فإنى لا أضع نفسى فى عداد الصقور، ولقد أردت ببساطة أن ألفت النظر إلى ثلاث نقط:

● الإتصال بالولايات المتحدة ضرورى.

●هناك تحفظات لي على الوضع الأمريكي الراهن.

● لابد أن نطالب بأدلة على القدرة إذا كانت الولايات المتحدة تريد القيام بدور الحكم.

ولعلى أضيف فى النهاية أن فى يدنا وسائل للقوة كافية:

١ ـ هناك استعدادنا للعودة إلى ميدان القتال.

٢ ـ وهناك استمرارنا فى التصاعد بكل إمكانيات الضغط العربى إلى مداها.

٣ ـ وهناك حقيقة أن القرار الذى قبلناه كان قرارًا أمريكيًا سوفييتيًا يحمل ضمان الاثنتين تجاه بعضهما إلى جانب ضمان الاتحاد السوفيتى أمامنا.

٤ ـ وهناك تمسكنا بالصداقة مع الاتحاد السوفيتى، وقد كان سلاحه هو ما حاربنا به حتى الآن دفاعًا عن أنفسنا وضد العدوان.

٥ ـ وهناك أوربا الغربية ودولها القائدة التى شعرت أن الولايات المتحدة تتلاعب بأقدارها فى دهاليز السياسة الأمريكية الداخلية ومستنقعاتها.

٦ ـ وهناك نفوذ شعوب العالم التى وقفت معنا بحزم وفى مقدمتها مجموعة الدول غير المنحازة، ومجموعة الدول الأفريقية.

٧ـ وهناك عزلة إسرائيل الرهيبة وهى عزلة لها آثارها الإقليمية ولها آثارها العالمية، ولعلى أقول إنه لم يحدث من قبل ولا أظنه سوف يحدث فيما بعد، إن بلدًا من البلدان وجد أو سوف يجد نفسه فى مثل العزلة المفروضة على إسرائيل الآن.

ولعلى أضيف أن هذه العزلة وما تعنيه ترجح كفة الموازين الإقليمية والعالمية لكى تميل مع الجانب العربى.

□

ثم لقد يفيدنا أن نعرف أن المواجهة طويلة، ثم هى معقدة، ولقد دخلناها فعلاً وليس هناك بديل آخر غير مواصلة الطريق إلى آخره .. أى إلى «هدف نرضاه لأنفسنا» كما قال أنور السادات.

وليس لنا أن نتشاءم بغير سبب.

ولكن ليس لنا أن نتفاءل قبل الأوان!

على الطريق
إلى مؤتمر قمة عربى

٩ نوفمبر ١٩٧٣

يبدو أننا فى الطريق الآن إلى مؤتمر عربى على مستوى القمة...

وكانت الدعوة إلى مثل هذا المؤتمر من قبل حرب أكتوبر، نداء يتردد بالإلحاح أحيانا، وبالدعاء، بل وبالضراعة أحيانا أخرى، استعدادا وتأهبا لما هو قادم، وتحسبا لاحتمالاته - لكن الظروف لم تسمح، ولم يجتمع هذا المؤتمر قبل الحرب، ولم يمارس ما كان لا بد من ممارسته بالحق وبالضرورة معا، وإن كان لابد عدلا وإنصافا أن نقول: إن الاتصالات الثنائية غطت جزءا من الفجوة التى تركها غياب الدور القيادى لمثل هذا المؤتمر.

□

ولعل الأسباب التى حالت دون انعقاد مؤتمر عربى على مستوى القمة قبل حرب أكتوبر - يمكن تلخيصها فيما يلى:

١ - إن أزمة التصديق بين الحكومات العربية وبين الشعوب العربية، كانت مصحوبة وموازية لأزمة تصديق بين الحكومات العربية بعضها البعض.

وكانت هذه الأزمة فى التصديق بين الحكومات والشعوب من ناحية وبين الحكومات وبعضها البعض من ناحية أخرى تشمل المقاصد كما تشمل الأساليب أيضا.

أعنى أن الشك كان يحيط بالأهداف المعلنة، كما أن الشك كان يحيط أيضا بالسياسات المتبعة لتحقيق هذه الأهداف.

وكانت هناك مبررات كثيرة لذلك ليس هذا وقتها، ولكن الأزمة كانت ملموسة ومحسوسة.

٢ - لقد كانت هناك إلى جانب ذلك وساوس وهواجس تتعلق بالمقدرة على الاحتفاظ بسر، وكانت هناك تجارب سابقة تغذى هذه الوساوس والهواجس، لأن أعز الأسرار العربية فى مؤتمرات عربية سابقة وجدت طريقها إلى آخر من كان يجب أن تجد طريقها لهم، ولم يكن ذلك بسوء النية بقدر ما كان بسوء التقدير أو لعلها شهوة الكلام وحب التفاخر والخلط فى المزاج العربى بين تناقل الأساطير وتناقل الأسرار!

٣ - ومن نتيجة الاعتبارين السابقين - فلقد ساد اعتقاد بأنه لابد من حدوث جديد فى الساحة العربية لكى تنجلى أزمة التصديق فى العالم العربى، ثم لكى يشعر الدميع فيه حتى على مستوى القمة أن الأمور جد خطيرة وأن العرب يمكن - بل لا بد - أن يكون لهم سر مكتوم.

وأعترف أننى ذهبت يوما ألح على أنور السادات فى أهمية عقد مؤتمر عربى على مستوى القمة، وكان بين ما قلته له:

- إنك اتخذت القرار بقبول التحدى، وإذن فإن مصر سوف تحارب، ومن شأن ذلك أن يعطيك ويعطى مصر فى المؤتمر قوة لا حدود لها.

لقد كنا دائما نخشى من الذين يزايدون... يتكلمون ولا يفعلون، أو يتكلمون فيما لا يعرفون. وأما بالقرار فإنك ومصر فى موضع مختلف.

ولقد نكسب قوى مضافة للصراع الساخن القادم إذا جعلناها مواجهة عربية شاملة. وقد يصح تأثير هذه القوة المضافة فعالا إذا عرفت كل منها موقعها ورتبت نفسها عليه، واستعدت لأدائه من قبل أن يجىء لحظة الخطر».

وأشهد أن أنور السادات كان هادئ الأعصاب، ولعله كان واقعيا - برغم خيال الشاعر فيه - وكان قوله:

ـ لست مقتنعا بذلك الآن إنهم لن يصدقوا وإذا كنا نحن هنا لا نصدق أنفسنا... فكيف نتصور أن يصدقنا غيرنا حتى ولو كانوا إخوة لنا؟.

لابد أن تندلع الشرارة أولا، وعندما يحدث ذلك فإن الصورة كلها سوف تتغير.

وإذا كنا سوف نفقد شيئا بالإعداد المسبق على مستوى القمة، فإننا نستطيع أن نلحق بما نريد وكما نريد إذا اندلعت الشرارة».

[كانت كلمة «الشرارة» هي الاسم الرمزي الذي اختاره أنور السادات بنفسه لخطة قبول التحدي].

وكان أنور السادات يضيف:

ـ لنأخذ المخاطرة نحن وسوريا، ولنقبل التحدي، ولن تتأخر الأمة العربية، وسوف ترى. وأما قبل الشرارة فلنحاول كل ما نستطيع عن طريق الاتصالات الثنائية».

ثم كان أنور السادات يستدرك:

ـ وبعد ست سنوات من الهزيمة، فإن مشهد مصر في مؤتمر عربي على مستوى القمة سوف لا يكون مقبولا إذا كان قولها: سوف أفعل.

وإذا ذهبت مصر وقالت: ها قد فعلت... إذن فإن صوت مصر لن يكون مقبولا فقط... وإنما مسموع أيضا».

□

ومهما يكن فلعل الحوار بين اجتهادين فيما يتعلق بمؤتمر عربي على مستوى القمة:

اجتهاد يطلبه سابقا «للشرارة».

واجتهاد يطلبه لاحقا «للشرارة»...

لعل هذا الحوار بين الاجتهادين هو نفسه الحوار الأبدى الأزلى بين ما يجب أن يكون وبين ما هو كائن فعلا.

لعله الحوار الأبدى الأزلى بين المثال الواقع.

أو لعله حق حامل القلم بأن يفكر، ثم واجب حامل المسئولية بأن يفكر ويقرر.

* * *

المهم فى هذا كله ما يبدو الآن من أننا فى الطريق إلى مؤتمر عربى على مستوى القمة ترددت الدعوة إليه من قبل حرب أكتوبر، ثم لم تستطع رعود الحرب أن تغطى على العودة إلى طلبه وقد طلبه كل الزعماء العرب تقريبا حتى كان اللقاء الأخير فى القاهرة بين الرئيس أنور السادات والرئيس هوارى، واقترح الرئيس السادات على الرئيس بومدين أن يتولى وتتولى الجزائر مهمة الدعوة إلى هذا المؤتمر واستضافته على أرضها.

□

... هكذا يصبح لازما أن يتحول أى حديث من مجرد توجيه الدعوة إلى هذا المؤتمر - إلى الآفاق الواسعة للمهمة الكبيرة التى تنتظر هذا المؤتمر.

وأتحدث عن المهمة الكبيرة التى تنتظر هذا المؤتمر فأقول مبدئيا ما يلى:

إن هذا المؤتمر العربى على مستوى القمة فى الجزائر لا بد له أن يحمل مسئولية صون التضحيات التى قدمها الإنسان العربى، ومسئولية حماية التصميم الذى أظهرته الأمة العربية وأن يصل بالاثنتين معا إلى هدف يرضاه النضال العربى لنفسه فى هذه المرحلة وظروفها وفى هذا العصر وموازينه.

بمعنى أن هذا المؤتمر يجب أن يتحمل بالتخطيط وبالتنفيذ مهمة تحقيق الانسحاب الكامل من كل الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل بعد ٥ يونيو

١٩٦٧، وكذلك مهمة استعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين وأولها حقه فى تقرير مصيره وبإرادته الحرة.

ومما يضاعف من خطورة المسئولية الملقاة على المؤتمر القادم إنه ينعقد فى ظل معجزتين:

■ **الأولى**: إن الإنسان العربى العادى قد أثبت قدرته كما أكد جوهره.

إن الإنسان العربى أعطى دمه، وكان عطاؤه بالدم هو وحده الذى حول عملية تصورتها إسرائيل مهزلة مؤسفة ليجعل منها بالفعل دراما تاريخية عظيمة.

كانت إسرائيل تتصور أن أى مواجهة عربية بالسلاح ضدها سوف تصبح كارثة عربية تهون إزاءها كل الكوارث السابقات.

ولكن الإنسان العربى بعطاء الدم وحده غطى كل قصور وتجاوز كل خطأ وحول العملية إلى ملحمة لم يستطع العالم - حتى الكاره والحاقد فيه - إلا أن يقف معجبا مبهورا أمامها.

■ **الثانية**: إن الأمة العربية فى وقت امتحان رهيب أثبتت وحدتها وأكدت سلامة المنطلقات التى تقوم عليها هذه الوحدة بصرف النظر عن أية مظاهر مما يصنعه الصراع الاجتماعى التاريخى داخل شعب واحد، أو مما يصنعه اختلاف مراحل التطور بين شعوب متعددة.

ولقد كان هناك كثيرون يشكون - أو ربما يشككون - فى حقيقة وحدة الأمة العربية وكان «للجنرال ديان» رأى مشهور قال فيه:

ـ لا أرى أمامى وحدة عربية ... ربما يحدث ذلك بعد مائة سنة ... ولكن إسرائيل لاتستطيع أن تقيم حسابها بالنظر إلى كرة بللورية ترى فيها المستقبل البعيد».

بل لقد كان هناك تصريح أخير للرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» نزع فيه عن مصر عروبتها بكلمة منه - !! - فقال بالحرف:

ـ إننى لا أعرف أن مصر بلد عربى»!

ولكن الأمة العربية فى وقت امتحان رهيب كذبت كل شك وتشكيك وصدقت نفسها... وصدقت مع نفسها حين أظهرت وأعطت إمكانيات للتأثير على الحوادث... كافية وقادرة.

□

وربما أضفت إلى ما قلت فى هذا الصدد اعتبارا آخر له شأنه فيما يتعلق بمهمة المؤتمر المنتظر والمسئولية الملقاة عليه.

هذا الاعتبار هو أن المنطق عاد إلى أوضاع العمل العربى المشترك.

إن الهزيمة فى سنة ١٩٦٧ أحدثت مضاعفات كان من الصعب إنكارها، ومن هذه المضاعفات ما أثر على الأحجام الطبيعية للكيانات العربية ومن ذلك مثلا أن الهزيمة تضاءلت بحجم مصر الطبيعى وكان ذلك وضعا يصعب معه على أى عربى مشترك أن يعد نفسه لمهمة أو مسئولية.

لكن حرب أكتوبر صححت. وربما كان من ميزات حرب أكتوبر وتجاربها أن مصر استعادت حجمها الطبيعي بل ولقد أضيف أن الأدوار إلى جانب الأحجام برزت لتحقق ذاتها.

برز الدور الجزائرى بما يوازى أهمية الثورة الجزائرية.

وبرز الدور الليبى بما يوازى شباب الثورة الليبية.

وبرز الدور السعودى ـ ودور الكويت ودور أبو ظبى ـ بما يشير إلى أن التقليد له فى أزمات المصير نفس فاعلية التجديد.

وذلك كله يسهل على مؤتمر القمة المنتظر توجيه عطاء الإنسان وتوجيه طاقات الأمة، وكلاهما الآن ليس فرضية تحت الاختبار ـ وإنما حقائق تساعد على التوجه نحو هدف يرضاه النضال العربى لنفسه.

* * *

ولقد نسأل أنفسنا هذه اللحظة:

ـ ما هى المجالات التى يستطيع العمل العربى الموحد أن يتوجه لها الآن ويكون من أثر توجهه لها تعزيز عطاء الإنسان وتأكيد طاقات الأمة؟».

وهنا يطول الحديث لأن هذا السؤال يمس مباشرة جوانب حيوية فى مسار الأزمة التى تصاعدت فأصبحت حربا.

وإذا حاولت أن أختصر فإننى أستعرض المجالات التالية:

■ ■ ■ أولا: هناك في العالم موازين دولية، وقد كانت هذه الموازين الدولية من العوامل التى جمدت أزمة الشرق الأوسط فيما أسميناه «حالة اللاسلم واللاحرب»، وعندما اندلعت النار وذاب الجليد من حول الأزمة وتحولت إلى حرب فإن نفس الموازين حاولت أن تخلق حالة جديدة نستطيع أن نسميها «حالة اللانصر واللاهزيمة».

أى أن هذه الموازين فعلت بالأزمة ما يلى:

فى موقف السكون:

فرضت عليها «حالة اللاسلم واللاحرب».

حاولت أن تفرض عليها «حالة اللانصر واللاهزيمة» وهذا مفهوم.

ولنا أن نتساءل: هل كان فى استطاعه الولايات المتحدة ـ ومن وجهة نظرها ـ أن تسمح لنا بانتصار محقق على إسرائيل.

وما هو أثر مثل ذلك لو أنه حدث؟

● لو أنه حدث، وانكسرت نظرية الأمن الإسرائيلى تماما لأصبح كيان إسرائيل ذاته مهددا مهما جربوا من أساليب التخويف ومهما جربنا نحن من أساليب ضبط النفس.

● ولو أنه حدث، لانقلبت الأوضاع فى الشرق الأوسط رأسا على عقب ولأحس كثيرون أن مصالحهم فيه مهددة.

● ولو أنه حدث، لكان جزءا من الفضل فيه راجعا للسلاح السوفيتى بما يعنيه ذلك كله من ردود فعل على الاستراتيجية العالمية كلها.

وإذن فإن انتصارا عربيا محققا لم يكن فى حدود ما هو مسموح به من وجهة نظر الاستراتيجية العالمية.

وهكذا تقدمت الولايات المتحدة الأمريكية لا لتساعد إسرائيل فحسب، وإنما إلى جانب مساعدة إسرائيل، لكى توقف تداعى موقف وراءه ما وراءه.

وبعد تدخل الولايات المتحدة فلقد أصبح فى وسعها وفى وسع غيرها أن يقولوا:

ـ إنكم عبرتم إلى الشرق من قناة السويس... ولكنهم أيضا عبروا إلى الغرب من قناة السويس... وهنا نتوقف لنقيم ميزانا جديدا.

[وهناك فارق فى الحقيقة بين عبور وعبور، هناك فارق بين العبور المصرى أمام حصون خط بارليف وضد عدو حاول ترسيخ تفوقه، وبين عبور إسرائيل فى خضم معركة وضمن حركة اختراق ممكنة فى مسار الحروب... مع التسليم بأنه لم يكن هناك ما يبرر وقوعها على النحو الذى وقعت به، ولا التأخير فى حصرها وتصفيتها].

وربما كنت واحدا من الذين يعتبرون أن هذه النتيجة ـ برغم ذلك ـ وحتى بمقتضى المعايير الأمريكية هى لصالح العرب أكثر مما هى لصالح إسرائيل، وذلك لسبب واضح:

كنا مهزومين... لم نعد مهزومين... وهذا من وجهة نظرنا ـ ونظر غيرنا ـ صعود إلى أعلى.

وكانوا منتصرين... ولم يعودوا منتصرين... وهذا من وجهة نظرهم ـ ونظر غيرهم ـ هبوط إلى أدنى!

لكننى أسلم بأن هذا الوضع أن يكون خطيرا إذا توقفت الأمور عند هذا الحد وعادت الأمور إلى حالة الجمود مرة أخرى ومضت عليها الشهور والسنون.

....

....

وإذن فإن هنا وبالتحديد مجالا لتأثير عربى جماعى - سياسى اقتصادى معنوى - يضيف إلى نتيجة ما حدث فى ميدان القتال ويميل بالميزان درجة أو درجات إلى الناحية الصحيحة ... ناحيتنا.

ولا تستطيع ذلك دولة عربية بمفردها... وإنما تستطيعه وتملك وسائله أمة عربية بأسرها!

■ ■ ■ ثانيا: إن الأزمة فى تصاعدها ارتفعت بسرعة إلى القمة الدولية، ومست الوفاق بين القوتين الأعظم.

وهذا مفهوم أيضا.

لأن القوتين الأعظم هما موردا السلاح الرئيسى لطرفى النزاع المسلح فى الشرق الأوسط:

الولايات المتحدة مورد السلاح الرئيسى لإسرائيل.

والاتحاد السوفيتى مورد السلاح الرئيسى للعرب.

ولقد كان مقدرًا حتى من قبل أن تبدأ الحرب يوم ٦ أكتوبر أن طرفي النزاع المسلح كليهما: العرب - مصر وسوريا فى هذه الحالة - وإسرائيل، لديهما ما يكفيهما لمواصلة المعارك على هذه الدرجة من العنف والضراوة لفترة لا تزيد على ثلاثة إلى أربعة أسابيع...

فإذا لم يتمكن أحدهما من إحداث نصر ساحق فى هذه الفترة - إذن فإن العودة إلى مصادر السلاح الرئيسية تصبح ولا بديل لها.

ولم يكن مطروحًا أن يستطيع العرب تحقيق نصر ساحق . . . وإنما كان أملهم فى حرب طويلة . . . ممتدة.

ولم تستطع إسرائيل - كما تعودت من قبل - تحقيق نصر ساحق . . . ولقد تصاعدت بالمعارك عنفًا وضراوة واستنفدت ما عندها واستدارت إلى ترسانات الولايات المتحدة الأمريكية.

وهكذا دخلت القوتان الأعظم إلى ساحة الصراع تحاولان وقفه قبل أن تطير منه شرارة تشعل حريقًا أو جحيمًا نوويًا بينهما.

وكان خوف الأطراف المباشرين فى الصراع المسلح: العرب وإسرائيل، أن يكون بين ما تتفق عليه القوتان الأعظم: حظر على تصدير السلاح إلى المنطقة وهذا الاحتمال ما زال قائمًا.

....

....

وإذن فإن هنا وبالتحديد أيضًا مجالاً لتأثير عربى جماعى يحتفظ للقوة العربية بمدد من السلاح لا ينقطع ولا يشمله حظر.

ولقد أتجاسر هنا فأضيف ملاحظة أضعها تحت الاهتمام العام:

ـ لماذا تقبل الأمة العربية بحظر على بيع السلاح لها؟

لنكن واضحين . . . ولندع الحياء والخفر . . . ولندع التردد والخجل جانبًا لكى نقول لكل الأطراف:

ـ نحن نصدر لكم سلعة إستراتيجية وهى البترول . . . وفى مقابلها فإن لنا الحرية فى أن نطلب منكم فى مقابلها سلعًا إستراتيجية هى السلاح فى هذه الظروف.

إننا نبيع لكم ما ترغبون أنتم فى شرائه منا وليس ما نرغب نحن فى بيعه إليكم.

وإذن فإن من حقنا أن نشترى منكم ما نرغب نحن فيه، وليس ما ترغبون أنتم فى بيعه لنا.

حظر بحظر . . . وقيود بقيود».

ولا تستطيع ذلك دولة عربية بمفردها . . . وإنما تستطيعه وتملك وسائله أمة عربية بأسرها. . .

■ ■ ■ **ثالثًا**: إن مشكلة السلام والحرب فى الشرق الأوسط تتعدى حدود المنطقة، ثم إن الاهتمام بها ليس ـ ولا ينبغى أن يكون ـ مقصورًا على القوتين الأعظم ولا بد أن تدخل إلى الساحة أطراف أخرى لها القدرة على التأثير، ومن هذه الأطراف أوربا الغربية التى يتحتم عليها أن تعتبر أمن الشرق الأوسط جزءًا لا يتجزأ من أمن أوربا، ثم إن رخاء الشرق الأوسط جزءًا لا يتجزأ من رخاء أوربا.

ولقد دعا الرئيس الفرنسى جورج بومبيدو إلى مؤتمر قمة لدول السوق الأوربية وسوف يعقد هذا المؤتمر فى الشهر القادم بالدانمارك، والموضوع الأول على رأس جدول أعماله هو أزمة الشرق الأوسط ومخاوف أوربا من تركها للتفاعلات المحلية المتفجرة وحدها أو للضوابط المفروضة من القوتين الأعظم منفردتين.

وفى استطاعة أوربا بغير شك أن تقوم بدور كبير . . . وهى لم تقم به يقينًا حتى الآن مع كل التقدير الكافى للبيان الذى صدر عن المؤتمر الأخير لوزراء خارجية السوق المشتركة.

وهناك مشكلة فى أوربا تقتضى منا علاجًا سليمًا.

عواطف أوربا مع إسرائيل ومصالح أوربا معنا.

وهكذا فإن:

اتجاهات الرأى العام فى أوربا موالية لإسرائيل، ولكن بعض حكومات أوربا تحاول مداراة العرب.

ولقد آن الوقت لجهد بناء، وحازم أيضًا، مع أوربا، وإن كان علينا أن نمارسه بدقة، وبرقة، لكى لا نخسر أرضًا بينما نحن نريد أن نكسب أرضًا.

وربما كان علينا أن نتشاور أكثر مع أوربا، وأن نتحدث إليها ونستمع منها، ونجعلها ترى الحقيقة وتساعدنا بما هو أكثر من الغمغمة بكلمات مجاملة يتصورون أحيانًا إنها تؤثر فى الشرق.

ومنذ أيام ذهب سفير دولة أوربية كبرى ليقابل عربيًا له دوره وقال السفير الأوربى:

ـ إن هناك لغطًا ضد بلادى . . . وهناك من يطالبون بمقاطعتها بتروليًا . . . ولست أعرف ماذا تطلبون منا أكثر من تأكيدنا لكم إننا نؤيد قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢؟».

وقال العربى بهدوء:

ـ إن جامبيا الصغيرة فى أفريقيا تؤيد قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وفوق ذلك فإنها قطعت علاقتها بإسرائيل . . .

وجامبيا ـ سيدي السفير ـ ليست قرة أوربية كبرى!!».

....

....

وإذن فإن هنا وبالتحديد أيضًا مجالاً لتأثير عربى جماعى يجعل البحر الأبيض جسرًا ولا يجعله فاصلاً بين أوربا الشرق والأوسط، ليعرفوا ـ وبمنتهى التواضع ـ إنه لا أمن لهم بدون أمن لنا، ولا رخاء بدون رخاء لنا.

ولا تستطيع ذلك دولة عربية بمفردها . . . وإنما تستطيعه وتملك وسائله أمة عربية بأسرها!

■ ■ ■ **رابعًا**: إن العالم ليس هو القوتين الأعظم وحدهما، ولا هو القوتان

الأعظم مضافًا إليهما أوربا الغربية، وإنما العالم أوسع بكثير، وقد ثبت أنه بالنسبة لنا أوسع بكثير.

ولقد أخص بالذكر أفريقيا . . . ثم أخص بالذكر أيضًا مجموعة الدول غير المنحازة.

إن أفريقيا ومجموعة الدول غير المنحازة هى التى استطاعت تحقيق عزلة إسرائيل بطريقة تكاد تكون كاملة وشاملة ولنا أن نعرف أن هناك بينها من هو معرض للعقاب بسبب وقوفه معنا.

وهنا تواجهنا مهمة مزدوجة:

أن نحتفظ بتأييد الذين أعطونا تأييدهم

ثم أن نثبت أن فى طاقتنا حماية الذين أعطونا تأييدهم.

وإذا سمحنا لتأييد حصلنا عليه أن يصيبه الوهن أو يضعف، وإذا سمحنا لتأييد حصلنا عليه أن يعاقب لهذا السبب - إذن فنحن نعرى أنفسنا من غطاء حصلنا عليه . . بل نكاد نعرى أنفسنا من ملابسنا ذاتها بصرف النظر عن أى غطاء!.

....

....

وإذن فإن هنا وبالتحديد أيضًا مجالاً لتأثير عربى جماعى يحتفظ للعرب بنطاق واسع من التأييد حموا أنفسهم به وعزلوا إسرائيل فى نفس الوقت، ثم هو تأثير عربى يعطى للعرب دور قوة عظمى تملك أن تساعد أصدقاءها وتقدر على حمايتهم.

ولا تستطيع ذلك دولة عربية بمفردها . . . وإنما تستطيعه وتملك وسائله أمة عربية بأسرها!

■ ■ ■ خامسًا: هناك لضمان هذا كله، ولضمان غيره شىء آخر، ولقد فكرت أن أجعل منه نقطة البداية - النقطة الأولى - فى هذه الاحتمالات ولكنى رجحت أن يجىء فى ختامها لكى يمسك بمجمل الاحتمالات كلها.

ذلك الشيء الذى أقصده هو ضمان إستراتيجية عربية موحدة ولعلى أقول ـ بغير تجاوز ـ إن هناك مخاطر على الموقف العربى من الداخل بسبب وقف إطلاق النار بينما الحرب مستمرة.

إن وهج النار يخلق التلاحم فى المواقف ولو بغير تنسيق.

ولكن وقف إطلاق النار قد يفك هذا التلاحم سواء باعتقاد خاطئ بأن المعركة انتهت، أو بتصورات متسرعة ترى أن المعركة ماعت أو جرى تمييعها.

وكلا الأمرين تجاوز. لكنها طبيعة حالة وقف إطلاق النار بعد حالة كثافة إطلاق النار، خصوصاً إذا كانت هناك أطراف قريبة وبعيدة يهمها «فك» هذا التلاحم العربى الذى لمع فجأة فى وهج اللهب!

وفوق ذلك فهناك مسألة أخرى تلك هى أن أمامنا احتمالين لا ثالث لهما:

١ ـ أن نعود إلى ميدان القتال.

٢ ـ أو أن نتوجه إلى مؤتمر سلام.

والعودة إلى ميدان القتال ـ وهى الاحتمال الأول ـ تقتضى إستراتيجية عربية موحدة للحرب.

وإذا قيل إن مثل هذه الإستراتيجية الموحدة كانت صعبة قبل الشرارة، فإنها الآن ضرورة حيوية لا غنى عنها خصوصاً فى ظل ثلاثة اعتبارات:

١ ـ استمرار المدد الأمريكى المتدفق على إسرائيل.

٢ ـ زوال عنصر المفاجأة الذى صاحب قبولنا للتحدى الإسرائيلى يوم ٦ أكتوبر العظيم.

٣ ـ مزاج المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وهى الآن مثل ذئب جريح على استعداد لأن يضع ضراوته كلها فى قضمة واحدة!

ولقد أقول إن إستراتيجية السلام أصعب من إستراتيجية الحرب وأسبابى فى ذلك أيضاً:

١ ـ إن الأمة التى حققت وحدتها أمام الموت يجب ألا تفقد وحدتها أمام الحياة وإلا فإنها مأساة مروعة.

٢ ـ إن السلام ليس هوى دولة عربية واحدة بل يجب أن يكون السلام إرادة أمة عربية صنعته بقوتها الشاملة وبفكرها الواضح يوجه قوتها الشاملة.

٣ ـ ليس هناك سلام يمكن أن تصنعه دولة عربية بمفردها ومثل ذلك لن يكون سلامًا وإنما سوف يكون فخًا تقع فيه وحدها. وليس الفخ سلامًا وإنما هو أسوأ من حالة اللاسلم واللاحرب . . . وهو أصعب من حالة اللانصر واللاهزيمة.

ومثل هذه الدولة لن تكسر وحدة هذه الأمة فحسب، وإنما سوف تعزل نفسها أيضًا.

***

وألخص ما قلت بسرعة فأقول إن العمل العربى يتحتم عليه فى المؤتمر القادم أن يغطى مسافات كبيرة من أرض الأزمة وفى نواح متعددة:

دوليًا: عليه أن يغطى المسافة بين إمكانيات الوفاق بين القوتين الأعظم، وبين ضرورات الأمن العربى.

وإذا واجهتنا القوتان الأعظم بشئ يفرضه الوفاق ونرفضه نحن. فعلينا أن نكون مستعدين.

وإذا أقبل علينا الاتحاد السوفيتى ـ برغم الوفاق وذلك موقفه الآن فعلاً ـ فعلينا أن نكون مستعدين.

وإذا أقبلت علينا الولايات المتحدة وذلك فيما أرى صعب بل هو شبه مستحيل بسبب قوة جماعات الضغط الموالية لإسرائيل من ناحية، وبسبب ضعف موقف الرئيس الأمريكى الحالى إزاءها من ناحية أخرى ـ فعلينا أن نكون مستعدين.

وإذا تحطم الوفاق كله بسبب أزمة الشرق الأوسط ـ وهو ما أستبعده حتى هذه اللحظة رغم كل مظاهر التوتر ـ فعلينا أن نكون مستعدين.

عسكريًا: فإن العمل العربى يتحتم عليه أن يغطى المسافة بين احتمالات أى حظر على السلاح والضرورات الحيوية لحصولنا على ما نحتاج إليه من السلاح.

سياسيًا: فإنه يتحتم على العمل العربى أن يغطى المسافة بين التأييد العالمى الذى حصلنا عليه وبين الضغوط المخيفة التى سوف يتعرض لها أولئك الذين أعطونا تأييدهم.

عربيًا: فإنه لابد للعمل العربى أن يغطى المسافة ما بين لحظة أخذنا فيها إسرائيل بالمفاجأة، وبين لحظة قد تجرب فيها إسرائيل أن تأخذنا بالمفاجأة . . . ثم إن هذا العمل لا بد له أن يغطى المسافة بين إنكار إسرائيل الأعمى لحقوق الشعب الفلسطينى، وبين إصرارنا على أن تخرج حقوق هذا الشعب من ظلام المخيمات إلى نور الشمس.

نفسيًا: وهذا هو التحدى الأعظم للقمة العربية، فإن العمل العربي يتحتم عليه أن يثبت أن القمة العربية جديرة بالقاعدة العربية، وأن الذين يحكمون قادرون على العطاءبنفس النسبة التى أعطى بها المحكومون، ولسوف تكون مسألة خطيرة إذا ثبت أن الإنسان العربى العادى - وهو بطل هذه الحرب حتى الآن - أصلب من الحاكم العربى الذى يمسك بأطراف السلطة، وأن الجيوش التى نفذت الحرب على الخطوط الأمامية كانت أكثر كفاءة من حكومات شاركت فى إدارة الخطوط الخلفية بعيدًا عن ميدان القتال.

وهذه أيضًا مسافة واسعة شاسعة لا بد من تغطيتها لكى يكون هناك انسجام.

ثم لكى يكون هناك سلام يرتفع بقيمة التضحيات ولا يهدرها.

***

وأخيرًا فليتحرك الآن موكبنا على مستوى القمة إلى الجزائر . . . ومعه روح الجولان وروح السويس . . . روح الصدق والتصديق . . .

الحلم .. وتحقيق الحلم

١١ نوفمبر ١٩٧٣

إذا صح، وأظنه صحيحًا حتى الآن، أن مؤتمرًا للسلام سوف يعقد فى جنيف فى بداية الأسبوع الثانى من الشهر القادم، ديسمبر ١٩٧٣ - فإنه لا بد قبل ذلك، فى تقديرى، من أن ينعقد مؤتمر عربى على مستوى القمة لكى يضع إستراتيجية عربية شاملة للمرحلة المقبلة.

وإذا سئلت عن الأسباب التى تدعونى إلى القول بذلك، فإنى أطرح الأسباب التالية:

١ - ما زلت مقتنعًا بما قلته قبل عشرة أيام، من أن السلام بعيد، بعيد، وذلك رغم أن الظروف قد أتاحت لى خلال هذه الفترة أن أقبل دعوة من الدكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية، لحوار ممتد معه، استمر ساعتين ونصف الساعة، من الحادية عشرة مساء يوم الأربعاء إلى الواحدة والنصف صباحًا، ولقد طوفنا بكل الآفاق كما يقولون، والتقت وتباعدت وجهات نظرنا فى عديد من القضايا، وشدت انتباهى فى حديثه وقائع وآراء، ولكنى توقفت طويلاً عندما قال لى بالحرف الواحد.

- ما أطلبه لآن هو الصبر... إننى خائف من الرومانسية العربية... أخشى أن تتصوروا الحل عند أول منحنى من الطريق... واعتقادى أنه تلزمنا فترة ما بين ستة أشهر إلى سنة كاملة حتى نصل إلى بداية شىء معقول».

[ولن أستطرد أكثر من ذلك فى النقل عن الدكتور كيسنجر، وربما أعود إلى حوارنا باستفاضة فى مرة أخرى].

٢ - إننى ما زلت متمسكًا بتحفظاتى على الموقف الأمريكى من الأزمة. ولست أعتقد أن الرئيس الأمريكى الحالى ريتشارد نيكسون، يقدر - حتى لو كان يريد - على مواجهة القوة المنظمة لجماعات الضغط اليهودى والإسرائيلى فى المجتمع الأمريكى، ذلك لأن مركزه ضعيف بسبب فضيحة ووترجيت وأكاد أقول إن جماعات الضغط اليهودى والإسرائيلى تستطيع أن تطول الرئيس الأمريكى فى وضعه الحالى، أكثر مما يستطيع هو أن يطولها مع وضعه الحالى.

٣ - إن لعبة إسرائيل واضحة فيما أرى، وهى فى ظنى تريد أن تكسب وقتًا تتحقق لها فيه عدة أهداف:

تتغلب على الآثار المادية المعنوية للصدمة التى أصابتها يوم ٦ أكتوبر العظيم.

تعيد تنظيم صفوفها وأوضاعها ليوم تكون فيه المفاجأة سلاحًا فى يدها ولا تكون قنبلة فى وجهها.

تنتظر تفكك الموقف العربى الذى صنعته وحدة أمة فى لحظة صعود عرفت فيها هذه الأمة أن الذين يتقبلون الموت هم الذين يستحقون الحياة.

تعاود الهجوم السياسى من جديد فى أوروبا الغربية، مستغلة - ضمن ما يمكن أن تستغله - آثار الضغط بالبترول خصوصًا إذا أخطأ العرب فى حساباتهم فخففوا قبل الدرجة الملائمة، أو زادوا على هذه الدرجة الملائمة.

تستبقى الجيوش العربية المقاتلة فى أوضاعها الراهنة، وهى أوضاع أقل ماتوصف به إنها غير متوازنة من وجهة النظر الاستراتيجية، ومن ثم فإن هذه الجيوش - كما تتمنى إسرائيل - ربما تفقد على الأقل روح ٦ أكتوبر وجسارتها، ونبلها.

وهكذا فإنى أتوقع أن تخرج إسرائيل بالعجائب كلها فى الأسابيع والشهور

القادمة، ولن يكون المسرح لذلك هو مؤتمر السلام وحده، وإنما سوف تكون المنطقة والعالم كله مسرحًا لهذه العجائب من المطالب المستحيلة والمسالك الفرعية والتعقيدات الإجرائية والموضوعية، وما يخطر أو لا يخطر على أى بال.

والمقصود كله: كسب الوقت لنفسها... قتل الوقت لأعدائها!

٤ - إن الصراع المسلح فى الشرق الأوسط، لم يصبح صراعًا محليًا، وإنما تصاعد هذا الصراع بسرعة فأصبح صراعًا عالميًا، وإن لم يكن مسلحًا. وحجم الصراع على هذا النحو أكبر من أن تواجهه دولة عربية بمفردها، خصوصًا أمام حقائق هذا العصر الكبرى، وأهمها حقيقة الوفاق بين القوتين الأعظم.

٥ - إن الأسلحة التي تقاتل هذا الصراع على الناحية العربية ليست سلاحًا واحدًا يملكه شعب واحد من شعوب الأمة العربية. وإذا كان عبء الاحتكام إلى النار فى هذا الصراع قد وقع بالدرجة الأولى على كتفى مصر وسوريا - فإن هناك أسلحة أخرى لا تقل في فاعليتها عن النار تؤدى الآن دورها فى الصراع باقتدار، وأهمها سلاح البترول، هو سلاح لا تملك مفاتيحه مصر أو سوريا، وإنما مفاتيحه فى السعودية والكويت وأبو ظبى وليبيا والجزائر، وبعض هذه الدول لم يكن بترولها فقط فى الصراع، وإنما كان هناك قبله سلاحها، وبالذات سلاح ليبيا والجزائر.

إن نتيجة هذا الصراع لن يقتصر تأثيرها على حدود الدول التى فتحت فوهات نيران المدافع أو حبست فوهات آبار البترول - وإنما نتيجة هذا الصراع سوف تشمل حاضر أمة بأسرها، وتحدد لها مكانها على خريطة العالم والعصر، سواء فيما يتعلق بالمكانة، أو فيما يتعلق بالكرامة.

إن المناخ العام الذى ولده هذا الصراع على الأرض العربية قد خلق فرصة لن تتاح لنا بسهولة مرة أخرى لتحقيق أمل عزيز كان فى أحلام وخواطر كثيرين من الذين رأوا أن الأرض العربية مهياة لظهور قوة عظمى جديدة تشارك بنصيب إيجابى وخلاق فى توجيه أمور دنياها.

وليس شرطًا لتحقيق ذلك أن تتم الوحدة الدستورية بين شعوب الأمة

العربية، وإنما يكفى أن تتحقق لها فى هذه المرحلة إرادة الوحدة... وحدة العمل على الأقل.

والتجربة المشتركة فى هذا الصراع الكبير، وما أثبتته وأكدته هذه التجربة المشتركة من الإمكانيات الهائلة لوحدة العمل العربى - هى بمثابة لحظة ثورية لا بد أن نمسك بها.

ولقد نتذكر أنه ليس هناك فى التاريخ شخص ثورى، وإنما هناك فى التاريخ لحظة ثورية، وإذا استطاع أصحاب هذه اللحظة أن يلحقوا بها، وأن يمسكوها، فإنهم يتمكنون من القفز واختصار مراحل طويلة من التطور البطىء... التقليدى والرتيب.

* * *

وإذا كانت هذه الأسباب معقولة، وبالتالى مقبولة، فإننا لا بد أن ننتقل من الحديث عن الضرورات التى تدعو إلى عقد مؤتمر عربى على مستوى القمة - إلى الحديث عن أسلوب العمل لتحقيق المهام التى تنتظر هذا المؤتمر، ذلك أن هذا المؤتمر، يختلف اختلافًا جذريًا عن أى مؤتمر عربى سبقه من قبل، سواء عند القمة أو دونها، والسبب أن هذا المؤتمر المنتظر هو أول مؤتمر ينعقد فى ظل قدرة عربية، ولا ينعقد فى ظل عجز عربى وكان اليأس باستمرار سابقًا لكل المؤتمرات العربية ولا حقًا لها، وفى هذ المؤتمر، فإن الأمل سابق، وربما كان فى استطاعتنا - أن نجعل الأمل فى هذا المؤتمر سابقًا ولاحقًا.

وهذا فارق كبير فى الحقائق المؤكدة، وفى الأجواء السائدة.

□

ولقد كانت هناك عمليات تمهيد ضرورية لهذا المؤتمر، بعضها تم فعلاً وبعضها ينتظر المحاولة لكى تكون الأرض مستعدة مهيأة لما هو قادم.

كانت هناك اتصالات ضرورية بين مصر وسوريا، بعد تجربة القتال

وملابساتها ودوروسها، وقد اجتمع أنور السادات وحافظ الأسد لهذا الغرض بالفعل فى مطار الكويت ودام حديثهما سبع ساعات طيبة.

ثم كانت هناك اتصالات ضرورية بين دول الحزام الأول - خط المواجهة المباشرة - وبين دول الحزام الثانى - خط الدول المساندة - وقد جرت اتصالات كثيرة فى هذا النطاق، وشارك فيها أنور السادات وهوارى بومدين ومعمر القذافى.

ولا يزال هناك - فى ظنى - اتصال آخر ضرورى يتوجه إلى العراق، ومع إنى مثل كثيرين غيرى - من الذين عجزوا عن رؤية أو فهم وجهة نظر حكومة العراق فى قرارها بسحب قواتها من سوريا بعد توقف إطلا ق النار - ألا إننى - وكثيرين غيرى - ما زلنا نرى أنه لابد من علاج لحساسيات الحكم فى بغداد، لأن هذا البلد العربى الكبير له دوره فى الصراع، ولا أظنه يريد أن يتخلى عنه، كما لا أظن أن أحدًا يريد أن يحجبه عنه..

* * *

وإذا كان بعض ذلك قد تم فعلاً، وبعضه الآخر واجب التمام، فإننا نخطو بعد ذلك خطوة إلى مجموعة من الاعتبارات لابد أن تكون فى ذاكرة الجميع وهم يضعون أوراقهم فى حقائبهم قاصدين إلى مقر انعقاد المؤتمر، ولقد ألخص هذه الاعتبارات فيما يلى:

١ - إن مصر قد استعادت حجمها الطبيعى فى العمل العربى المشترك، وحجم مصر الطبيعى يعطيها الحق فى أن تقود.

وهنا نقطة لابد أن يلاحظها الكل وهى أنه:

ليس معنى أن تقود مصر... أن تحتكر مصر.

إن قيادة عمل مشترك ليست احتكارًا للقرار فيه، وإنما القيادة عطاء، وبدون استعلاء.

ولقد أعطت مصر بالفكر وبالعمل، وبشجاعة وسخاء - الاثنين معًا.

٢ - إن الدول العربية التى يجمعها عمل مشترك متساوية فى الحقوق، ولكنها ليست متساوية فى الواجبات.

ومؤدى ذلك أن حقوق سلطان عمان مثلاً قد تكون مساوية لحقوق رئيس الجزائر، ولكن واجبات رئيس الجزائر أكبر، وبالتالى فإن مسئولياته أكثر، وذلك يعطيه دورًا خاصًا، وإن كان لا يعطيه امتيازًا خاصًا.

ومعنى ذلك أن الدول العربية يجب عليها مقدمًا أن تعرف أن هناك تفاوتًا فى الأدوار، وليس ذلك أن ينشئ أية حساسيات، فالعمل المشترك بين شعوب غيرنا يخلق نفس الأوضاع.

وعلى سبيل المثال فإن وضع فرنسا فى مجموعة السوق الأوروبية المشتركة ليس هو بالضبط وضع لوكسمبورج... أو وضع بلجيكا التى أصبحت عاصمتها بروكسل عاصمة للسوق الأوروبية المشتركة كلها.

ولذلك فإنى أتصور مقدمًا أن هناك دولا عربية سوف تتحمل بمقتضى ما عليها من الواجبات أدورًا محددة، وذلك بحكم مسئوليات محددة تحملتها بالفعل فى التجربة الأخيرة، وسوف تتحملها يقينا مع الاستمرار.

لعلّى من هنا أتصور أدوارا خاصة لست دول عربية هى: مصر وسوريا والسعودية والجزائر وليبيا والعراق.

٣ - إن أحدًا لا يحق له أن يحول المؤتمر القادم إلى مناظرة فى المطلق والمجرد، كما أن أحدًا لا يحق له أن يجعله ميدانًا للمناقصات أو للمزايدات.

إن الذين وضعوا المخططات فى غنى عن سماع المحاضرات. والذين غسلوا ميدان القتال بدمائهم لا يحق لهم أن يعرضوا أنفسهم - أو يعرضهم غيرهم - لأشعار الحماسة والبلاغة. والذين وضعوا إمكانياتهم وراء المعركة لا وقت لديهم ولا أعصاب لكى يروا تلك المشاهد المسرحية التى حفلت بها مؤتمرات القمة فيما مضى، وكانت لتسلية الجمهور خارج القاعة، ولم تكن فى خدمة القرار.

وأتذكر كلمتين لتقى الدين الصلح رئيس وزراء لبنان، وكان ضيف غداء معى أول أمس.

كانت كلمته الأولى:

ـ لابد أن نتغير كما تغيرت الظروف... كنا نقول فى الجلسات السرية شيئًا ونقول فى الاجتماعات المفتوحة شيئًا آخر... وليتنا الآن نفهم أن ما كنا نقوله فى الجلسات السرية أصبح ضروريًا قوله فى العلن، وما كنا نقوله فى العلن أصبح ضروريًا قوله فى الجلسات السرية».

وكانت كلمته الثانية:

ـ نحن مقبلون على امتحان كبير... وصنع السلام قد يكون أكثر مشقة من شن الحرب.

كنا نحسد الذاهبين إلى ميدان القتال... ونحن لا نحسد الذاهبين إلى مؤتمر السلام!».

* * *

وإذا كانت هذه الاعتبارات كلها فى ذاكرة الجميع، فإننا الآن نستطيع الانتقال إلى صلب الموضوع فى هذا الحديث، وهو أسلوب العمل لتحقيق المهام التى تنتظر هذا المؤتمر القادم.

وأتصور ما يلى:

١ ـ إن المؤتمر القادم لا بد له أن يضع استراتيجية لأهداف العمل العربى المشترك، ولقد يكون مجديًا هذه المرة أن يركز على الأهداف القريبة، محتفظًا بالأهداف البعيدة إلى اجتماع تال.

والأهداف القريبة فى ظنى هى:

● انسحاب إسرائيل من الأراضى العربية التى احتلتها بعد ٤ يونيو سنة ١٩٦٧.

● حق الشعب الفلسطيني وبوساطة ممثلين شرعيين له في تقرير مصيره.

ولا أظن أن ظروف المرحلة الحاضرة. كما لا أظن أن موازين العصر الراهنة تسمح لنا بما هو أكثر من ذلك.

وبالتالي فإنه لا يحق لهذا المؤتمر. وفقًا للتعبير الأثير لدى الدكتور محمود فوزي «أن يضيع الممكن في طلب المستحيل».

٢ - بالتوازي مع ذلك مباشرة، فإن المؤتمر القادم لابد له من إعادة دراسة أوضاع القوة العسكرية العربية.

إن الأمة العربية لديها الآن، وربما لأول مرة في تاريخها الحديث، فرصة إقامة قوة عظمى على أرضها:

○ لديها الطاقة الاقتصادية.

○ ولديها الكفاءة العسكرية.

والطاقة الاقتصادية والكفاءة العسكرية، هما الدعامتان لقيام قوة عظمى في العصر الحديث، وربما في كل العصور.

ولعلنا ننظر إلى ما قررته إسرائيل.

كنا نعتقد أن لديها ألف دبابة، وأثبتت تجربة ميدان القتال أن لديها ألفي دبابة - وقد قررت رفع قوتها المدرعة إلى أربعة آلاف دبابة.

وكنا نعتقد أن لديها ٣٧٥ طائرة، وأثبتت تجربة ميدان القتال أن لديها خمسمائة طائرة - وقد قررت رفع قوتها الجوية إلى ألف طائرة.

وإذا كان يتحتم علينا أن نواجه تحديات الأيام المقبلة، إذن فإن قوتنا المدرعة يجب أن ترتفع إلى ما بين ستة آلاف إلى ثمانية آلاف دبابة، ثم إن قوتنا الجوية يجب أن ترتفع إلى ما بين ألف وخمسمائة إلى ألفي طائرة.

وفـوق كل ذلك، فـعلينا فى تـخطيطنا الـعـسكرى أن ننسى أسـلوب القـبـائل فى الـحشد، أسلوب أن نتنادى للقتال بعد اشتعال النار.

لابد أن ندرك أنه لا فـائدة من قـوة مسلحـة لا تكون فى ميدان المواجـهـة فـعلاً من قبل إطلاق الرصاصة الأولى بزمن طويل.

إن أية قـوة تـصل بعد بدء المعـارك إلى مـيدان القـتـال، تصـبـح عبـئًا عليه ولـيسـت إضافة إلى طاقته.

وعندما كان القتال رجالاً بالسيوف والحراب، فلقد كان أسلوب التنادى القبائلى إلى الـحـرب جـائزًا... أمـا الآن والقـتـال مـعـرفـة بمسـرح العمليـات، ومـعـرفـة بالـعـدو ومعرفة بجو المعركة. فإن ذلك الأسلوب القديم يجب أن يتغير.

٣ - إن العمل المشترك، فى صـراع يمس الموازين الدولية العليا، وبأسلحة متعددة ومتنوعة - لابد له من قيادة مشـتركة، وهنا يجىء دور توزيع الواجبات وفق الطاقات وتوزيع الأدور طبقًا لاحتمالات الأداء.

وربما يكون مناسبًا لو أن هذا المؤتمر اختار لجنة عليا من الرؤسـاء تشرف على إدارة الصـراع حتـى يصل إلى نتيجـة مـحققـة لهذه المرحلة، ثم يعد نفسـه بعد ذلك لما تجىء به التحديات.

وربما كان مناسبًا أيضًا أن تضم مثل هذه اللجنة رؤسـاء الدول العربية الست التى أشـرت إليهـا من قـبل: مصـر وسوريا والسعودية والجزائر وليبيا والعراق، ثم يكون لـهذه اللجنة من الرؤسـاء الستة نظام عمل دائم ولجان اتصـال لا ينقطع.

ولربما استطعنا أن نصل إلى توزيع للمسئوليات يسهل معه حمل المهام.

وتطبيـقًا لذلك، فلقـد يكون فى اسـتطاعـة مـصـر أن تتـولى إدارة الصـراع العـام سـيـاسـيًا وعـسكريًا تنفيذًا لاسـتـراتيـجيـة تم الاتفـاق عليـهـا وتحـددت خطوطهـا الرئيسية.

ويكون على الجزائر مثلاً أن تتولى جبهة أوروبا الغربية.

ويكون على السعودية مثلاً أن تتولى جبهة البترول.

أو ربما يكون هناك توزيع آخر للأدوار.

٤ - إن الجبهات الدولية التى وقفت بجانبنا قد ترتبت لها حقوق بما اتخذت من مواقف، ولقد يكون بين اهتمامات المؤتمر أن يحتفظ للنضال العربى بمساندة هذه الجبهات، ثم إن تكون هذه الجبهات على اتصال مباشر بتطورات الصراع.

وعلى سبيل المثال فإن الاتحاد السوفيتى قام - ويقوم - بأهم الأدوار الخارجية المساندة لنا فى الصراع، ولا بد أن يأخذ دوره ما يستحقه من اهتمام الأمة العربية، ثم إننا لابد أن نشجع هذا الدور لكى يواصل حركته، ولسوف تكون مأساة خطيرة أكثر مما هى محزنة، إذا كان ما حاربنا به سلاحًا سوفييتيًا، ثم يكون ما نقبل به فى النهاية حلاً أمريكيًا.

وعلى سبيل المثال فإن الدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية قامت جميعها - تقريبًا - بقطع علاقاتها السياسية بإسرائيل واشترطت لعودة هذه العلاقات انسحابًا إسرائيليًا كاملاً من أراضينا المحتلة سنة ١٩٦٧.

ولقد اقترح أن ندعو لجنة اتصال من منظمة الوحدة الأفريقية إلى الإقامة بصفة دائمة فى القاهرة حتى يتحقق الانسحاب.

تكون هذه اللجنة ارتباطًا أفريقيًا بتحركات العمل العربى.

ثم تكون هذه اللجنة متابعة أفريقية لخطوت حل - أو تعثر - الأزمة خطوة بعد خطوة.

ثم تكون هذه اللجنة دليلاً أمام العالم كله على التزام أفريقيا بقضيتنا المصيرية.

ولقد نرى أن نفعل ذات الشىء مع مجموعة الدول غير المنحازة.

ولقد نرى إلى جانب ذلك، أن نقيم اتصالاً مستمرًا مع أوروبا الغربية، نشرح لها

من خلاله نوايانا وخططنا، وما نحن على استعداد لقبوله، وما نحن على غير استعداد لقبوله.

ولربما رأينا في حالة أوروبا الغربية بالذات، أن نجدد الطلب ونصر عليه بضرورة اشتراك فرنسا وبريطانيا في أعمال مؤتمر السلام القادم.

إن أوروبا الغربية دخلت في مشكلة مع الولايات المتحدة، لأنها رفضت - باستثناء البرتغال - أن تجعل من أراضيها ممرًا لجسر السلاح الممتد من الولايات المتحدة إلى إسرائيل.

ولقد كان غضب الولايات المتحدة على أوروبا الغربية شديدًا وقاسيًا، ولا أتصور - والحال كذلك - أن نقبل مساهمة أمريكية نشطة في حل الأزمة - مع كل مخاطر ومحاذير المساهمة الأمريكية في هذا الصدد - ثم نوافق نحن في نفس الوقت على أبعاد أوروبا الغربية عن هذا الدور ولها مقعدان دائمان في مجلس الأمن: المقعد الفرنسي والمقعد البريطاني.

ولقد نتذكر أن أوروبا الغربية أصبحت تجد لنفسها مصلحة مختلفة - وليست متعارضة - عن الولايات المتحدة.

ولقد نتذكر أن أوروبا الغربية لديها مخاوف من القوة العسكرية المتعاظمة للاتحاد السوفيتي، وهي تخشى - باختلافها مع الولايات المتحدة - أن تجد نفسها في حالة «فنلندة»، أي حياد مفروض في ظلال القوة السوفييتية الضخمة.

ومن هنا فإن أوروبا في حالة بحث عن دور مستقل لنفسها في العالم، ولقد نساعدها على هذا الدور ولقد نجد في هذا الدور - إذا تم العثور عليه - مصلحة لنا.

ومهما يكن فإن وجود فرنسا وبريطانيا في مؤتمر السلام - فضلاً عن اعتبارات كثيرة - عامل مساعد أمام الوفاق - أو حتى أمام الشقاق - بين القوتين الأعظم.

إلى جانب ذلك كله فلعلنا لا ننسى أن هناك عملاقًا جديدًا في العالم اسمه الصين، ولقد أثبت هذا العملاق في ممارسته للقوة أن الاستعمال العاقل لها يضاعف من قيمتها، كما أن الاستعمال الأحمق لها ينزل بقيمتها.

لقد وصلت الصين بالاستعمال العاقل لقوتها المحدودة حتى الآن إلى وضع لم يكن يخطر على بال. ومع أن قوة الولايات المتحدة تزيد أكثر من مائة مرة على قوة الصين فإن الاستعمال الأحمق للقوة الأمريكية هبط بوزنها إلى درجة تدعو للرثاء!

وإلى جانب علاقات وثيقة لابد من إقامتها مع الصين، فلقد نستفيد من الأسلوب الصينى فى استعمال عناصر القوة العربية.

٥ - إن المؤتمر المقبل للقمة العربية قد يجد أن هناك مهمة إعلامية عاجلة لابد من القيام بها توجهًا للرأى العام العالمى كله.

إن العالم رأى ملامح سريعة مما حدث يوم ٦ أكتوبر، ومن حقه أن يرى الصورة كاملة.

ثم إن العالم الآن يحس بأزمة فى الطاقة، ومن السهل تصويرها أمامه بأنها عقاب وقع عليه بسبب ما لا دخل له فيه، وهذا التصوير ينبغى تصحيحه.

ثم إن لنا، بصرف النظر عن يوم ٦ أكتوبر وعن أزمة الطاقة - قضية لا بد أن تزداد الدنيا معرفة بها لتزداد الدنيا تأييدًا لها.

وربما كنت واحدًا من الذين يعتقدون أن الإعداد الإعلامى ليس أقل أهمية من الاستعداد العسكرى، لأننا فى عصر أصبحت فيه لكل حقيقة صورتان.

- الصورة كما هى فعلاً.
- ثم الصورة كما يراها الناس.

وأهمية الصورة كما يراها الناس لا تقل عن أهمية الصورة كما هى فعلاً.

الصورة كما فعلاً: حقيقة علمية.

الصورة كما يراها الناس: حقيقة سياسية.

* * *

بقى أن بعض المراقبين السياسيين يرون أن مصر لا حاجة بها إلى مؤتمر عربى على مستوى القمة لأن مثل هذا المؤتمر قد يقيد حركتها أو هو يحرمها من ميزة المناورة الواسعة.

وأعترف أن لى رأيًا مختلفًا.

إن مصر فى حاجة إلى الحركة هذا صحيح، ولكن حاجة مصر إلى الحركة لابد أن تكون اعتمادًا على القوة، والقوة إلى أقصى مدى يمكن توفيره.

والقوة ليست قيدًا على الحركة وإنما القوة قاعدة أساسية لفاعلية أى حركة خصوصًا، إذا كنا ندرك أن الحرب ما زالت مستمرة بوسائل أخرى غير النار مع العلم بأن العودة إلى النار احتمال وارد. ولا بد أن يكون واردًا - فى أى لحظة ومع العلم بأنه لا يصح لأحد أن يثق حتى الآن ومع الظروف القائمة فى نوايا أو قدرة الولايات المتحدة على ممارسة أى ضغط مؤثر على إسرائيل.

ثم إن ميزة المناورة الواسعة لا تعنى التحرر من الالتزام وإلا كنا هنا نخلط بين الانتهازية والواقعية.

إن ميزة المناورة هى أنها تعطى إمكانية الوصول إلى الهدف بطريق الاقتراب غير المباشر إذا استعصى اقتحام الطريق إليه عنوة ومباشرة.

ولكن ميزة المناورة لا تعنى الحركة المتحررة من الالتزام.

وربما كان علينا أن نفرق بين شيئين:

الشطارة والذكاء.

والشطارة هى براعة الإفلات من المواقف الصعبة.

وأما الذكاء فهو مقدرة الاستعداد للمواقف الصعبة.

واعتقادى أنه ليس هناك ما يمكن لمصر أن تخشاه على حقها فى ميزة المناورة الواسعة - إذا ما اشتركت الآن فى مؤتمر عربى على مستوى القمة. ولقد أحسست باطمئنان شديد عندما سمعت عن الرئيس الجزائرى هوارى بومدين قوله:

ـ إن مصر قاتلت، وليس لأحد أن يزايد عليها، أو يسد طريقًا أمامها».

□

لعلّى أقول إننى أفضل عبارة للرئيس أنور السادات التى قال فيها:

ـ إننا سوف نواصل سيرنا على الطريق حتى يصل إلى هدف نرضاه لأنفسنا ويرضاه لنا نضالنا»...

... أفضل هذه العبارة على عبارة أخرى مشهورة «لجورج بيدو» الذى كان رئيسًا لوزراء فرنسا وقت أزمتها الكبرى سنة ١٩٤٠، وكان «بيدو» قد قال فى تلك العبارة:

ـ رباه إننى لا أعرف إلى أين نحن ذاهبون... ولكن أعرف أننا ذاهبون إليه بسرعة شديدة!!».

* * *

وأخيرًا فلقد يسألنى أحد:

ـ هل يمكن حقيقة لمؤتمر عربى على مستوى القمة أن يحقق هذا الذي تمنيته أو بعضا منه... أو أن ذلك كله مما قلته غير قابل للتنفيذ وإنه أحلام مما يصنعه فرط الحماسة؟

وأقول لنفسى:

ـ فى ظنى أنه كله قابل للتنفيذ... ثم أليست الإرادة وحدها هى الجسر بين الحلم وتحقيق الحلم؟ ثم ألا تستحق شجاعة الرجال وتضحيات الرجال تكريمًا يصونها ويحتفظ لها ـ بما جادت بالحياة فى سبيل الوصول إليه ويضيف إليه إذا استطاع، بكل وسائل القوة الشاملة لأمة بأسرها؟».

مناقشة مع كيسنجر

١٦ نوفمبر ١٩٧٣

لا أعرف ماذا أترك، وماذا أتناول، من حوار دام ساعتين ونصف الساعة مع الدكتور هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية.

● من ناحية - لأن الحديث بيننا طال وتفرع وتشعب، ومس أفكارا وأدوارا وأحداثا تمتد من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل، وتتصل من نواح عديدة بفلسفة السياسة والتاريخ والتطور، ثم إنه اتسع من مصر إلى الشرق الأوسط إلى العالم المعاصر بأوضاعه وحقائقه وموازينه.

ومحاولة ربط هذا كله معا وضغطه فى مساحة محدودة - مهمة صعبة، وخصوصا أن المساحة ليست محدودة فقط، وإنما الظروف إلى جانب ذلك دقيقة لاتحتمل المغامرات... ولو حتى بالحكايات!

● ومن ناحية أخرى - فلقد أحسست أن الدكتور هنرى كيسنجر حاول أن يكون مفتوحا وواضحا معى إلى درجة كبيرة. وقد كان لقاؤنا بناء على رغبة أبداها، فقد نزل إلى مطار القاهرة مساء يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر الماضى ليقول لمضيفه إسماعيل فهمى وزير الخارجية المصرية «إنه قرأ مقالالى نشر قبل أيام عن الدور الأمريكى فى الأزمة وأهميته وقيمته، وهو يريد مناقشتى فيما كتبت» - ثم عاد الدكتور هنرى كيسنجر فأثار موضوع هذا المقال خلال اجتماعه مع الرئيس أنور السادات صباح يوم الأربعاء ٧ نوفمبر.

وعندما التقيت بالدكتور هنرى كيسنجر على العشاء، مساء نفس اليوم: الأربعاء

ـ وكان هذا أول لقاء بيننا ـ فوجئت به أمام كثيرين من المدعوين فى بيت وزير الخارجية يأخذنى بحفاوة شديدة ويقول لى برقة زائدة: إننى من كثرة ما قرأت لك أشعر وكأننا أصدقاء من عشرين سنة على الأقل».

ثم اقترح أن نلتقى بعد العشاء فى الجناح الذى ينزل فيه بفندق هيلتون، وأن نتناقش «بصراحة» كاثنين من المهتمين بالتفكير السياسى الجديد وتطبيقاته وبصرف النظر عن الخلافات الناشئة من تباين المصالح القومية والعقائد الاجتماعية.

وأحسست ونحن وحدنا فى الجناح الرئاسى فى الدور الثانى عشر بفندق هيلتون ـ إنه يريد المناقشة حرة من أى حرج فقد قال وسأل بغير تردد، وإن كان قد توقف فى بعض مواضع الحوار ليقول لى:

ـ بالطبع... هذا لعلمك فقط».

ولقد قدرت صراحته فيما قال وسأل بغير تحرج، ثم إننى ملتزم بتقدير رغبته فيما طلب كتمانه ـ وتلك قيود أخرى إلى جانب قيود المساحة المحدودة، والظروف الدقيقة!

ومن هنا تساؤلى فى مطلع هذا الحديث من أننى لا أعرف ماذا أترك وماذا أتناول من حوار دام ساعتين ونصف الساعة مع الدكتور هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة؟!

* * *

كانت الساعة الحادية عشرة إلا ربعا مساء عندما دخلت الجناح الذى ينزل فيه الدكتور هنري كيسنجر، وقوطع حوارنا قبل أن يبدأ عندما جاء روبرت ماكلوسكى المتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية يهمس بشىء فى أذن كيسنجر، والتفت إلىّ كيسنجر يقول:

ـ هل يضايقك لو تركتك لمدة عشر دقائق أذهب فيها إلى لقاء الصحفيين

الأمريكيين الذين يتابعون مهمتى فى القاهرة... هم فى غرفة أعددناها للمؤتمرات الصحفية هنا... ويبدو أنهم يريدون منى أن أحدثهم عن نتائج عملنا اليوم... وأظنك تعرف الصحافة...».

وذهب وعاد بعد ربع ساعة وبدأ حوارنا فى حوالى الساعة الحادية عشرة تماما، وقوطع مرة أخرى فى منتصفه ولم تكن المقاطعة هذه المرة من الصحافة وإنما كانت من جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل، فقد دخل علينا أحد مساعدى كيسنجر، وكان الهمس مرة أخرى، وقال لى كيسنجر:

ـ سوف أذهب دقيقتين إلى غرفة استقبال الرسائل... إذ يبدو لى أن آلاتنا تدق برسالة من جوزيف سيسكو مساعدى لشئون الشرق الأوسط الذى بعثت به إلى تل أبيب ظهر اليوم يحمل بعض مقترحاتى إلى رئيسة وزراء إسرائيل... يبدو أنه قابلها... ويبدو أنه يدق على أجهزة اللاسلكى الآن ردها المبدئى على مقترحاتى».

وذهب كيسنجر وعاد بعد خمس دقائق... واتصل حوارنا.

* * *

كنت البادئ بفتح باب الحوار... قلت لكيسنجر ونحن بالكاد نجلس فى مقعدين متواجهين فى صالون جناحه:

ـ أنت رجل مشغول، ثم إنك مرهق برحلتك الطويلة وأنت بعد فى مقدمتها. ولا أريد أن أطيل عليك بعد الحد الذى تراه أنت».

وقال كيسنجر: بإنجليزية ملكونة بلهجة أمريكية، معجونة بنبرة ألمانية، لكن كل كلمة فيها واضحة بدقة أستاذ بارز فى العلوم السياسية أتيحت له الفرصة لكى يفكر نظريا ويمارس عمليا على نحو لم يتح لغيره من أقطاب العالم المعاصر البارزين:

ـ ربما كنت مشغولا... وربما كنت مرهقا... ولكنى أريد أن أسألك فى أشياء

كثيرة لأنى أريد أن أعرف وأفهم من وجهة النظر العربية ما هو أبعد من سطح المشاكل العملية التى تشدنا إليها الأزمة.

إننى لم أكن قد فتحت بعد ملف أزمة الشرق الأوسط.

كنت أتصور أنها سوف تنتظر دورها.

ولكن الأزمة فرضت نفسها على الجميع وأنا بينهم على غير انتظار».

واستطرد مبتسما:

- إنكم فى هذا نجحتم... وأنا أول من يسلم لكم بهذا النجاح.

وها نحن جميعا... أمام الأزمة وجها لوجه... وأنا كما قلت لك لم أفتح ملفاتها القديمة بعد».

قلت لهنرى كيسنجر:

- قبل أن نفتح بالحديث ملفات الأزمة القديمة لدىَّ سؤال متصل بهذه الدقيقة.

سؤال متصل بك أنت وبدورك الذى تقوم به الآن هنا فى القاهرة، وغدا فى عمان، وبعد غد فى الرياض.

أريد أن أسألك: من أنت؟

إنك عالجت من قبل وباقتدار كبير مشاكل ضخمة: حرب فيتنام... فتح الأبواب مع الصين... الوفاق مع الاتحاد السوفيتى.

لكنك فى هذه المشاكل جميعا كنت تمثل الطرف الآخر فى المشكلة.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى الطرف الآخر المباشر فى مشكلة حرب فيتنام، وفى العلاقات مع الصين، وفى الوفاق مع الاتحاد السوفيتى.

باختصار فأنت فى المرات السابقة كنت مفاوضا من حيث إنك كنت طرفا مباشرا.

أما هذه المرة وفى أزمة الشرق الأوسط فإن السؤال عن: من أنت؟ يصبح سؤالا ضروريا لكى نعرف أين نحن بالضبط!

هل أنت طرف؟... هل أنت مفاوض؟

لا أظن.

إنكم أول من يقول بأن إسرائيل لها إرادة مستقلة عن الولايات المتحدة، ومع أنكم تعترفون بأن لكم تأثيرا كبيرا عليها، ولكن مؤدى ما تقولون به النهاية هو أن هناك مساحة ما بين الإرادة الأمريكية والإرادة الإسرائيلية... أنتم ترون هذه المساحة بين الإرادتين واسعة، وربما اختلفنا معكم ووجدنا هذه المساحة بحكم قرب الارتباط وحجمه - ضيقة... شديدة الضيق... لكن هناك مساحة لا تجعلك بالضبط طرفا... وبالتالى لا تجعلك بالضبط مفاوضا!

وإذا لم يكن دورك هو دور «الطرف الثانى» «دور المفاوض» - إذن فما هو دورك بالضبط... هل هو دور «الوسيط»؟ لا أظن مرة أخرى... بل لعلى واثق!

إن دور «الوسيط» يقتضى حيادا بين الطرفين... أو على الأقل إحساس الطرفين بوجود أو إمكانية وجود هذا الحياد.

ونحن لا نشعر بذلك... انحيازكم لإسرائيل لا يحتاج إلى دليل... آخره هذا الجسر الجوى والبحرى الذى يحمل الأسلحة والذخائر من الولايات المتحدة إلى إسرائيل.

وإذن فأنتم لستم - ولا يمكن أن تكونوا - محايدين.

إذن فإنك لا تستطيع أن تكون «وسيطا».

وإذا لم تكن «مفاوضا» لأنك لست طرفا مباشرا، وإذا لم تكن «وسيطا» لأنك لست محايدا - إذن فما هو دورك بالضبط؟

إننى لا أسأل هذا السؤال من باب الفضول، ولكن لأن إجابتك عليه سوف تضبط إيقاع الكلام بيننا كله».

- إننى وجهت هذا السؤال لنفسى، وإذا كان السؤال مهما لك فى ضبط إيقاع

الكلام بيننا فهو مهم لى لضبط إيقاع الحركة حركتنا، حركة الولايات المتحدة فى الأزمة.

إننى لا أمثل طرفا مباشرا فى الأزمة... أنا أقول بذلك... ثم إننى لا أمثل دور الوسيط بين الطرفين فى الأزمة... أنت تقول بذلك.

لنقل، ونتفق على القول، بأننى أمثل «اهتمام» الولايات المتحدة بأزمة خطرة، تدور فى منطقة حساسة بالنسبة لنا... منطقة لنا فيها مصالح إستراتيجية - سياسية واقتصادية ومصالح أمن - ونحن نريد المحافظة على هذه المصالح وذلك بالطبع إلى جانب اهتمامنا بالسلام العالمى، وإلى جانب حرصنا على صداقة شعوب هذه المنطقة.

لنقل ما يلى:

١ - إن لنا مصالح استراتيجية فى المنطقة.

٢ - إن القوة الأعظم الثانية - الاتحاد السوفيتى - لها مصالح فى هذه المنطقة.

٣ - إننا نحاول إقامة نظام عالمى جديد يقوم على الوفاق بعد زوال عصر الحرب الباردة، ولكن الوفاق لن يجرنا إلى ترك المنطقة لنفوذ القوة الأعظم الثانية.

٤ - إننا لا نريد أن تتصاعد أى أزمة لكى تؤثر على الوفاق لأن مخاطر ذلك أخطر من أن تتحملها البشرية بأسرها.

٥ - إن لنا علاقة خاصة بإسرائيل ونحن ملتزمون بحماية أمنها، ونحن نعتبر أن حماية أمن إسرائيل لا يمكن أن تتحقق إلا باحترام سيادتكم.

٦ - إذا كانت لنا علاقة خاصة بإسرائيل فإننا لا نجد فى ذلك تعارضا مع صداقة نريد تنميتها وتقويتها معكم.

٧ - إننا لا نريد أن نكون بمفردنا، ولا بالمشاركة مع غيرنا، أوصياء على المنطقة، ولكننا نريد لشعوب هذه المنطقة أن تبنى لنفسها نظام حياتها وأمنها وفق ما تراه وبانسجام مع حقائق العالم.

هذه هى عناصر موقفنا كما يتصوره الرئيس نيكسون، وكما أتصوره أنا وأتفق معك على أنى لست «طرفا».

وأتفق معك على أنى لست «وسيطا».

وربما تتفق معى على أن ما أمثله هو: «اهتمام» أمريكى بأزمة الشرق الأوسط، وهو اهتمام يحاول أن يؤدى دوره حفاظا على مصالحه وبغير تناقض مع مصالح الآخرين».

* * *

واستطرد هنرى كيسنجر:

-إننى أعرف أننى أتناول مشكلة معقدة وصعبة.

أجدها أصعب من مشكلة فيتنام، وأجدها أصعب من فتح أبواب الصين، وأجدها أصعب من الوفاق مع الاتحاد السوفيتى.

المشكلة هنا معبأة على الآخر بعناصر متضاربة ومتفجرة...

عناصر تاريخية وقومية ونفسية، ورواسب قديمة وجديدة، ونزعات شك وخوف لا نهاية لها.

ولقد تناولت مشكلة الشرق الأوسط عارفا بما ينتظرنى عارفا أننى لا أمثل «طرفا» كما أننى لست «وسيطا» وما أدعيه هو أننى تعبير عن اهتمام أمريكى.

سوف أقول لك شيئين فيما يتعلق بطريقة تناولى للمشاكل.

الشىء الأول: هو أننى لا أحب أن أقترب من مشكلة إلا إذا أحسست أن عناصرها الأساسية أو على الأقل جزءا كبيرا من عناصرها الأساسية فى يدى.

كان ذلك متوفرا لى فى حرب فيتنام فقد كان الرأى العام الأمريكى يريد نهاية لهذه الحرب.

وكان ذلك متوفرا لى فى بكين وموسكو لأن حقائق العصر الجديد كانت تسير فى الاتجاه الذى أسير فيه.

فى أزمة الشرق الأوسط لا أستطيع بالضبط أن أحسب ما فى يدى من العناصر الأساسية فى الأزمة.

الشىء الثانى: هو أننى أكره الفشل...

إن لدى رصيدا من النجاح ولست أريد أن أفرط فيه.

لا أتحدث عن جائزة نوبل للسلام...».

واستدرك كيسنجر:

ـ هناك قصة سوف أحكيها لك: ذهب بعض زملاء ابنى فى المدرسة إليه يقول له: هل تعلم أن بعض أصحابنا يقولون إن أباك لا يستحق جائزة نوبل للسلام، ولقد غضبنا منهم وقلنا لهم إن ذلك لا يصح.

ولكن ابني قال لزملائه:

ـ وماذا يهم... إن أمى قالت لى نفس الشىء!».

وضحك كيسنجر واستطرد:

ـ مشكلتى إذن فى أزمة الشرق الأوسط كما يلى:

ليست فى يدى عناصر كافية من عناصر الأزمة، أمثل اهتماما أمريكيا بها، ولكن ما أستطيع الاعتماد عليه هو سمعتى الشخصية... رصيدى الشخصى...

وأعتقد برغم صعوبة الظروف أن هناك فرصة للنجاح ولكنى أريد وقتا...

أريد من الأطراف أن يعطونى صبرهم.

ما أطلبه الآن هو الصبر...

وأعترف أننى خائف من الرومانسية العربية... أخشى أن تتصوروا الحل عند

أول منحنى من الطريق... واعتقادى أنه تلزمنا فترة ما بين ستة أشهر إلى سنة كاملة حتى نصل إلى بداية شىء معقول.

وعندما اجتمعت مع وزراء الخارجية العرب الأربعة فى بداية الحرب الأخيرة فى الشرق الأوسط قال لى بعضهم.

- إن الرجل الذى استطاع حل مشكلة حرب فيتنام، وفتح الأبواب مع الصين، وبنى الوفاق مع الاتحاد السوفيتى - يستطيع أن يحل أزمة الشرق الأوسط.

وقلت لهم:

- أرجوكم أن لا تنظروا إلى الأسبوعين الأخيرين فى باريس [مقر مفاوضات فيتنام] أو الأيام الأخيرة فى بكين أو موسكو... إن هذه الأيام سبقها تحضير وعمل سنين طويلة حتى استطعنا أن نصل إلى الأسابيع والأيام الحاسمة.

قلت لهم إنه ليس فى وسعى ولا فى وسع غيرى أن يصنع المعجزات، والسياسة الدولية ليست مهنة الحواة».

* * *

واستطر هنرى كيسنجر:

- إن بعضا منكم فى العالم العربى أساء فهم اقتراحى الذى طرحته فى اليوم التالى لنشوب القتال فى الشرق الأوسط وهو اقتراحى بعودة القوات المتحاربة إلى المواقع التى كانت فيها قبل ظهر يوم ٦ أكتوبر.

لم أكن فى هذا الاقتراح متحيزا لإسرائيل كما بدا لكم، وإنما كانت لى تصورات مختلفة...

سوف أروى لك القصة كلها:

قبل ٦ أكتوبر كانت كل معلوماتنا تستبعد احتمال قيام الحرب ومع أنه كانت هناك أخبار كثيرة متواترة عن حشودكم فقد كان التقدير أن الحشود هى للقيام بمناورة وليست لشن حرب.

ثم إن جميع الخبراء لدينا كانوا يتصورون أنكم لو بدأتم الحرب فإن القوة العسكرية الإسرائيلية سوف توجه إليكم ضربة قاضية.

وعندما بدأت الحرب فعلا، فلقد ثبت أن معلوماتنا كانت خاطئة وبقى لدينا الاعتقاد بأن تصوراتنا حول نتائجها ما زالت صحيحة.

وفى ذلك الوقت جاء اقتراحى بوقف إطلاق النار وعودة القوات المتحاربة إلى الخطوط التى كانت عندها قبل بدء القتال.

تصورت أن ذلك فى مصلحتكم قبل أن يكون فى مصلحة إسرائيل.

دعنى أضع المسألة أمامك بطريقة أخرى.

- لو قلت لك إننى كنت أفكر فى مصلحتكم فقط لأحسست إنى أخدعك وأنا لا أريد أن أفعل ذلك أو أحاوله لأنك تستطيع اكتشاف الحقيقة.

إن تفكيرى سار على النحو التالى:

- إن المصريين قاموا بمغامرة خطيرة... ربما دفعهم إليها اليأس، ولكن القوة العسكرية الإسرائيلية سوف تنقض الآن عليهم بمنتهى القسوة.

ماذا سيحدث بعد ذلك؟

إن مصر سوف تتجه إلى الاتحاد السوفيتى لينقذها وهناك احتمالان:

أن يتدخل السوفييت بطريقة تفرض علينا التدخل نحن الآخرين وهذا يضعنا أمام احتمال رهيب... نحن وهم معا.

وإما أن لا يتدخل السوفييت ولكنهم سوف يدخلون إلى مصر بطريقة لا يخرجون منها بعد ذلك أبدا... وهذا أيضا احتمال لا نريده.

لم تكن المسألة حرصا على مصر وحدها، ولكن المسألة بالدرجة الأولى كانت حرصا على حقائق وموازين القوة فى هذا العصر، ومن هنا جاء اقتراحى بوقف إطلاق النار فورا وعودة القوات المتحاربة إلى مواقعها قبله...».

* * *

واستطرد هنرى كيسنجر:

- بعد يومين كان القتال ما زال عنيفا فى سيناء.

معلوماتنا كانت خاطئة عن حشودكم للحرب.

وتصوراتنا بدت هى الأخرى خاطئة عن قدرتكم على الحرب!

لقد رحت أطلب تقارير البنتاجون عن سير المعارك وسألتهم فى قيادة الجيش الأمريكى أكثر من مرة:

- ماذا يجرى فى الشرق الأوسط بالضبط؟

وكان ردهم:

- إن الصورة تختلف كثيرا عن تصوراتنا السابقة.

وجاءتنى التقارير بعد التقارير، عن عملية عبوركم لقناة السويس، وعن إرادة القتال لدى جنودكم وضباطكم، وعن معارك الدبابات فى الصحراء.

وكانت المعارك ما زالت مستمرة...».

واستطرد هنرى كيسنجر:

- لقد قلت وقتها، إن الظرف أصبح الآن ملائما لوقف إطلاق النار.

إن المصريين أثبتوا قدرتهم على القتال...

إنهم غيروا الأوضاع فى الشرق الأوسط، وهناك الآن حقائق جديدة يجب أن نأخذها فى الحساب.

وكان رأيى أن الاستمرار فى إطلاق النار بعد ذلك لا مبرر له.

إن الهدف السياسى من قبول المصريين لمخاطرة الحرب أصبح واضحا، وإذن فإنه لابد أن نسعى جميعا إلى وقف إطلاق النار، وأن نباشر العمل السياسى لحل الأزمة من أساسها.

واتصلت بالسوفييت.

وربما قلت لك أيضا إننى بعثت برسالة إلى القاهرة.

كان اقتراحى وقتها هو وقف إطلاق النار فى المواقع الحالية... كان ذلك فيما أظن اليوم العاشر من أكتوبر.

ولقد أذكرك هنا بنقطتين:

الأولى: إنك قد تلاحظ أننا لم نتوقف طويلا أمام السؤال الذى يقول:

- من الذى بدأ إطلاق النار؟

والثانية: إنك قد تعرف أن التقدم لإسرائيل باقتراح لوقف إطلاق النار فى مواقع العاشر أو الحادى عشر من أكتوبر لم يكن سهلا.

لقد كانت ثورتهم علينا عارمة لأنهم كانوا يقدرون أنه مع إتمام حالة التعبئة العامة فى إسرائيل فإنهم سوف يصبحون قادرين على تغيير سير المعارك لكنهم فى النهاية رضخوا، أما أنتم فقد جاءتنا الكلمة منكم بواسطة السوفييت - والبريطانيين أيضا - بأنكم لستم على استعداد للقبول، ولو أنى تلقيت فى ذلك الوقت ومن القاهرة شروط الرئيس السادات للسلام وهى الشروط التى أعلنها بعد ذلك بأيام أمام البرلمان - لاختلف الحال ولم تكن المشكلة فى ذلك الوقت شروط السلام، وإنما كانت شروط وقف إطلاق النار...».

[هناك أجزاء من حديث هنرى كيسنجر فى هذا الموضع لم يحن وقتها بعد... وهى فى نطاق ما لا داعى لقوله الآن، ثم هى فى نطاق المحظور مما طلب كتمانه].

* * *

ويستطرد هنرى كيسنجر:

- الخلاصة أننا لم نستطع التوصل إلى وقف إطلاق النار فى ظروف اعتبرته مناسبا.

دعنى أقل لك شيئا عن رأيى فى حل النزاعات.

إذا كنا نريد حل نزاع متأزم فيجب أن تكون النقطة التى نبدأ منها هى نقطة يشعر فيها كل طرف أنه حصل على شىء... وأن التوقف عندها ليس هزيمة له.

ومثل هذا الموقف كان متاحا لنا فى نهاية النصف الأول من أكتوبر.

مصر عبرت قناة السويس واقتحمت خط بارليف وتقدمت بضعة كيلو مترات فى سيناء إلى الشرق من خط وقف إطلاق النار قبل ٦ أكتوبر.

وإسرائل تمكنت من وقف الهجوم السورى. وقد كان قويا وكثيفا. فى الجولان وتقدمت بضعة كيلو مترات إلى الشمال من خط وقف إطلاق النار قبل ٦ أكتوبر.

وإذن فإن كل طرف حصل على شىء مما كان يريد وإن لم يحصل على مايريده كله.

وإذن فهذا هو الوقت للتوقف عن القتال والبحث بالسياسة عن حل».

ويستطرد هنرى كيسنجر

- إنك تستطيع بالطبع أن تتصور الضغوط الداخلية التى بدأنا نتعرض لها لكى نسارع إلى مساعدة إسرائيل.

وعندما لم نستطع مواجهة الضغوط الداخلية بقرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار فقد بدأنا نساعد إسرائيل.

[ودار نقاش طويل بين كيسنجر وبينى فى ثلاث نقط].

● **الأولى**: إن شحنات السلاح السوفيتى لنا فى تلك الفترة كانت تنفيذا لعقود سابقة عن الحرب.

● **والثانية**: إن هناك فارقا فى الحجم بين ما قدمه الاتحاد السوفيتى لنا تنفيذا

لعقود سابقة وبين ما قدمته الولايات المتحدة لإسرائيل فى وقت حاسم من سير الحرب.

● **والثالثة**: إن مصر وسوريا كانتا تحاربان لتحرير أرض لهما احتلها العدوان الإسرائيلى قسرا لأكثر من ست سنوات.

قال هنرى كيسنجر:

ـ هناك اعتبار آخر أرجوك أن تضعه فى اعتبارك، ولست مستعدا لأن أخدعك فيه أيضا!

وهذا الاعتبار ببساطة هو:

ـ إن الولايات المتحدة لا تستطيع اليوم ولا غدا أن تسمح للسلاح السوفيتى بأن يحقق انتصارا كبيرا ـ وحتى إذا لم يكن انتصارا حاسما ـ ضد السلاح الأمريكى...

هذه مسألة لا علاقة لها بكم... ولا علاقة بإسرائيل هذه مسألة تتصل مباشرة بتوازن القوة بين الدولتين الأعظم».

* * *

واستطرد هنرى كيسنجر:

ـ إن الأمور تطورت فى سير الحرب... ولم يكن ذلك بسبب السلاح الأمريكى الذى أرسلناه لإسرائيل، كما قلت أنت فى مقال قرأته لك، ولكن لأن القوة العسكرية الإسرائيلية كانت ما تزال بعد قادرة.

لقد كانوا فى حاجة إلى ما أرسلناه لهم، ولكنهم بدونه لم يكونوا فى حالة عجز كما تتصورون.

إننا جميعا كنا نبالغ فى تصوراتنا عن ضعف قوتكم، فلا تفعلوا أنتم ذلك الآن بالنسبة لقوة من تعتبرونه عدوكم...

ذلك خطأ. . . ثم هو خطر لقد جاء هجومهم المضاد فى غرب قناة السويس، وكانوا على استعداد لذلك من قبل مساعدتنا لهم.

(دار النقاش طويل آخر حول هذه النقطة وشرحت لكيسنجر شواهدي من متابعة سير المعركة).

وقال هنرى كيسنجر:

- قد نتجادل فى ذلك من الآن إلى الصباح لكن علينا أن نفرق بين الجدل السياسي وبين الحقائق السياسية. .

نحن الآن أمام الوضع الذى نراه أمامنا على الطبيعة.

ومهما كانت أسبابة فنقطة البداية لمواجهته، هو أن نأخذه كما هو فى اعتبارنا بصرف النظر عن أسبابه.

ومع ذلك فهو وضع لا يزال ملائمًا لحل سياسى.

قواتكم عبرت وهى فى مواقع إلى الشرق من قناة السويس.

وقواتهم عبر وهى فى مواقع إلى الغرب من قناة السويس».

***

واستطرد هنرى كيسنجر:

- هكذا وجدنا أن الوقت ما زال مناسبًا للبحث عن حل وتعاونا مع الاتحاد السوفيتى ومعكم ومع غيرنا فى مجلس الأمن لكى يصدر قرارًا بوقف إطلاق النار.

أريد أن أقول لك شيئا آخر:

إنكم في هذه المرة تصرفتم بشكل مختلف عن تصرفكم سنة ١٩٦٧.

سنة ١٩٦٧ أثرتم الدنيا علينا

ـ أتحدث عما وقع وقتها بصرف النظر إن كنتم أو لم تكونوا على حق فيه ـ والنتيجة أن موجة عداء عارمة ضد الولايات المتحدة سادت المنطقة كلها . . . وهكذا عطلتم أى رغبة للولايات المتحدة فى أداء دور لها تحس أنها قادرة عليه.

سنة ١٩٧٣ تصرف الرئيس السادات بهدوء أكثر ـ وسواء كنا مخطئين أو لم نكن مخطئين ـ فإنكم فتحتم الباب أمامنا لدور نرغب فى القيام به ونحس أننا قادرون عليه.

إن الاتحاد السوفيتى يستطيع أن يعطيكم سلاحًا.

ولكن الولايات المتحدة تستطيع أن تعطيكم حلاً عادلاً تعود به إليكم أراضيكم وخصوصًا إنكم استطعتم تغيير الموقف فعلاً فى الشرق الأوسط.

لا تتصور أن إسرائيل راضية عما نفعله.

وفى نفس الوقت فنحن لا نتصور إنكم سوف ترضون بما نفعله.

ومع ذلك فإن السياسة فى عصرنا الآن ليست مسألة عواطف، وإنما هى حقائق قوة».

واستطرد كيسنجر:

ـ أريد أن أناقشك الآن فى مقالك عن أهمية وقيمة الدور الأمريكى فى الأزمة . . . إنك ترى أن الرئيس الأمريكى حتى لو أراد عاجز عن ممارسة أى دور إيجابى فى أزمة الشرق الأوسط بسبب الضغوط الداخلية عليه.

ربما تسمح لي أن أختلف معك..

هناك مشاكل تواجه البيت الأبيض، ولكنى لا أعتقد أن ريتشارد نيكسون سوف يستقيل، كما أنه لن يعزل.

والضغوط الداخلية عليه شديدة، ولكنى ما زلت أعتقد أن مجال الحركة مفتوح أمامه حتى تحت هذه الضغوط.

[دار نقاش طويل هنا حول الأوضاع الداخلية فى الولايات المتحدة، وكان هذا النقاش من مواضع الحديث التى قال لي فيها هنرى كيسنجر: ذلك كله لعلمك الخاص بالطبع].

***

سألنى هنرى كيسنجر بعد ذلك فى أمور عديدة:

سألنى هنرى كيسنجر:

● منذ متى كانت سيناء مصرية؟

قلت له: سوف أبعث إليك بمجموعة خطابات غرامية مكتوبة على أوراق بردى عمرها خمسة آلاف سنة، وهى من قائد مصرى فى حامية العريش إلى زوجته، وكانت أميرة فرعونية وفيها يقول بالحرف:

«إننى أتذكرك من هذا المكان البعيد الذى انتظر فيه لأصد الأعداء عن حدود الوطن المقدس».

وقلت له: أنت الآن فى أعرق أمة فى التاريخ»

● سألنى هنرى كيسنجر.

- ما هو الأساس فى حركة القومية العربية . . . والوحدة العربية؟»

وأجبت باستفاضة

● سألنى هنرى كيسنجر.

«إن جولدا مائير أطلعتنى على مقال لك قلت فيه أن إستراتيجيتكم فيها هى القضاء عليها . . . هل ذلك رأيك؟»

وأجبت باستفاضة

● سألنى هنرى كيسنجر.

«إلى أى مدى سوف تواصلون استعمالكم لسلاح البترول . . . إن استعمالكم له ربما يوجعنا ولكنه لن يجرحنا أو يقتلنا، وبالعكس فإنه سوف يحفزنا إلى البحث عن مصادر جديدة للطاقة؟».

وأجبت باستفاضة.

● سألنى هنرى كيسنجر:

«هل الملك فيصل مستعد للشوط إلى نهايته؟».

وقلت:

- إنك فى طريقك إلى الرياض، وسوف تقابل الملك. وسوف تجده أصلب مما تصور كثيرون وأعترف أنى كنت بينهم.

إنه مجروح من السياسة الأمريكية فقد حسبناها عليه طويلاً.

ثم إنه غاضب لوعود تكررت منكم بغير وفاء.

ثم إن عروبة القدس موضوع لديه لا يقبل المناقشة وفى النقطة فإن الأمة العربية كلها معه».

وقال لي كيسنجر:

- إننى قبل مغادرة واشنطن قرأت كل مراسلاته مع ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين:

كيندى وجونسون ونيكسون وأشعر أن فيصل له الحق فى الإحساس بالمرارة.. .»

ثم أضاف كيسنجر:

- إننى فى الطريق غدًا إلى عمان والرياض... ولست أتوقع مشاكل مع حسين... ولكنى أنتظر المشاكل كلها مع فيصل»

***

وتركت هنرى كيسنجر فى الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم الخميس ٩ نوفمبر وخرجت إلى شوارع القاهرة المعتمة فى ظلام الحرب أسأل نفسى باحثًا عن ضوء:

- ماهى الاستنتاجات التى يمكن أن أتوصل إليها بعد حوار طويل مع هنرى كيسنجر؟».

وعندما وصلت إلى بيتى فى تلك الساعة من الصباح الباكر أمسكت ورقة وقلما ورتبت الاستنتاجات التالية :

١ - إن هنرى كيسنجر جاد فى البحث عن حل، وإن كنت لا أعتقد بعد أن لديه خطة كاملة يريد تطبيقها، ولقد كان ما أحسست به هو أنه يحاول تحريك الأمور، ومن خلال الحركة فإنه قد يجد منفذًا.

٢ - إن يهودية هنرى كيسنجر لن تكون قيدًا عليه، بل لعلها تعطيه مناعة ضد جماعات الضغط اليهودية فى المجتمع الأمريكى.

٣ - إن هنرى كيسنجر يحسن الظن - كما بدا لى - فى قدرته على الحركة إزاء أوضاع السياسة الأمريكية الراهنة وأمام الضغوط الهائلة فى المجتمع الأمريكى - ومع ذلك فلقد أكون أول من يتمنى له النجاح إذا حاول وأول من يهنئه إذا وصل!

٤ - إن المستقبل العربي لا يستطيع أن يطمئن إلى جهد رجل واحد داخل أمريكا، ثم إنه ليس من حق العرب أن يتركوا أنفسهم للانبهار بأى بريق يحيط بهنرى كيسنجر من تأثير نجاحه فى أزمات أخرى، وإن كان هنرى كيسنجر بغير شك شخصية تدعو إلى الإعجاب.

٥ - إن هناك مشكلة فى نظرته العملية إلى القضايا، فهو من مدرسة تعتقد أن الحقيقة هى ما نراه هذه اللحظة وليست الحقيقة هى ما نظنه أو نعتقده - نتيجة لما جرى قبلها - وذلك تقليل لأهمية التاريخ فى الصراعات الكبرى.

٦ - إن حقائق القوة تسبق فى تقديره أى عامل آخر فى حسابات الأزمات وهذه

نقطة تدعو إلى اليقظة لأن حقائق القوة لا تتوقف عند لحظة معينة وإنما هى جدل بين الحوادث مستمر. وتطبيق ذلك عمليًا أنه إذا استطاعت إسرائيل تغيير أوضاع القوة فى الميدان، فلقد نجد أنفسنا مطالبين بقبول الأوضاع الجديدة كأساس جديد، وهذه بالضبط هى المشكلة التى قابلناها بعد قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣.

٧ - إن أهمية عنصر الزمن لديه تختلف عن أهمية عنصر الزمن لدينا، ذلك أننا تحت ضغوط من الأوضاع الراهنة العسكرية والسياسية والنفسية. ، وهذه الضغوط بالنسبة لنا هموم نهار وأرق ليل، ولكنها بالنسبة له مذكرات على ورق، وتصورات، واحتمالات على موائد بحث.

٨ - إننى لم أقتنع بعد كل ما سمعته منه بأن الرئيس الأمريكى الحالى فى وضع يسمح له بممارسة ضغط مؤثر على إسرائيل، وأتصور أنه إذا بدأ الرئيس الأمريكى بظروفه الحالية فى ممارسة ضغط على إسرائيل، - مع فرض أنه يريد ممارسة مثل هذا الضغط - فإن قوى الصهيونية فى الولايات المتحدة لن تتأخر عن تجريحه بأكثر مما هو مجرح فعلاً، ولسوف يحتاج الرئيس الأمريكى إلى شجاعة فائقة لكى يشرح للرأى العام الأمريكى أن هناك جماعات فى الولايات المتحدة لا يعنيها أن تصل الأمور إلى حد المواجهة النووية ولتغرق الدنيا بأسرها فى طوفان من الدمار إذا كان فى ذلك مصلحة لإسرائيل - وهذا مع العلم بأن اعتقادى - تأكد بالتجربة ولم يتزعزع - بقدرة الولايات المتحدة على الضغط - بل والإرغام - إزاء إسرائيل بما ليس متاحًا لغيرها فى العالم شريطة أن يكون الرئيس قائدًا ولا يكون الرئيس مقودًا!.

٩ - إن موازين القوة العالمية لها دخل كبير فى تقديراته، وبالتالى فإن علينا أن ندرك وبغير لبس أهمية الدور السوفيتى فى الأزمة، وهذا الدور لا يجب أن يكون عنصرًا مساعدًا أو عنصرًا مؤقتًا، وإنما لا بد لهذا الدور أن يتصل ويتأكد . . . تفاهمًا سوفييتيًا عربيًا عميقًا، وصداقة طويلة الأمد.

١٠ ـ لست أعتقد أن هناك اتفاقًا سوفييتيًا أمريكيًا محددًا ومفصلاً نستطيع أن نرتكن إليه، ثم إننى لا أعتقد أن هناك ضمانًا أمريكيًا نستطيع قبوله إزاء إسرائيل، وإذا كان هناك ضمان أمريكى فلست أعرف لهذا الضمان ما يضمنه إلا القوة العربية الشاملة [سياسية، اقتصادية عسكرية]، وربما من هنا آمال أعلقها على « مؤتمر القمة العربى» المنتظر لكى يحمل فى يده مستقبل الأمة العربية ويخطط له ويحميه فى كل الظروف.

أحاديث السلاح

مقابلة مع أحمد إسماعيل

١٨ نوفمبر ١٩٧٣

بدأ هذا اللقاء مع الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة المصرية - لقاء خاصًا ثم انتهى لقاء عامًا - أعنى أن هذا اللقاء بدأ بيننا زيارة عادية له فى مركز القيادة الذى أدار منه عمليات حرب أكتوبر، ثم خطر لي فى نهاية لقائنا أن أسأله:

ـ لماذا لا يكون بعض ما دار بيننا اليوم للناس أيضًا؟»

وقال القائد العام، باستقامة جندى طالت عشرته مع السلاح:

ـ لست أعرف: هل من حق الجنود أن يتكلموا؟ . . لست واثقًا: هل الوقت مناسب الآن؟»

وقلت له:

ـ إن الحرب فى العصر الحديث أصبحت جزءًا من الجهد السياسى الشامل للدولة، ولتحقيق مطالب شعبها فى سلامه وفى أمنه، والدولة الحديثة لا تستطيع أن تقوم بدورها إلا فى دائرة الضوء أمام شعبها وأمام العالم، وذلك لم يعد اختيارًا فى يد الدولة، وإنما أصبح ضرورة مفروضة عليها فى وقت أصبح فيه عطاء الجماهير فى الوطن أساسًا لأى جهد، كما أن تعاطف العالم الخارجى أصبح ضمانة لأى نجاح.

وأمس فقط كنت أتحدث مع الجنرال إندريه بوفر قائد حملة السويس سنة ١٩٥٦، ومدير مركز الدراسات الإستراتيجية فى فرنسا لسنوات طويلة، وكان مما قاله لي أندريه بوفر، إن الخلاف بينه وبين الأدميرال بارجو القائد العام لقوات الحلفاء فى حملة السويس، بدأ أساسًا بسبب الصحافة.

كان الأدميرال بارجو يريد الصحافة معه فى القيادة العامة ... وكان الجنرال بوفر يريد الصحافة معه فى مكتب العمليات.

وقال لي بوفر أن واحدًا من أهم أسبابا ارتباك حملة السويس - إلى جانب أسباب أخرى - يعود إلى أن الصحافة كانت بعيدة عن ميدان القتال، وبالتالى فقد كان هناك تضارب بين ما ينشر من مقر القيادة العام، الذى بقى بعيدًا فى مالطة، وبين ما هو جار على أرض العمليات فى بور سعيد وأمام شواطئها.

وقال لي بوفر: لم يعد ممكنًا لأي قائد فى العصر الحديث، إلا أن يعتبر الصحافة سلاحًا أساسيًا من أسلحته: كالطيران والمدرعات والبحرية ... إلى آخره».

واستطردت:

- إن الحرب الحديثة لم يعد ممكنًا إدارتها بعيدًا عن علم وفهم وتأييد الرأى العام الوطنى والدولى.

هذا من ناحية حق الجنود فى أن يتكلموا.

هناك سؤالك عن الوقت، وهل هو مناسب الآن:

إن الوقت مناسب باستمرار، وفيما يتعلق بنا فى مصر، فإنى أريد أن ألخص لك رأيى فيما يلى:

١ - لقد ثبت أن السلام لا يستطيع أن يعيش إلا فى حماية القوة.

٢ - إن القوات المسلحة المصرية قامت فى حرب أكتوبر بعمل مجيد.

٣ - إن أحدًا لم يعد من حقه أن يشك أو يشكك فى أهمية دور القوات المسلحة فى

حماية السلام القومى والأمن القومى لهذا الوطن، ثم إن أحدًا لم يعد من حقه أن يشك أو يشكك فى أن القوات المسلحة المصرية أثبتت قدرتها على القيام بهذا الدور.

ولقد رأينا كيف كانت أحوال هذا الوطن فى فترة أحس فيها بعجزه عن حماية سلامه وأمنه، إن أثر ذلك لم يقتصر على المجال السياسى، بل إنه امتد إلى حياة كل إنسان على هذه الأرض... . كرامته نفسها أصبحت مكشوفة معرضة... أكاد أصل إلى القول بأننا أحسسنا بنوع من التآكل الأخلاقى؟! نتيجة إحساسنا بقصور قوتنا عن حماية سلامنا وأمننا، إن كثيرين كانوا يعايروننا بشارع الهرم، والترخص الذى تفشى فيه بعد سنة ١٩٦٧، ناسين أن ذلك كان الوجه الآخر للهزيمة... إذا لم نكن قادرين بالقوة على حماية سلامنا وأمننا - إذن فماذا بقى لكى نحرص عليه... كل شىء يصبح بعد ذلك قابلاً للتصدع... قابلاً للتآكل... قابلاً للانهيار.

ولولا جهد خرافى فى إعادة بناء القوات المسلحة، لكى يستعيد هذا الوطن قدرته على حماية سلامه وأمنه، لسارت الأمة كلها على منطق ما تفشى فى شارع الهرم، التصدع... التآكل... الانهيار.

٤ - إن شباب هذا الوطن - وهم جنوده - هم أبطال العصر بغير جدال، لقد مضت أيام البطولة الأسطورية على القمة، لعلى واحد من الذين يؤمنون بأن «الأمة التى يظهر فيها البطل الأسطورى هى أمة فى مشكلة... وأما الأمة التى تنتظر ظهور البطل الأسطورى فهى أمة فى محنة». . . العصر إذن هو عصر الرجل العادى... بطولة الإنسان العادى، وذلك أثبتته لنا حرب أكتوبر، وهذه علامة تحول فى حياتنا لا بد أن نتمسك بها.

٥ - إن الآمال والأعمال والنتائج التى تحققت فى حرب أكتوبر، بعد هذا كله لا بد أن تكون مفتوحة، متاحة لأوسع الجماهير، لكى تعرف الحقيقة، وليس عيبًا أن

يقال إننا حققنا إلى هذا المدى... ولكننا حققنا. وليس عيبًا أن يقال إننا أخطأنا في هذه النقطة... ولكننا فكرنا وخططنا وقاتلنا ونجحنا بأكثر مما أخطأنا.

٦ ـ ثم لماذا لا ننظر إلى ما يفعله قادة إسرائيل... ندرسه وليس ضروريًا أن نقلده... إنهم يتكلمون ولم يكفوا حتى الآن عن الكلام، ولن يكفوا عنه، لأن كلامهم جزء من حربهم بتأثيره على الناس عندهم وعندنا وفي كل مكان.

وقال لي الفريق الأول أحمد إسماعيل.

ـ إنني أفهم وجهة نظرك، وربما كنت من أنصار قاعدة «أداء الواجب في صمت»...

واستطرد القائد العام.

ـ لعلك على حق، لعله من الضروري أن يعرف الناس ـ ومن هنا مباشرة ـ لمحات من صورة ما حدث... إن الوقت مبكر لرواية كل التفاصيل... لمحات مما حدث تكفي الآن... ولقد كنت أتكلم معك وفكرة النشر بعيدة عن خواطري... ومن هنا فإنك تستطيع أن تختار».

وقلت:

ـ إنك في كل ما تحدثت به إليَّ كنت حريصًا، وهذه طبيعة فيك، وحتى ما رويته لي من سر، لم يعد هناك خطر من إذاعته، ولذلك فلقد تأذن لي أن أعيد ترتيب وتركيب الحوار كما دار بيننا وبأكمله تقريبا.

أريد أن أجعل منه شبه محضر دقيق ـ قدر الإمكان ـ لما دار بيننا من حديث. . . إنك كنت تتكلم بدون حساب أو تحسب لاحتمال النشر على الناس... وذلك جعل الحديث أليفًا ومفتوحًا وصريحًا، وهذه قيمته التي أحرص على الاحتفاظ بها له... وإذا وافقت فإنني أحاول»

***

سيارة جيب عسكرية تصعد وتهبط على أرض وعرة، وأقول لضابط شاب صحبنى فيها إلى مركز قيادة العمليات.

ـ كأننى عدت إلى أيام شبابى، عندما كانت ميادين القتال البعيدة فى العالم عملى».

ثم وقفة أمام تل من الرمال، وفتحة فى تل الرمال يظهر داخلها باب حديدى كأنه باب خزانة ضخمة، ثم ممر طويل، ثم سلالم تنزل فى الأرض وتنزل، ثم باب حديدى آخر وممر طويل فى نهايته باب حديدى ثالث، ثم ينفسح المكان فجأة: قاعات اجتماعات، غرف عمليات، مراكز اتصالات، صالات خرائط، مكاتب، وأدخل إلى مكتب صغير منها، عليه لافتة تقول. «وزير الحربية والقائد العام»، ويلقانى الفريق أول أحمد إسماعيل، ويقول لي ضاحكا:

كنت تتحدث كثيرًا عن التكنولوجيا والحرب... تعال لترى غرفة العمليات... وقل لى رأيك بعدها».

وذهبنا عبر ممر أمام مكتبه إلى باب يفتح مباشرة على غرفة العمليات الرئيسية للقوات المسلحة المصرية.

قاعة كبيرة... أضواؤها باهرة... ألوانها بالخرائط حية، والخرائط ليست ألوانًا فقط، ولكنها حركة متدفقة... حول القاعة مجموعات تمثل قيادات أفرع القوات المسلحة كلها، كل مجموعة وراءها خرائطها وأمامها أدوات اتصالها بكل الجبهات... صدر للقاعة يعلو بمنصة لهيئة القيادة العامة. وزير الحربية والقائد العام، رئيس أركان الحرب، مدير العمليات.

فى مواجهة المنصة مجموعة الخرائط الرئيسية التى تمثل الموقف العام، مرسومة على مسطحات من الزجاج بعرض القاعة كلها. الموقف فى البر ـ الموقف فى الجو ـ الموقف فى البحر ـ الوضع على الجبهة السورية.

أجهزة الاتصال تدق، المشاورات تجرى بسرعة، الأوامر تصدر مشحونة، لمسات

ملونة تضاف على الخرائط المرسومة فوق مسطحات الزجاج، وفقًا لبيانات... الدقيقة... الثانية.

أشعر أن البقاء طويلاً فى هذه القاعة فضول لا مبرر له، ثم هو مضيعة لوقت آخرين له نفس قيمة الدم.

وأخرج من القاعة مع وزير الحربية والقائد العام، راجعين إلى مكتبه.

***

دار حديثنا فى مكتبه على النحو التالى.

هيكل - كان مشهد قاعة العمليات مهيبًا... الجو هناك فيه رائحة العصر، وفيه عطره وهذا مطمئن؟»

الفريق أول أحمد إسماعيل - كان يجب أن ترى هذه القاعة فى يوم «ي» - يوم ٦ أكتوبر - وكان يجب أن تراها فى ساعة «س» - ساعة الصفر - أى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم.

وقتها كانت تشعر حقيقة أن هذه القاعة لم تكن العصر وحده، وإنما كانت تاريخ مصر كله... سوف يبقى ذلك اليوم مشهودًا لمصر وجيشها مهما كان أو يكن.

كنا جميعًا فى مقاعدنا.

وكانت الخطط أمامنا، والعمليات تجرى أمام عيوننا، تحملها إلينا البلاغات من الجبهة.

المهمة «كذا» بدأ تنفيذها.

من الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر، كان المشهد فى هذه القاعة مثيرًا إلى أبعد حد.

كان العمل دقيقًا بأكثر مما يتصور أحد.

أنا نفسى كنت مأخوذًا بما يجرى... أثبتت الخطة كفاءتها... كانت المهام تنفذ بجسارة واقتدار.

كانت هناك لحظات تهز المشاعر إلى الأعماق، ولكننا لم نسمح لأنفسنا بأى انفعال.

ضربة الطيران الرئيسية الأولى ـ تمهيد المدفعية ونيرانها الكثيفة ـ موجات العبور الأولى ـ عمليات الاقتحام المبكرة لخط بارليف ـ بداية إقامة الجسور ـ الجيش الثانى يفرغ من إقامة جسوره فى الموعد المحدد ـ الجيش الثالث يتأخر بعض الشىء بسبب طبيعة الأرض فى إتمام إقامة جسوره ـ الهجمات المضادة للعدو بالدبابات تجىء فى الموعد الذى توقعناه فى الخطة ـ جسور الجيش الثالث لابد من تركيبها بسرعة لكى تعبر الدبابات قبل أن تبدأ الهجمات المضادة للعدو أمام الموجات الأولى التى عبرت بالأسلحة المضادة للدبابات... لابد أن نكون دباباتها وراءها بسرعة ـ أعصابنا يجب أن تظل قوية، لأن أى ارتباك فى مركز القيادة يحدث خللاً فى توازن العمليات كلها ـ العدو يقاوم على الجسور وفى الحصون ـ قواتنا تواصل تنفيذ مهامها ـ أبطال من رجالنا يستشهدون على الجسور وأمام الحصون، ولكنهم يعبرون ويقتحمون ـ خسائرنا أقل مما توقعنا ـ خسائر العدو أكبر مما توقع.

ليس لدى شك فى أننا حققنا انتصارًا كبيرًا.

قد أقول لك إننى أعتبر انتصارنا مضاعفًا، لأنني تمكنت بالخروج بقواتى سليمة بعد التدخل الأمريكى السافر فى المعركة.

قواتى ليست سليمة فقط وقادرة على الحرب، ولكنها ثابتة في مواقعها فى الشرق.

كانت سلامة قواتى شاغلى طوال الحرب، كانت ذاكرتى ما تزال تحمل صورة الموقف الذى دخلت إليه فى أول يوليو سنة ١٩٦٧، عندما عينت قائدًا لقوات الجبهة.

لم تكن هناك جبهة... ولم يكن هناك جيش.

كان كل شيء محطمًا ومهلهلاً.

وكان علينا أن نستعد لمرحلة الصمود كما سماها جمال عبد الناصر.

كان علينا أيضًا أن تستعد لحرب الاستنزاف كما سماها جمال عبد الناصر.

ولم يكن العدو يريد أن يعطينا الفرصة لالتقاط أنفاسنا... دخلنا معه بعد أيام قليلة، كما قد تتذكر، في معارك رأس العش.

ذلك كله كان في ذاكرتي.

ربما كان هناك من رأوا أنه كان علينا أن نقبل مخاطر أكبر... كنت على استعداد لأى مخاطر، ولاية تضحيات، ولكنى صممت باستمرار على هدف رأيته أمام عينى وأحسسته فى ضميرى: المحافظة على سلامة قواتى.

لقد كنت أعرف الجهد الذى أعطته مصر لإعادة بناء الجيش، وكان علىّ أن أوفق بين معرفتى بحجم هذا الجهد - الذى لا يمكن أن يتكرر بسهولة - وبين تحقيق هدفى الحربى. كنت أعرف معنى أن نفقد جيشنا... معناه أن تستسلم مصر، وإذا استسلمت مصر فقد ضاعت فى هذا الجيل لأجيال لاحقة.

هيكل - لقد قفزنا من البداية إلى النهاية بسرعة خاطفة... دعنا نعدْ إلى البداية مرة أخرى... أريد أن أسمع القصة كاملة بقد ما يمكن؟».

الفريق أول أحمد إسماعيل - عندما تسلمت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية فى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٢، كانت حالة اللاسلم واللاحرب هى الجمود الذى تحجرت به أزمة الشرق الأوسط وعن اقتناع، فقد كنت واثقًا أننا لن نخرج من هذه الحالة إلا بالقوة المسلحة... لن تقتنع إسرائيل بغير القوة المسلحة حتى تنسحب من أراضينا العربية المحتلة.

فى ذلك الوقت بدأت أفكر... كان شاغلى سؤالاً واحدًا:

- ما الذى نستطيع عمله...؟

كانت أوجه الاختيار المطروحة أمامى - وقد بحثتها وقلبتها على كل جنب - ما يلى:

هل نعود إلى حرب الاستنزاف؟

كان رأيى أن حرب الاستنزاف قد استنفدت أغراضها فى الفترة التى جربناها فيها، ثم إن إسرائيل لن تقبل بالعودة إليها، وأى محاولة من جانبنا لذلك سوف تواجه من إسرائيل برد فعل أقوى.

ومعنى ذلك أننى كنت أمام احتمال أن أقوم بعمليات صغيرة، وأتلقى فيها من العدو رد فعل كبير... أكبر بكثير من قيمتها السياسية والعسكرية.

وهكذا استبعدت حرب الاستنزاف.

بقى أمامى أن أفكر فى جهد أكبر... عمل أوسع وأشمل... يساوى على الأقل أن نقبل إزاءه رد فعل كبير من العدو.

أى: لتكن ضربتنا ضد العدو كبيرة، ولنكن مستعدين لضربة من العدو كبيرة، وهذه الضربة من العدو سوف تكون كبيرة على أى حال مهما كانت ضربتنا له محدودة.

وإذن فلتكن ضربتنا ضده أقوى ما نستطيع توجيهه.

كذلك كانت تصوراتى الأولى.

وفى وقت لاحق لتولى القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية تم الاتفاق على مستوى دولة الاتحاد، أن أتولى قيادة القوات المسلحة لدولة الاتحاد.

وأضاف ذلك الوضع الجديد إلى تفكيرى اعتبارا ثانيًا:

كان الاعتبار الأول: أن تكون ضربتنا كبيرة.

وجاء الاعتبار الثانى وهو:

أن تكون ضربتنا مشتركة من جبهتين.

وتكونت فى ذلك الوقت جماعة تخطيط، وضعت أمامها تصوراتى عن العدو وعنا.

كان تقديرى بالنسبة للعدو أنه يملك أربع ميزات أساسية:

● تفوقه الجوى.

● مقدرته التكنولوجية.

● تدريبه الدقيق.

● اعتماده على معاونة سريعة من الولايات المتحدة الأمريكية، تكفل له إمدادًا مستمرًا.

ولكن هذا العدو كانت له عيوبه الأساسية إلى جانب ميزاته الأساسية:

● خطوط مواصلاته طويلة، كما أن هذه الخطوط على الجبهات المتعددة ممتدة يصعب الدفاع عنها.

● أوضاعه البشرية لا تسمح له بتحمل خسائر كبيرة.

● ظروفه الاقتصادية تمنعه من قبول حرب طويلة.

● ثم هو عدو أصابه الغرور.

كان ذلك بشكل عام تقديرى للعدو، وكان علينا أن نحاول قدر ما نستطيع تلافى نقط امتيازه واستغلال نقط ضعفه.

ولست أريد أن أدخل فى تفصيل كل ما فعلناه لتحقيق هذا المنطق.

سوف أركز على نقطة واحدة ولعلها تشرح هذا المنطق، ثم لعلها تدل عليه.

لقد اخترت مثلاً أن يكون هجومنا على كل المواجهة... على خط يمتد ١٨٠ كيلو مترًا، هى طول القناة من بور سعيد فى الشمال إلى السويس فى الجنوب.

وكان ذلك فى إطار منطق تلافى نقط امتيازه، لأن الهجوم عى طول المواجهة بهذا الشكل سوف يفرض على العدو ما يلى:

١ ـ سوف يكون مرغمًا على توزيع ضرباته الجوية المضادة على قواتنا.

٢ ـ بسبب هذا التوزيع، فإن هذه الهجمات المضادة فى كل مكان، سوف تكون ضعيفة فى كل مكان، لأن المواجهة متسعة.

٣ ـ بسبب هذا الاتساع، فإن العدو لن يستطيع مبكرًا اكتشاف اتجاه المجهود الرئيسى لقواتنا المهاجمة، وبالتالى فإنه لن يستطيع التركيز عليه.

وعلى سبيل المثال فلقد تصورنا، وخططنا، ونفذنا بالفعل عندما بدأت العمليات مجموعة كبيرة من الكبارى ورءوس الكبارى، وكان ما نفذنا أكثر مما كنت أحتاجه فعلاً، وكنت مستعدًا لاحتمال تدمير بعضها، ولكنها جميعًا نجحت وفشل العدو فى تدمير أى منها.

٤ ـ بسبب هذا الاتساع مرة أخرى، فإن العدو سوف يتأخر فى رد فعله بالهجمات المضادة على الأرض، لأنه سوف ينتظر لكى يكتشف اتجاه المجهود الرئيسى لقواتنا وبعده يتحرك.

هكذا بدأ تفكيرنا... وثبت عند بدء العمليات أنه كان سليمًا.

هيكل ـ سوف أعترضك هنا بسؤال: هل تعتقد أن العدو اكتشف نوايا الهجوم قبل أن يبدأ بساعات... إننى سمعت أن ذلك حدث فعلاً... حدث فعلاً فى الصباح الباكر من يوم ٦ أكتوبر أن المخابرات الإسرائيلية تأكدت من نية الهجوم لدينا، واتصلت الحكومة الإسرائيلية بالحكومة الأمريكية تبلغها بذلك.

فهمت أن السفارة الإسرائيلية فى واشنطن أيقظت الدكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية فى الساعة السادسة صباحًا بتوقيت واشنطن، أى الواحدة بعد الظهر بتوقيت القاهرة ـ قبل ساعة الصفر بساعة كاملة ـ وأبلغته بمعلومات لدى الحكومة الإسرائيلية بهجوم سرى وشيك.

فى الساعة السادسة وثلاث دقائق اتصل الدكتور كيسنجر بإدارة المخابرات المركزية الأمريكية، وسأل عن تأكيد لهذه المعلومات، ويبدو أنهم أكدوها له من مصادر أخرى نقلتها إليهم قبل دقائق.

وفى الساعة السادسة وسبع دقائق اتصل الدكتور هنرى كيسنجر بالرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون... أيقظه من النوم وأبلغه... ويبدو أن التقديرات الأولى كانت تشير إلى أن الحشود واحتمالات الهجوم هى من آثار التوتر السائد فى المنطقة، ومن إحساس كل طرف من الطرفين بأن الآخر يستعد للتحرش به، وهكذا اتصل الدكتور هنرى كيسنجر فى الساعة السادسة وعشر دقائق بوزير الخارجية المصرية، وكان فى نيويورك وقتها، وأبلغه على التليفون بما وصلهم من معلومات وأكد له - إذا كانت الحشود المصرية تحسبًا لهجوم إسرائيلى محتمل - فإن إسرائيل لاتنوى أن تهاجم، وأنه لمصلحة الجميع أن يضبطوا أعصابهم.

كل ذلك كان قبل ساعة... أو ساعة تقريبًا من ساعة الصفر.

وسؤالى هو: هل أحسست مما كان أمامك فى ميدان القتال أن العدو أحس؟».

الفريق أول أحمد إسماعيل - أمامنا فى ميدان القتال أحسست بأن المفاجأة بالنسبة لهم كانت كاملة.

لقد كانت لهجة التبليغات من المواقع الإسرائيلية المتقدمة إلى قياداتها توحى كلها بالمفاجآت الكاملة.

كانت هذه التبليغات تحمل عصبية لا تصنعها غير المفاجأة.

وفى الحقيقة فإن المنظر الذى رأوه أمامهم بعد المفاجأة الأولى كان منظرا مخيفا من وجهة نظرهم... عظيما من وجهة نظرنا.

وقد بدءوا يضربون ضربات طائشة... ثم بدأت هجماتهم المضادة مرتبكة... ثم أخذوا يتمالكون أعصابهم ويردون... لكن قواتنا كانت تتدفق من الغرب على الشرق... وفى الساعات الأولى من القتال لم تكن الدبابات قد دخلت وإن كانت قد

دخلت عناصر مضادة للدبابات انتظارًا لهجمات العدو المضادة على قواتنا التى لم تكن دروعها قد لحقت بها بعد...

لكن كل شىء كان يسير وفق ما قدرناه... وربما أحسن مما قدرنا.

كنا على استعداد لخسائر فى العبور كبيرة لأنه كان علينا أن نقتحم طريقنا مهما كان الثمن... ولقد ضحينا ولكن تضحياتنا كانت أقل مما قدرنا لأن الإنسان المصرى كان فى هذه الساعات الحاسمة على مستوى إحساسه بتاريخه وعلى مستوى أمله فى مستقبله.

هيكل - لقد قاطعتك بهذا السؤال عن المفاجأة... هل نعود إلى السياق الذى كنت تتحدث به... لقد تكلمت عن العدو وعن تصوراتك إزاءه، وهذه التصورات أخذت اعتبارها فى التخطيط... ماذا عن ناحيتنا نحن.. عن قواتنا؟

الفريق أول أحمد إسماعيل - كانت المشكلة بالنسبة لقواتنا أن الظروف فرضت عليها أن تعيش ست أو سبع سنوات فى الدفاع... معظمها فى الدفاع الجامد... والقوات على هذا النحو، أى قوات فى الدنيا، معرضة لما نسميه فى العسكرية «بمرض الخنادق».

كان لابد أن نتخلص من تأثير مرض الخنادق وعقده.

وركزت فى تلك الفترة على مجموعة ضرورات، رأيت أننا بغيرها لن نستطيع عمل شىء... أى شىء.

● أولى هذه الضرورات أن تقتنع القوات بأنه لا مفر من القتال... ولا حل بدونه.

وقمت بزيارات للقوات المسلحة فى مواقعها أشرح الظروف للرجال وأقول لهم إن الوضع الذى نحن فيه لابد من تغييره، وإذا لم نغيره نحن فإن العدو قد يفرض علينا التغيير، ومعنى ذلك أننا إذا لم نبدأ بالقتال فإن العدو سوف يبدأ هو بالقتال لأن حالة اللاسلم واللاحرب غير مقابلة للاستمرار إلى ما لا نهاية.

وكانت الثانية بين الضرورات أن يأخذ الرجال ثقة فى سلاحهم، وكنت أريد

تغيير المفهوم القديم، بأن الرجل بالسلاح، والحقيقة أن السلاح بالرجل... إذا لم يكن واثقًا من نفسه فلن يحميه أى سلاح، وإذا كان واثقًا فإن كل سلاح فى يده يحميه.

ربما نستطيع أن نفهم ذلك فى التطبيق العملى إذا تذكرنا أن طائرة من طراز ميج ١٧ تمكنت أثناء القتال من إسقاط طائرة فانتوم، وهذا ما أقصده بأن السلاح بالرجل... وليس الرجل بالسلاح.

وكانت الثالثة بين الضرورات وهى تتصل بذلك مباشرة: أن يكون التدريب تدريبًا كثيفًا. إذا كنت أقول إن السلاح بالرجل، فذلك يعنى أول ما يعنى قدرة الرجل على استيعاب سلاحه والسيطرة الكاملة عليه.

وكانت الرابعة بين الضرورات أن أجعل قوات أدركت حتمية القتال، وعرفت قيمة سلاحها، وأحسنت التدريب عليه - ترى رأى العين ما سوف تواجهه وتكسر الرهبة ما بينها وبينه.

وهكذا بدأت أختار للتدريب ميادين قريبة الشبه إلى أقصى حد بظروف وطبيعة المهمة التى سوف تقوم بها القوات وأولادها عبور القناة!

اخترنا مناطق التدريب فيها مجار مائية بعمق القناة تقريبا، وعليها سواتر بارتفاع سواتر القناة.

وفيها تيارات بقوة تيارات القناة.

بل إننا فى بعض المرات أجرينا تدريباتنا على القناة نفسها فى منطقة كانت القناة فيها تمتد فى فرعين، أحدهما إلى ناحيتنا وكان تحت السيطرة الكاملة لقواتنا.

فى ذلك الوقت كانت الخطة العامة لما سوف نقوم بها تختمر...

تتبلور.. تظهر ملامحها شيئا فشيئا بالدراسة المستمرة والتطوير الدءوب».

هيكل - هناك سؤال سوف يظل مطروحا لمناقشات طويلة عندنا وعندهم.. ناحيتنا

وناحية العدو، كنا نقول إننا لا نستطيع أن نكتم سرا، وكنا نتصور أن العدو من ناحيته يستطيع اختراق أى سر.. كيف فاتهم أن يروا ما كان يحدث؟».

الفريق أول أحمد إسماعيل - فى كل حرب هناك خطة العمليات، وهناك خطة الخداع، وأعتقد أننا نجحنا، فلقد وضعنا خطة الخداع على المستوى الإستراتيجى والتعبوى ووضعت لها توقيتات وجداول سارت جنبا إلى جنب مع خطة العمليات وتوقيتاتها وجداولها.

سوف أتحدث إليك بعد قليل عن العوامل التى دفعتنا إلى اختيار يوم «ى» يوم بدء العمليات، وإلى اختيار ساعة «س» ساعة الصفر أو ساعة بدء العمليات.

لكنى الآن أقول لك إننا وصلنا فى الكتمان إلى درجة أن يوم «ى» لم يكن معروفا بعد تحديده مبدئيا إلا من اثنين: الرئيس وأنا.

وحتى عندما بدأنا العد التنازلى من يوم «ى» بالناقص، وكان ذلك قبل شهر من بدء العملية، (ى) ناقص ٣٠، (ى) ناقص، ٢٩، (ى) ناقص ٢٨، وهكذا فإن السر ظل محصورا.

وعندما بدأنا الحشد وأنا أعرف أن العدو يستطلع كل يوم، فلقد كنت أدفع إلى الميدان بلواء مثلا... وأعود فى الليل بكتيبة لكى يشعر العدو أن القوات التى ذهبت كانت فى مهمة تدريب أدتها وعادت منها.

ولقد أخرت إرسال معدات العبور إلى أقصى حد ممكن، فقد كان مؤكدا أن خروج هذه المعدات من مخازنها كفيل بتنبيه العدو إلى نوايانا، ولقد صنعنا لبعض هذه المعدات صناديق خاصة لا يشعر أحد أن اللوارى الضخمة التى تحملها لوارى مهندسين. ثم رتبنا لهذه المعدات حفرًا على جانب القناة نزلت إليها فور وصولها فى الليل.

كانت الخطة خلال هذا كله بالطبع قد اكتملت إلى آخر التفاصيل... بل إلى تفاصيل التفاصيل، وكان ذلك طوال الوقت بالتنسيق مع سوريا.

وقبل أيام قليلة من يوم «ى» كانت تفاصيل الخطة تنزل من قادة الجيوش إلى قادة الفرق، ثم قادة الألوية، ثم قادة الكتائب.

بعض الجنود من طلائع الهجوم عرفوا قبلها بثمان وأربعين ساعة، وبعضهم عرفوا فى الصباح يومها.

ولقد تتذكر أننا تعمدنا تسريب أنباء تصرف الأنظار تمامًا عن نوايانا.

أذعنا مثلاً أن وزير دفاع رومانيا قادم فى زيارة لى يوم ٨ أكتوبر.

طلبنا منكم فى «الأهرام» مثلاً نشر خبر بأننى فتحت الباب لقبول طلبات الضباط والجنود الراغبين فى أداء العمرة».

هيكل - لقد كانت هذه مرة من مرات قليلة نادرة نشر فيها «الأهرام» خبرًا غير صحيح... لكنى رضيت بنشره عارفًا القصد منه، ولقد قبلنا «للأهرام» أن يكذب لأننا تمنينا لعمليتك أن تصح».

الفريق أول أحمد إسماعيل - لقد كنت واثقًا أنك سوف تبلعها وتسكت. المهم فى كل ما قلت إن التخطيط لعملية الخداع الاستراتيجى كان على مستوى رفيع وناجح.

هناك مسألة أخرى لابد أن أشير إليها الآن قبل أن أدخل معك فى تحديد يوم «ى» وفى تحديد ساعة «س».

وهذه المسألة هى أننى أحسست مع تقدم مراحل التخطيط بأنه يتحتم علينا أن نقوم بعمليتنا من قاعدة وطيدة، وقد أحسست أن دفاعاتنا فى القناة ينقصها التحصين الكافى، وهكذا بدأت أبنى دفاعاتنا استعدادًا للهجوم.

كان علينا أن نبنى ونرفع مواقع قادرة على التحكم فى الشاطئ الغربى للقناة وفى الشاطئ الشرقى أيضًا.

كان خط بارليف أمامنا يكشف مواقعنا.

ورحنا كما قلت لك نبنى ونرفع ونكشف الضفة الشرقية ونتحكم فيها، وكان ذلك عملاً صعبًا، غاليًا فى تكليفه، ولكنه كان ضروريًا حتى استطيع مساعدة قواتى وهى تعبر من الغرب إلى الشرق، ثم حتى أستطيع حماية قواتى للحشد وإخفاءها قبل التقدم لمفاجأة العبور.

كان ذلك يعطينا ثباتًا فى المواقع، ثم إنه كان يعطينا ميزة فيما لو أحسّ العدو بنوايانا، وحاول القيام بضربة إحباط أو بضربة إجهاض... كان ذلك يمكننا من صده وتدميره».

هيكل - هل تنتقل إلى عوامل تحديد يوم «ى» وتحديد ساعة «س»؟

الفريق أول أحمد إسماعيل - لقد كان تحديد يوم «ى» عملاً علميًا على مستوى رفيع، وحين نطرح وثائقنا كلها للدراسة التاريخية فإن هذا العمل سوف يأخذ حقه من التقدير وسوف يدخل التاريخ العلمى للحروب كنموذج من نماذج الدقة المتناهية والبحث الأمين.

كان لابد أن يتحرك الموقف من وجهة نظر التقدير السياسى سنة ١٩٧٣ بعد وصول التأييد العربى والعالى لنا فى كل المجالات إلى الذروة العالية التى لا مجال بعدها لإضافة إلا إضافة نصنعها نحن بقوة السلاح.

هذا من وجهة نظر عامة:

ومن ناحية التحديد فقد كنا نريد ما يلى:

١ - ليلة مقمرة يتصاعد فيها القمر معنا فى الساعات الحاسمة.

٢ - ليلة يكون تيار القناة فيها مناسبًا للعبور من ناحية السرعة.

٣ - ليلة يكون عملنا فيها بعيدًا عن توقعات العدو.

٤ - ليلة لا يكون فيها العدو نفسه مستعدًا للعمل.

هذه الميزات حددت لنا يوم ٦ أكتوبر من قبلها بشهور.

١ ـ الحسابات الفلكية تعطينا فى تلك الليلة قمرًا ينمو فى أول الليل، ثم يغيب فى آخره.

علماؤنا فى القوات المسلحة درسوا تقارير هيئة قناة السويس لسنوات طويلة سبقت لكى يحسبوا سرعة التيارات فى كل يوم من أيام السنة، وكان يوم ٦ أكتوبر أكثرها مناسبة.

٣ ـ العدو لا يتوقع منا العمل فى شهر رمضان.

٤ ـ العدو مشغول بمناسبات مختلفة بينها انتخاباته العامة التى تشد اهتمام الجميع.

لقد كان شهر رمضان هو الذى أوحى لنا باختيار الاسم الرمزى لعملية الهجوم... كان الاسم الرمزى هو «بدر» تيمنا بغزوة بدر.

كان الرئيس من وجهة نظره السياسية يسميها عملية (الشرارة). وأما الاسم الرمزى فى كل خططنا العسكرية فقد كان «بدر».

ذلك ما أستطيع قوله الآن عن تحديد يوم «ى».

وأما عن تحديد ساعة «س» ـ فقد ظل الموعد إلى أيام قبل بدء القتال موضوع مناقشة بيننا وبين إخواننا فى سوريا.

كان السوريون لعدة أسباب من بينها اتجاه الشمس معهم وضد العدو يفضلون العمل مع أول ضوء فى الفجر.

وكنا نحن ـ لعدة أسباب من بينها إلى جانب اتجاه الشمس، وضرورات العبور ونصب الكبارى وفتح الطريق لدخول المعدات الثقيلة كالدبابات فى ظلام الليل ـ نفضل العمل فى آخر ضوء فى المساء.

وكنت بوصفى قائدًا عامًا للجبهتين قد بعثت إلى السوريين يوم ٢٠ سبتمبر بإشارة التحذير بأن العملية محتملة فى أى وقت ـ رهنًا بإشارة تقول «بدر».

وسافرت بنفسى يوم ٢ أكتوبر إلى سوريا وتناقشنا حول الساعة، وبعد دراسة تفصيلية صدق عليها الرئيس حافظ الأسد تحددت الساعة الثانية بعد الظهر موعدًا «لساعة س».

وعدت من سوريا فقصدت إلى مركز قيادة العمليات وبقيت هناك لم أخرج لعدة أيام... كان أول يوم رأيت فيه الشارع بعدها هو اليوم الذى ذهبت فيه مع الرئيس إلى مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر».

هيكل ـ لم نصل بعد إلى ٦ أكتوبر هل نعود إلى ٥ أكتوبر... وتأذن لى أن أسألك ماذا كان شعورك؟».

الفريق أول أحمد إسماعيل ـ كان شعورى مزيجًا من أحاسيس كثيرة، ولكنى أستطيع أن أقول إننى كنت متفائلاً... كنت قد ناقشت الخطة مع القادة... قمت بتدقيقها ـ كما يقولون فى التعبير العسكرى... مع الذين سوف يقومون بتنفيذ مهامها... ذهبت بنفسى إلى الجيشين الثانى والثالث المكلفين بالهجوم، وأحسست أن القادة على كل المستويات مقتنعون بما كلفوا به من مهام.

كان اقتناعهم بالنسبة لى أهم من مجرد إطاعة الأوامر.

كنت أيضًا قد رأيت تجارب تثبت قدرة الإنسان المصرى على الابتكار وعلى مواجهة المواقف الصعبة.

كانت هناك معالجات وابتكارات جديدة فى صنع كبارى العبور.

كانت هناك معالجات وابتكارات جديدة فى عملية فتح الساتر الترابى... كنا فى تجاربنا لفتح هذا الساتر الترابى على القناة قد جربنا المدافع بكل العيارات فلم تحقق ما نرجوه، وجربنا المفرقعات بكل الوسائل فلم تحقق ما نرجوه، ثم جربنا اندفاع الماء بقوة فتحقق لنا ما نرجوه واستقر رأينا على الماء ولم نأت بالمعدات اللازمة لذلك ـ نأخذ الماء من القناة ونوجهه بقوة قذف جبارة إلى السواتر الترابية فإذا هى تنهار ـ إلا فى آخر لحظة حتى يظل سرنا مأمّن.

كانت هناك معالجات وابتكارات جديدة فى فتح الثغرات واقتحام المواقع الحصينة.

فوق ذلك كانت هناك ثقتى بالضابط والجندى المصرى...

لم تكن ثقتى غيبية ولكنها كانت ثقة علمية... كنت أعرف أن كليهما - الضابط والجندى - إذا كلف بمهمة اقتنع بها وإذا حمل سلاحاً وثق فيه، وإذا أحس أنه جزء من جهد كبير يعرف لنفسه هدفًا - فإنه لن يتوقف قبل بلوغ هذا الهدف.

لو أنك رأيت اندفاعهم.

لو أنك رأيتهم بالإعلام فى أيديهم يعبرون الجسور وسط النار.

لو أنك رأيتهم يقتحمون المواقع الحصينة بأجسادهم قبل سلاحهم.

لو أنك رأيت هذا كله لأدهشك... أعود معك إلى يوم ٥ أكتوبر... كانت مشاعرى كما قلت مزيجًا من أحاسيس كثيرة، وأتذكر أن الرئيس جاءنا يومها فى مركز القيادة، وأتذكر أننا سويًا هو وأنا وجميع القادة من أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة تعاهدنا أمام الله بأن كلاً منا سوف يبذل قصارى جهده.

كانت هناك عمليات تجرى فى ذلك اليوم ولكنها كانت تجرى فى صمت.

كانت هناك دوريات تسللت فى هدوء لنظرة استكشاف أخيرة على النقط الحصينة وما وراءها من خط بارليف.

كانت هناك جماعات لقص الخراطيم التى كان مفروضًا طبقًا لخطة العدو أن تحمل كميات هائلة من السولار وتلقيها فى القناة لكى تشتعل بالنار عند الإحساس بأول هجوم، ولتكن من هذه النار أول عقبة ضد العبور خصوصاً بقوارب المطاط.

لقد قصوا الخراطيم ولم يتنبه العدو إلى أن ذلك جزء من مخطط أكبر.

اكتشفوا قص الخراطيم فى أحد المواقع وجاءوا بمهندس لإصلاحه، وكان هذا

المهندس ما زال يقوم بعمله عندما وجد قواتنا فوق رأسه وكان واحدًا من أول الأسرى فى أيدينا.

وجاءت ساعة «س» ساعة الصفر.

وبدا كل شىء يتحرك وفقاً للخطة.

ضربة الطيران الرئيسية: مائتا طائرة تقوم بالضربة الأولى على مواقع العدو الحساسة فى الجبهة المصرية، ومائة طائرة تقوم بالضربة الأولى على الجبهة السورية.

تمهيد هائل بالمدفعية: ألفا مدفع تهدر فى نفس الوقت على أربع قصفات متلاحقة...

موجات الهجوم الأول: فجأة وجد العدو أمامه ثمانية آلاف رجل ينزلون إلى قوارب المطاط وغيرها من الوسائل ويبدءون العبور تحت النار.

العدو يقاوم من النقط الحصينة لخط بارليف على طول القناة، والدبابات الرابضة فى مكامنها بجانب النقط الحصينة وأوكار المدفعية التى تعززها تشارك فى صد موجات الهجوم الأولى.

جنودنا يصلون إلى النقط الحصينة برغم كل مقاومة.. بعض النقط الحصينة عنيدة فى دفاعها، ولكن جنودنا يقتحمون والمعارك بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية داخل الحصون.

كانت أصعب اللحظات بالنسبة لى هى الساعات التى سبقت دخول الدبابات خصوصًا فى قطاع الجيش الثالث.

إن الجيش الثانى نصب جسوره وأخذ دباباته وراءه فى الوقت المحدد.

أما فى قطاع الجيش الثالث فقد اكتشفنا أن الساتر الترابى أعمق مما قدرنا...

كان فى بعض المواقع بعرض مائتى متر ولم تكن الأرض صالحة لنصب كبارى

العبور، لكن المهندسين كانوا فى أعظم لحظات حياتهم، ولقد بعثت مدير سلاح المهندسين بنفسه إلى مواقع جسور الجيش الثالث وطلبت منه إتمام المهمة بأى ثمن وأتمها واستشهد نائب مدير سلاح المهندسين على أحد جسور العبور.

قواتنا البحرية تتحرك لضرب أهداف حيوية للعدو على شاطئ البحر الأبيض وعلى شاطئ البحر الأحمر.

قواتنا الخاصة تنزل وراء خطوط العدو فى عمق سيناء لتضرب خطوط إمداده ولتعطل هجماته المضادة وتعرقلها.

التدفق من الغرب إلى الشرق مستمر فى نفس الوقت... لا يتوقف ولا ينقطع.

فى أربع وعشرين ساعة

كانت لدينا فى الشرق خمس فرق كاملة.

ذلك شىء لم يحدث مثله من قبل تاريخ الحروب.

وبدأت قواتنا فى توسيع وتعميق وضم رءوس الكبارى ليصبح لنا ثلاثة رءوس أساسية فقط، وفى نفس الوقت فلقد كانت أول مهمة باشرناها - وهذه من مفارقات المعركة - أن نبدأ بعملية نسف مواقع خط بارليف وأن نزيلها من مكانها وإلى الأبد محتفظين بواحدة منها للعبرة والذكرى... فى أول يوم دمرنا ١٤ موقعًا، وفى اليوم التالى تسعة، وهكذا حتى تحولت النقط الحصينة، حلم إسرائيل فى الأمن المطلق، إلى أنقاض وركام.

هيكل - أريد أن أسألك، وقد تأذن لى أن أكون صريحًا، عن السبب الذى من أجله لم يجر تطوير هجومنا الشامل بالسرعة الواجبة فى رأى بعض الخبراء.. إن هذا البعض من الخبراء يرون أن النجاح الهائل لعملية العبور لم يجر استغلاله بسرعة، وهناك تساؤلات كثيرة فى هذا الصدد.

هل كان تخطيطنا المسبق لافتتاحية العبور العظيمة وحدها؟

هل لم نستطع أن نرى الفرصة المتاحة لنا؟

هل كنا أكثر بطئًا مما يجب... أو ماذا حدث بالضبط؟

الفريق أول أحمد إسماعيل - إن هذه الأسئلة كلها يجب أن تطرح وليس هناك ضرر في رأيي من طرحها، وإن كانت الإجابة الكاملة عنها لابد من أن تنتظر إلى وقت نكون فيه أكثر إحساسًا بالأمان حتى نفتح أوراقنا ونطرح صورة الوقائع كلها لبحث مستفيض، أثق أننا لابد أن نأخذ منه دروسًا مستفادة.

لكني أريد أن أجيب بسرعة عن بعض هذه التساؤلات.

وسوف آخذ النقط التي أثرتها في سؤالك واحدة بعد واحدة.

● هل خططنا للعبور وحده؟ بالطبع لا...

لقد كانت لدينا خطة أوسع بكثير، وكان لابد أن تكون لدينا خطة أوسع بكثير، لأن الحرب حوار بين تخطيط وتخطيط.. قوة نيران وقوة نيران... مقدرة حركة ومقدرة حركة.

وليس معقولا أن تكون لدينا خطوة واحدة نتعطل بعدها فلا نعرف كيف نواصل الحوار بالتخطيط وبالنيران وبالحركة.

بالطبع فإن عملية العبور أخذت جزءًا كبيرًا من اهتمامنا، لأنها كانت المدخل، ولأنها كانت خطوة درسنا كل تفاصيلها، لأننا عرفنا أننا سنبدأ بها، وهذه ميزة الأخذ بزمام المبادأة.

ما يجيء بعد ذلك؟... احتمالات متعددة مدروسة.

وقد حسبناها إلى أقصى حد، ولكن الأمر في النهاية كان يتوقف على ما سوف يقوم به العدو، وبالتالي فإن خطة العبور كانت خطة كاملة إلى النهاية.

وكان ما بعدها قد شمله التخطيط، ولكن اختيار الاحتمالات كان متوقفًا على رد فعل العدو.

● هل لم نستطع رؤية الفرصة؟

إن الموضوع بالنسبة لى لم يكن مسألة فرص، وإنما كان مسألة حسابات، ومهما وجدت من فرص تبدو متاحة أمامنا فقد كان علىّ أن لا أغامر...

إننا بدأنا العملية فى حماية شبكة الصواريخ الشهيرة.

وإذا كان علىّ أن أتقدم بعدها، فقد كان لابد - سواء كانت هناك فرص يراها غيرى حتى أو أراها بنفسى - أن أنتظر حتى أتأكد أن قواتى وراءها الحماية الكافية.. كان لابد أن أعطى الفرصة لمدرعاتى بالدخول وكان لابد أن أعطى الفرصة لصواريخى المتحركة المضادة للطائرات بالدخول.

إن قواتنا الجوية قامت بعمل بطولى.

ولكن لو أنى دفعت بقواتى وراء الفرصة المتاحة التى يتحدثون عنها، ولم تكن دفاعاتى ضد تفوق العدو الجوى جاهزة، لكان معنى ذلك أننى ألقى العبء كله على الطيران، وأحمله بما لا يطيق، فى وقت أعرف فيه أن الساعات الصعبة ما زالت أمامنا.

● هل كنا أبطأ مما يجب؟ لا أعرف... ما أعرفه هو أننى التزمت بالتخطيط... كان التخطيط.. الخطة الأصلية أقصد، يقتضى وقفة تعبوية بعد إتمام العبور، وبعد تأمين رءوس الجسور... وقفة أعيد فيها تقدير الموقف على ضوء رد فعل العدو، وأتأهب للخطوة التالية، وأتخذ لها احتياطاتها الكافية وأتقدم.

إن الوقفة التعبوية لم تكن فترة سكون، ولكنها فترة تقبل لهجمات مضادة من العدو وتدميرها، وربما لا ننسى أننا فى فترة تقبل الهجمات المضادة للعدو وصدها، دمرنا له خمسمائة دبابة، وليس ذلك بالشىء القليل.

ومع ذلك، ولست أظننى بذلك أذيع سرًا لا يعرفه العدو، فإننا اضطررنا إلى القيام بهجوم واسع بأسرع من الوقت المناسب، وكان هدفنا من ذلك تخفيف الضغط على سوريا، ولقد حدثت معارك ضخمة بالمدرعات وكانت هذه المعارك خارج نطاق الصواريخ، وحينما أحسست أننا اضطررنا العدو إلى سحب جانب من

قواته العاملة على الجبهة السورية إلى جانب تحويله لمجهود طيرانه من هناك إلى جانب إسراعه بالاحتياطى إلى ناحيتنا - فإننى فضلت العودة إلى رءوس الجسور، نواصل تدعيمها، ونجعل منها صخرة تتحطم عليها الهجمات المضادة للعدو».

هيكل - سوف أسأل مرة أخرى، ولعلك تقبل منى إلحاحى... هل كنا تقليديين أكثر مما يجب؟»

الفريق أول أحمد إسماعيل - أريد أن أسألك هل كان تخطيط وتنفيذ عملية العبور التى رأيت وسمعت بنفسك تقدير خبراء العالم لها... هل كان ذلك عملاً تقليديًا... إن الذين سمعونى أتحدث إلى القوات عرفوا أن أكثر ما كنت أحذر منه هو أن نكون تقليديين.

لم أكن أريد أن نكون تقليـــديين... وفى نفس الوقت فلم أكن أريد أن نكون مغامرين.

الحرب قضية أكبر بكثير من المغامرة...

هيكل - سوف أسألك إذن عن الثغرة... كيف حدثت؟... لماذا سمحنا بحدوثها؟... لماذا تضاربت البيانات الرسمية حولها؟.. لماذا هوّنا من أمرها على النحو الذى هوّنا به، فقلنا فى البداية إنها سبع دبابات تسللت بالليل، ثم قلنا إننا حرقنا معظمها، ثم قلنا إننا أنذرنا الباقى بالاستسلام أو بالدمار... ثم فجأة بدأت بياناتنا تتحدث عن القتال على ضفتى قناة السويس؟

هنا مسألة عسكرية..

هنا أيضًا مسألة نفسية... وإعلامية.

إن العملية من الناحية العسكرية بدت صدمة لانتصارنا.

ثم إنها من الناحية النفسية بدت صدمة لثقتنا فيما يقال لنا؟

الفريق أول أحمد إسماعيل - سوف أبدأ بالنقطة الثانية، وأسلم معك على طول

الخط بأن علاجنا لهذه الثغرة من ناحية البيانات لم يكن على النحو الذى تمنيته والتزمت به من أول لحظة فى الحرب، وهو أن لا نقول غير الحقيقة.

وأريدك أن تعرف على الفور أننى لم أقصد فى أى لحظة أن أقول فيما يتعلق بهذه الثغرة - أو أسمح لغيرى أن يقول - شيئًا غير الحقيقة.

ومعنى ذلك أن ما قلناه عكس فى معظم الأحيان صورة ما كنا نراه...

وأعترف أن رؤيتنا للصورة مهتزة لأسباب عديدة، ولكننا حاولنا أن نعبر عما نراه.

لقد كنت أعرف من البداية أن جزءًا كبيرًا من نجاح الحرب يرتهن بثقة الناس فى صدق ما نقوله عن حقيقة ما نفعله، ولهذا فإننى طلبت التزامًا دقيقًا فى صياغة البيانات.

وكانت هناك شكاوى عديدة تصل إلىَّ من قلة البيانات الرسمية، ومن قلة المعلومات التى تذاع عن المعارك، ولكنى وضعت قاعدتين:

● **الأولى**: أن نقول ما نستطيع قوله مما لا يكشف خططنا وأوضاعنا للعدو - وربما كنا متزمتين فى ذلك بعض الشىء، ولكن التزمت كان فى رأيى أفضل من التسيب، خصوصاً إذا كان الأمر متعلقًا بالحرب.

● **والثانية**: هى أن ما نقوله يجب أن يكون صادقًا... ولكى أكون صريحًا معك، يجب أن يكون قريبًا من الصدق.

هذا عن الناحية النفسية فى علاج الثغرة.

أعود إلى الناحية العسكرية، وأقول بصراحة أيضًا أن صورة ما جرى فعلاً كانت مهتزة أمامنا لعدة اعتبارات.

كانت المعلومات الأولى التى تلقيتها عن العملية، وقد وجدتها فى انتظارى بعد أن عدت من جلسة مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر، تشير إلى أعداد صغيرة متسللة من

الدبابات البرمائية، وكان تقدير قيادتنا المحلية فى موقع التسلل أن القضاء عليها بسرعة أمر ممكن، وبالفعل فإن القائد المحلى حرك كتيبة صاعقة لمواجهتها.

كان هذا سببًا.

سبب ثان: هو أن المعلومات تقطعت نتيجة اعتبار يتصل بتبادل فى المسئوليات أجريناه لظروف طارئة فى بعض القيادات.

سبب ثالث: أن العدو استطاع أن يخفى دباباته المتسللة فى منطقة الثغرة، وهى منطقة حدائق فاكهة، ساعدت على التخفى فى المراحل الحرجة من بداية عمليته.

سبب رابع: هو أن العدو استمات فى فتح هذه الثغرة، ذلك أنه ألقى بثقله كله فيها، وكان على استعداد لتحمل أية خسائر لتحقيق هدفه، وربما كان يريد إرغامنا على أن نسحب من قواتنا فى الشرق ما نواجه به عمليته فى الغرب، وذلك ما لم أكن أريده، وربما قلت أن لدى من الشواهد ما يؤكد لى أن العدو فشل فى محاولة أولى لفتح الثغرة وكاد يعدل عنها، وكان ذلك عندما أذعنا أننا دمرنا قواته المتسللة ولكنه عاد بعد ذلك فى مجهود أخير أدرك أنه لو نجح فيه فإنه سوف يحدث بنجاحه أثرًا نفسيًا عليه وعلينا وعلى العالم يفوق القيمة العسكرية لهذا العمل.

هناك سبب خامس: قد أكدته ملابسات الوقائع فيما بعد وهو أن العدو كان يعرف أن قرار وقف إطلاق النار سوف يصدر، وبالتالى فإن هذا القرار وسريانه سوف يكون عنصر تأمين له فى مغامرة محفوفة بالمخاطر قام بها ولم يكن فى استطاعته بسبب انتشار قواته فى الغرب وبسبب تبعثرها المقصوود لأثره النفسى كحرب عصابات بالدبابات أن يحتفظ بها لوقت طويل.

ويتصل بهذا السبب الخامس أن العدو لم يأخذ قرار وقف إطلاق النار المنتظر كعنصر تأمين لعمليته فقط، ولكنه كما رأينا استغله بعد حدوثه لكى يجعل موقفه فى الثغرة قابلاً للاستمرار، ولم يكن هذا الموقف قابلاً للاستمرار إلا بتضحيات رهيبة يدفعها لو أن القتال استمر.

ولقد كان قبولنا لقرار وقف إطلاق النار عملية تتصل بأسباب أوسع وموازين أكبر من عملية الثغرة.

ولقد استغل العدو قرار وقف إطلاق النار، ولم نكن نحن غافلين، ولقد تذكر أننى حذرت من غدر العدو على أساس تجارب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ـ لكن علينا لكى نكون بشرًا ـ أن نعرف أن كلمة وقف إطلاق النار لها تأثير على القوات المتحاربة.

ومع ذلك فإن القوات تنبهت واستطعنا حصر منطقة الثغرة، وحاولنا ضغطها بكل الوسائل.

دعنى أقول باختصار فى موضوع الثغرة، وبالصدق كله، ما يلى،

● لم أقصد، ولم أحاول أن أضع أمام الناس صورة تختلف عن صورة الحقيقة كما كنا نراها.

● إننى أسلم بأن هذه الثغرة كانت فترة غير طبيعية بالنسبة للقوات المحلية لأسباب متعددة سوف نتقصاها جميعًا لكى نتعرف على أسبابها.

ومع ذلك هل يمكن لهذه الثغرة أن تؤثر فى قيمة ما حققناه.

هيكل ـ كيف نقدر خسائر العدو؟

الفريق أول أحمد إسماعيل ـ التقديرات الأمريكية تكفينى... هذه التقديرات تعد خسائر إسرائيل بما يلى؟

٣٠٠٠ قتيل ورأيى ـ بما شاهدته بعينى ـ إن هذا الرقم يقل عن نصف الرقم الحقيقى.

٢٠٠٠٠ جريح ـ وهذا رقم قريب من الحقيقة.

٩٧٠ دبابة ـ وهذه أكثر من نصف القوة المدرعة التى بدأت إسرائيل بها الحرب.

١٥٠ طائرة ـ وشواهدنا ووثائقنا تقول إن خسائر العدو فى الطائرات أكبر من

هذا بكثير، وربما كانت المصادر الأمريكية تحسب الخسارة فى الطائرات الأمريكية وحدها».

هيكل ـ ما هو تقديرك لخسائرنا:

الفريق أول أحمد اسماعيل ـ خسائرنا أعرفها يقينًا وليس تقديرًا ولا أريد أن أتحدث فيها الآن.

أكتفى بالقول بأن خسائرنا لا تتناسب مع حجم ما حققناه.

كانت التقديرات العالمية كلها لخسائرنا المحتملة فى عملية العبور وحدها تتراوح ما بين ٢٥ ألفًا إلى ٣٠ ألف شهيد.

ذلك لم يحدث والحمد الله.

أستطيع أن أقول بصفة إجمالية أن خسائرنا كلها مع كل ما حققناه بالحرب كانت أقل من خسائرنا فى سنة ١٩٦٧، ولم نحقق بها شيئًا مع الأسف.

لعلى أضيف هنا شيئًا عن الأسرى... لقد كان أسرارنا لدى العدو إلى يوم ١٦ أكتوبر وبكل ما حققناه فى حربنا ضده لا يزيدون على ستين إلى سبعين أسيرًا، وكان معظمهم من قوات الصاعقة التى أسقطت وراء خطوط العدو، وكان هؤلاء من أشرس المقاتلين، وقد ظلوا يطلقون النار حتى نفدت ذخيرتهم وقاوموا حتى أحيط بهم إحاطة كاملة. من أين إذن جاء باقى العدد الكبير من أسرانا لدى العدو طبقًا لأرقامه؟ لقد جاء هذا العدد ببساطة بعد الثغرة ومن الإحاطة ببعض مناطق الشئون الإدارية، ومن مطاردة جموع من سكان المنطقة من الفلاحين والقبض عليهم رهائن وليس أسرى!

هيكل ـ أريد أن أسألك عن نتائج حرب ٦ أكتوبر، النتائج الإيجابية التى تراها أمامك وقد تحققت... من وجهة نظرك؟

الفريق أول أحمد إسماعيل ـ هناك نتائج محققة، وهذه النتائج يمكن تقسيمها إلى مجموعات مختلفة.

● هناك مجموعة من النتائج العسكرية أعدها كما يلى:

١ ـ لقد زالت خرافة الجندى الإسرائيلى بعد أن كادت تثبت فى بعض الأذهان بطريقة خطيرة.

لقد وجدناه جنيديًا عاديًا... درب تدريبًا حسنًا عزز من قدرته القتالية، وهذا هو كل شيء... أى أنه فى مقدور جندى آخر غيره درب تدريبًا حسنًا يعزز قدرته القتالية أن يتصدى له وأن يهزمه.

٢ ـ لقد ثبت أمامى أن الجندى المصرى من أشجع الجنود وأصلبهم فى العالم، يكفيه صبره وجسارته... ولقد مرت علينا أيام كان لنا فيها جنود يعيشون على نصف التعيين المقرر لغذائهم، ولكن استعدادهم للقتال لم يتأثر.

هناك ضمانات يجب أن نعطيها للجندى المصرى لكى نأخذ منه أحسن ما عنده تدريب جيد، سلاح يثق فيه، ضابط يشعر به.

هذا هو كل شيء.

٣ ـ إن أى عمل يحسن التخطيط له علميًا، ويحسن التدريب عليه عمليًا قابل للنجاح بنسبة مائة فى المائة.

٤ ـ هناك دروس أخرى مستفادة، فى نواح فنية، ولا أظنها مما يهُم الناس بصفة عامة، وإنما هى تهم القوات المسلحة بصفة خاصة.

● انتقل بعد ذلك إلى مجموعة أخرى من النتائج... مجموعة من النتائج الإستراتيجية وأعدها كما يلى:

١ ـ لقد كسرنا الجمود الذى كان يحيط بأزمة الشرق الأوسط.

٢ ـ لقد غيرنا صورتنا أمام العالم كله، وبعد أن كان يظننا جثة هامدة، فلقد رآنا قادرين على الحركة... قادرين على القتال... قادرين على الانتصار، ولم تتغير صورة مصر وحدها أمام العالم، ولكن تغيرت صورة الأمة العربية كلها.

٣ ـ لقد أثبتنا لإسرائيل أن منطقها فى الحدود الآمنة منطق مضروب.

لم تكن قناة السويس مانعًا كافيًا أمام إرادة مصممة.

ولم يكن خط بارليف عائقًا كافيًا أمام استعداد للتضحية.

وإذن فإن على إسرائيل أن تبحث عن منطق آخر فى الأمن.

وفوق ذلك، فإن إسرائيل فى أى منطق للأمن تحاول العثور عليه، لابد لها أن تعرف أن أمامها فى مصر عدوًا يتحتم عليها أن تحسب حسابه، بل أقول وعليها أن ترهبه.

٤ ـ إن الحرب أثبتت بطريقة قاطعة أن شرم الشيخ ليست لها الأهمية الكبرى التى كانت إسرائيل تظنها وتبنى عليها مطامعها فى سيناء.

إن شرم الشيخ لم تعد مفتاح إيلات، وإنما نزل المفتاح إلى أقصى الجنوب عندما اكتشفنا إستراتيجية عربية للبحر الأحمر قررنا بمقتضاها قفل باب المندب».

هيكل ـ ماذا تتوقع من إسرائيل... هل تتوقع أن تفهم ذلك كله،

الفريق أول أحمد إسماعيل ـ سوف تعاند فى الفهم، ولهذا فإننى لا أتجاوز إذا قلت لك أن استئناف القتال يبدو بالنسبة لى أمرًا محتملاً جدًا، وفى أى وقت.

إنها خرجت من الحرب مجروحة....

ولم يكن جرحها عسكريًا فقط، وإنما كان جرحها فى غرورها، وهذا شىء لا تستطيع تقبله بسهولة».

هيكل ـ كيف تتصور جيش المستقبل فى مصر؟»

الفريق أول أحمد إسماعيل ـ جيش المستقبل فى مصر لابد أن يكون هدفًا من أهم أهداف مصر الوطنية.

لابد لمصر باستمرار من جيش قوى».

هيكل ـ أليس غريبًا أن إسرائيل بتعداد يقل عن ٣ ملايين نسمة تحتفظ بجيش تصل قوته إلى خمسين لواء؟...»

الفريق أول أحمد إسماعيل ـ ذلك صحيح، ولابد لمصر من جيش يتناسب مع تعداد سكانها من ناحية، ويتناسب مع مسئولياتها فى المنطقة.

ولكن علينا لكى لا نجعل من هذا الجيش عبئًا ثقيلاً على اقتصادنا الوطنى، أن نواصل تطوير نظام التعبئة العامة عندنا.

كذلك لابد لنا أن نستوعب تجارب حربنا فى أكتوبر، وأظنها سوف تغير كثيرًا من العقائد العالمية فى الحرب.

أكاد أقول إن الدبابة فقدت سيادتها... لم تفقد قيمتها، ولكن فقدت سيادتها كما قلت بتطور الصواريخ المضادة للدبابات.

أكاد أقول إن الطائرة فقدت سيادتها... لم تفقد قيمتها، ولكن فقدت سيادتها كما قلت بتطور الصواريخ المضادة للطائرات.

سوف تلعب الصواريخ دورًا رئيسيًا فى حروب المستقبل».

هيكل ـ ما هى نظرية الأمن المصرية... أو دعنى أطور سؤالى بطريقة أخرى.

هل تعتقد أن هناك نظرية أمن مصرية تختلف عن نظرية أمن عربية؟»

الفريق أول أحمد إسماعيل ـ نظرية الأمن المصرية لابد أن تكون نظرية أمن عربية... ألا ترى ذلك؟»

هيكل ـ إننى واحد من الذين اعتقدوا دائمًا ويعتقدون أنه لا حياة ولا مستقبل لمصر بدون انتمائها العربى، ومن هنا فإننى أعتقد بوجود نظرية أمن عربية، وبوجود نظرية رخاء عربية...

نظرية أمن عربية على خط ـ بالطول ـ من حلب إلى عدن.

ونظرية رخاء عربية على خط ـ بالعرض ـ من البصرة إلى الدار البيضاء».

الفريق أول أحمد إسماعيل ـ هناك أمن عربى واحد... ونظرية واحدة لهذا الأمن».

هيكل ـ كيف تعرف نظرية الأمن العربية؟»

الفريق أول أحمد إسماعيل ـ أن تكون الأمة العربية باستمرار في وضع من القوة يسمح لها بأن تقرر لنفسها في الحاضر وفي المستقبل وفق إرادتها وبغير خشية من أى تهديد يزحف عليها من الخارج أو يزرع في قلبها من الداخل.

لكن علينا للوصول إلى ذلك أن نضمن وجود استراتيجية واحدة تحدد لنا تماماً من هو العدو الحالى، ومن هم الأعداء المحتملون في المستقبل الذى يقع في نطاق ما نخطط له.

هذا هو ما يمكننا من بناء القوة العسكرية الموحدة التى نحتاجها. ولست أقصد بالقوة العسكرية الموحدة أن يكون لنا جيش واحد، فذلك يتعلق بأوضاع سياسية ليست داخلة فى اختصاصى.

ما يهمنى بالدرجة الأولى استراتيجية تحدد عدونا.

واستراتيجية نستطيع على أساسها بناء قوتنا، ثم نوزع الأدوار في بناء قوتنا على أنفسنا...

تكون هناك قيادة موحدة تكلف هذه الدولة بكذا، والدولة الأخرى بكذا، والدولة الثالثة بكذا، إلى آخره.

ويكون هذا كله قوة متحالفة مشتركة توفر لها جميع الإمكانيات.

وتكون لهذا كله خطة عمل جاهزة تحدد بمقتضاها المهام.

إن الحرب لا يمكن أن تكون لقاء مصادفات، وإنما لابد أن تعرف القوات مهامها، وتعرف بعضها من خلال التدريب المشترك.

بعض الناس يقولون إن الحرب تجربة لا إنسانية، ورأيى أن الحرب هى أكثر التجارب فى إنسانيتها، ذلك لأن كل محارب يعرف أن حياته وانتصاره يتوقفان على رفيق سلاح بجانبه في المعركة.

هيكل ـ دعنى أسألك: هل الحرب ممكنة في ظل الوفاق بين القوتين الأعظم؟»

الفريق أول أحمد إسماعيل - ممكنة إذا كانت حربًا محدودة فى هدفها وفى مدتها.

إن الحرب الحديثة أصبحت حربًا هائلة فى تكاليفها بسبب قوة فتك هذه الأسلحة، وبسبب سرعة هذه الأسلحة، وبسبب دقة هذه الأسلحة، نتيجة للثورة الإليكترونية.

إذا استبعدنا الحرب بين الكبار، وسوف تكون نووية، ولهذا فهى مستحيلة - إذن فإن الحرب على هذا النحو سوف تكون بين الدول المتوسطة والصغيرة.

وسوف تكون حروبًا لا تستطيع دولة متوسطة أو صغيرة أن تواصلها بغير حد تتوقف بعده.

ثم إن القوى العظمى لن تترك مثل هذه الحروب تجرى، خصوصًا إذا كانت هى مصدر السلاح للمتحاربين... لأن ترك مثل هذه الحروب على هواها قد يجرها هى نفسها إلى ما لا تهواه.

خذ ما حدث مثلاً فى حرب أكتوبر.

فى أقل من عشرين يومًا من القتال جرى تدمير ٢٥٠٠ دبابة لكل الأطراف.

وتستطيع أن تعرف خطورة هذا الرقم إذا تذكرت أن إنتاج فرنسا من الدبابات كله لايزيد على ثلاثمائة دبابة فى السنة.

كانت معارك الدبابات فى حرب أكتوبر أكبر من كل ما جرى فى الحرب العالمية الثانية.

كانت الخسائر فيها أعلى بسبب الصواريخ.

النتيجة أن إسرائيل طلبت مددًا من أمريكا.

نحن أيضًا طلبنا من الاتحاد السوفيتى.

وهكذا حدثت الحركتان فى نفس الوقت.

● الدول المتوسطة والصغيرة لا تستطيع مواصلة الحرب بغير حد.

● والقوى الأعظم لن تظل فى عزلة عما يجرى بعد حد معين.

والمهم فى إدارة الحرب المحدودة أن يستطيع أى جيش محارب بلوغ الهدف السياسى المقدر له، ثم أن يصل إلى ذلك الهدف محتفظًا بأكبر قدر من قوته.

أعود مرة أخرى إلى ما بدأت به معك...!

أعود فأقول: إننى حاولت طوال ما تحملت به قواتنا من مخاطر، أن أحتفظ بها سليمة... وحين أتطلع إلى أوضاع قواتنا الآن، فإنى أشعر بأننا حققنا جزءًا كبيرًا من الهدف السياسى للحرب، ثم إننا استطعنا الاحتفاظ بقواتنا سليمة.

وهذا يريحنى كقائد.... كمواطن... كإنسان... بل يريحنى كضمير».

سألنى الفريق أول أحمد إسماعيل:

ـ ما هو رأيك أنت فى الموقف كله؟»

وقلت:

ـ رأيى باختصار كما يلى:

● لقد قام الإنسان العربى فى هذه الحرب بعمل مجيد اكتشف من خلال القيام به نفسه، واكتشف قدراته واكتشف وحدته.

● لقد ثبت أن هذا الإنسان كما قلت أنت قبل قليل قادر على الحركة، قادر على القتال، قادر على النصر.

● لقد كنت أتمنى أن لا تحدث هذه الثغرة التى حدثت فى الغرب.

● برغم من هذه الثغرة، فإننى لو خيرت بين أوضاعنا يوم ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣، وبين أوضاعنا يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ـ لاخترت بغير تردد أوضاعنا فى يوم ٢٢ أكتوبر، واعتبرتها قفزة هائلة... هائلة إلى الأمام، برغم ما أراه فيها من احتمالات الخطر.

يوم ٥ أكتوبر كنا فى وضع اليم.

ويوم ٢٢ أكتوبر أصبحنا فى وضع خطر.

لعلِّى من الذين يفضلون الحياة مع الخطر على الحياة مع الألم.

لعلِّى واحد من الذين يعتقدون أن الألم مهين... وأن الخطر مقدس.

وهذا هو رأيى...

«القنبلة»

٢٣ نوفمبر ١٩٧٣

لقد راودتني أفكار وتزاحمت عليّ خواطر تدعوني كل منها إلى ناحية واتجاه أركز عليه حديثي هذا الأسبوع.

وفي بداية هذا الأسبوع رجحت أن يكون موضوعي اليوم متصلاً ببعض القضايا الهامة في العمل العربي المشترك، وفي ضمانات يجب أن نقدمها له حتى تبقى لهذه الأمة، وفي هذه المرحلة الخطرة من حياتها، وإلى الأبد وهذا قدرها: روح أكتوبر التي تطهرت بالنار وتوضأت بالدم وأعطت هذه الأمة ما سماه أحد المراقبين العالميين، وبحق: ميلاداً جديدًا!

وفي منتصف هذا الأسبوع شدني موضوع آخر يتصل ببعض ما يجري في إسرائيل اليوم، آثاره المحتملة، وأخطاره الكامنة، وقبل أن تجيء ساعات لابد أن نتنبه لها لأننا قد نكون فيها معرضين «لعمل إسرائيلي ما» يستهدف أول مايستهدف روح أكتوبر بما صنعته على مستوى الإنسان العربي العادي - البطل الحقيقي لهذه الحرب - أو على مستوى الأمة العربية التي أثبتت وأكدت وحدتها في هذه الحرب وأعطت للقوة العربية الشاملة بعدا استراتيجيًا لم يكن متاحًا حتى لأحلام النهار أو أحلام الليل!

وقرب نهاية هذا الأسبوع وجدتني في حالة انجذاب شبه صوفي نحو تجربة عشتها بنفسي على أرض ميدان القتال في سيناء، ذلك أن الظروف أتاحت لي أن

أزور الجبهة فى صحبة الفريق سعد الشاذلى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية، وكان معنا واحد من أبرز أساتذة علوم الحرب والإستراتيجية المعاصرين وهو الجنرال أندريه بوفر الذى وجهت له باسم «الأهرام» دعوة لزيارة مصر قبلها ولباها فى فترة اكتسب فيها كل حديث عن الحرب والإستراتيجية عمقًا هائلا.

وكنت أريد أن أصف بعض ما رأيت وسمعت، وفعلت، على الأرض المقدسة:

● رأيت ساحات المعارك التى خاضتها الفرقة الثانية المشاة، وتشرفت حقيقة بلقاء أبطالها، وأثر فى قائد هذه الفرقة المحاربة كنموذج للإنسان المصرى المقاتل، وأحسست بالدموع فى عينى وهويهدينى أمام جمع من ضباطه علم فرقته ودرعها كرمًا منه وحسن ظن فى قيمة ما أكتب وكانت هذه اللحظة تعويضًا وزيادة على سنوات طويلة من المشاكل سببها لى ما كتبت.

● وسمعت من الفريق سعد الشاذلى القصة الكاملة للقلب والعقل المصرى، واقفا وجهًا لوجه أمام مشكلة العبور من الدقيقة الأولى فى المسئولية إلى الساعات التى أصبح فيها العبور ملحمة بطولية من أمجد ما شهد تاريخ مصر وتاريخ العرب.

وسمعت أيضًا قائد سلاح المهندسين، وكان هذا الجندى الممتاز وكان رجاله جميعًا نجومًا ساطعة فى تلك الملحمة التى عاشتها مصر بالدم والنار ساعات حرجة ضمت تاريخها كله ومستقبلها كله فى مهمة واحدة.

● وحين وصلت بنا سيارة الجيب التى كانت تقلنا جميعًا ـ الفريق سعد الشاذلى والجنرال أندريه بوفر وقائد سلاح المهندسين وأنا ـ عبر الخطوط المصرية على الغرب حتى رأينا قناة السويس أمامنا واحد جسور العبور منصوبًا عليها فى مواجهتنا ـ فإننى نزلت من السيارة ومشيت على الجسر وحدى.

... مشيت على الجسر من الغرب إلى الشرق فوق القناة...

ورحت أنقل البصر من الجسر إلى مياه القناة تتدفق فى هدوء ما بعد العاصفة،

إلى الساتر الترابى الضخم الذى حوله العدو إلى سد دفاعى، إلى المواقع الحصينة الرابضة عليه من بقايا خط بارليف، إلى الثغرات فى هذا السد فتحتها قواتنا المسلحة مدخلا إلى الأرض المقدسة.

وأحسست أن مشيتى على الجسر فى هذا الجو خشوع للحب والبطولة... صلاة للحب والبطولة!

* * *

فى نهاية الأسبوع، وحين جلست لأكتب حديث اليوم، وجدتنى أتجه إلى موضوع آخر، فكرت طويلا من قبل فى تناوله، ثم أجلته وأجلته لاعتبارات متعددة حتى أحسست - وأرجو أن لا أكون مخطئًا - إن المناسبة قد حانت له مع انعقاد مؤتمر عربى على مستوى القمة بالجزائر، أراه فيما أقدر أهم مؤتمر عربى على مستوى القمة إطلاقًا فى كل تاريخنا... لأنه لأول مرة مؤتمر عمل: فى جو عمل: أمام ضرورة عمل.

وربما كان ما حفزنى إلى التصميم على تناول هذا الموضوع هو تأكيدات جديدة وصلت إلىّ، لمعلومات سابقة كانت عندى عن القوة الذرية لإسرائيل!

وقد وصلتنى هذه التأكيدات خلال مناقشة مع زائر أمريكى واسع الاطلاع ومتين الصلة بمصادر صنع القرار السياسى فى الولايات المتحدة.

كان حديثنا فى مكتبى عن سيل الإمداد العسكرى المتدفق على إسرائيل جوًا وبحرًا. وكان زائرى يحاول أن يشرح لى الأسباب التى دعتهم هناك إلى فتح الترسانة الأمريكية لإسرائيل بغير حساب.

ولم تكن الأسباب جديدة فى معظم ما قال: الالتزام السياسى الأمريكى تجاه إسرائيل - الخشية من آثار واسعة يمكن أن يحدثها انتصار السلاح السوفيتى فى يد العرب على السلاح الأمريكى فى يد إسرائيل - الادعاء بتوازن القوى فى المنطقة... إلى آخره.

ثم استطرد زائرى، وكانت هذه أهم نقطة فى حديثه:

ـ كان هناك شىء آخر.. فى اليوم السادس أو السابع للحرب، كانت خسائرهم فى الطائرات والدبابات مخيفة: ثلث سلاح الطيران ـ ١٥٠ طائرة تقريبًا ـ أسقطت فى الجو بالذات أمام حائط الصواريخ المصرى الجبار ـ ثم نصف دباباتهم ـ ٩٠٠ دبابة تقريبًا ـ دمرتها الصواريخ المضادة للدبابات على الجبهة المصرية وعلى الجبهة السورية.

كانوا يطلبون بعصبية... كانوا يطلبون بأسرع ما يمكن أجهزة إليكترونية للتشويش فى الجو؛ ومدفعية صاروخية مضادة للدبابات فى الأرض.

وكانوا يطلبون تعويضًا من الطائرات والدبابات يعيد لهم قوتهم التى صدمتها المفاجأة وحطمت ضراوتها.

كانت عصبيتهم تزداد مع كل يوم، وفى وقت من الأوقات كانت عصبيتهم جنون وحش جريح».

واستطرد زائرى يقول:

ـ فى ذلك الوقت كنت بالصدفة أتناول الغداء فى مطعم مجلس الشيوخ الأمريكى، وكنا ثلاثة على مائدة الغداء.

أحد الوزراء الكبار فى حكومة نيكسون... وأحد الأعضاء البارزين من لجنة التسليح فى مجلس الشيوخ... وأنا.

وقال العضو البارز فى لجنة التسليح بمجلس الشيوخ للوزير الأمريكى:

ـ أنا أخشى ما أخشاه أن يفقد هؤلاء الناس فى تل أبيب أعصابهم ثم يلجأون إلى استخدام واحدة من قنابلهم الذرية الثلاث لردع الهجوم العربى، وليس يهمنى ما يحدث للعرب ولكنى أخشى أن أى انفجار ذرى فى هذا الوقت سوف يضع العالم على شفا كارثة دولية رهيبة!!».

وتركت زائرى يستطرد فى حديثه... وظللت أستمع إليه طويلاً... لكن ما قاله ظل يدور فى رأسى ويدعونى إلى كثير من التأمل والتفكير.

* * *

وجاءنى الجنرال «بوفر» ضيفًا على فنجان شاى فى بيتى، مودعًا قبل أن يغادر القاهرة، وجلسنا نستعرض المسائل التى دارت من حولها مناقشاتنا وقلت له بغير مقدمات:

- هناك سؤال لم أطرحه عليك، ولكنى الآن ونحن وحدنا، أريد أن أوجهه إليك.

لقد كانت هناك باستمرار فى السنوات الأخيرة تقارير متعددة المصادر عما يمكن أن يكون لدى إسرائيل من القنابل الذرية: كانت هناك تقارير السنوات الأخيرة لمعهد الدراسات الإستراتيجية فى لندن، وكانت هناك تقارير معهد التسليح فى استكهلم، وكانت هذه التقاير تشير باستمرار إلى وجود قوة ذرية لدى إسرائيل.

وأريد أن أسألك سؤالاً من شقين:

هل تعتقد أن إسرائيل لديها قنابل ذرية؟

هذا شق من السؤال... والشق الثانى منه:

هل تعتقد أن هذه القنابل قابلة للاستعمال مع ملاحظة شيئين: أن إسرائيل لم تجر أى تجارب تختبر بها فاعلية ما لديها من قنابل ذرية... ثم إن إسرائيل تعرف كما يعرف أى طرف مسئول فى هذا العالم أن القنابل الذرية ليست لعبة قابلة للاستعمال ببساطة».

وقال لى الجنرال «بوفر»، وهو يضع فنجان شاى كان فى يده على مائدة أمامه، ليعطى نفسه كعادته، وكالعادة فى كل شعوب البحر الأبيض، فرصة اشتراك يديه بالإشارة، فى الحديث مع لسانه بالكلمة:

- لقد كنت أنتظر هذا السؤال، وقد دهشت من أنه لم يطرح فى كل جلسات الحوار التى اشتركت فيها، وسوف أجيبك عليه بقدر علمى...».

واستطرد الجنرال بوفر:

ـ سوف أرد بأسلوب العدد الذى أراك تستخدمه باستمرار فيما تكتب.

١ ـ إننى قرأت بالطبع كل التقارير المنشورة فى العالم عن قوة إسرائيل الذرية.

٢ ـ إننى بالطبع لم أر بعينى قنابل إسرائيل الذرية ولم أتأكد من أنها ثلاث أو أقل أو أكثر.

٣ ـ إننى أعتقد أن إسرائيل لديها إمكانية صنع قنابل ذرية، وإذا اتخذت حكومتها قرارًا سياسيًا بصنع مثل هذه القنابل، فإن هذه القنابل يمكن أن تكون جاهزة فى مدى ستة شهور.

٤ ـ إننى لا أستبعد إطلاقاً أن يكون هناك فى قبو ما فى مكان ما من إسرائيل عدد من القنابل الذرية وإن كنت أتصور أن هذه القنابل إذا كانت موجودة فإنها سوف تكون أنواعًا بدائية عندما كانت «القنبلة» فى طفولتها.. أى قنابل «سمينة» فى حجمها محدودة فى قوتها.

٥ ـ إن إسرائيل فيما أظن لا يمكن أن تستخدم مثل هذه القنابل، فى هذا العصر الذى نحن فيه وبكل الموانع العالمية التى تقف دون ذلك، سواء من موازين القوى أو من تأثير الرأى العام العالمى، إلا فى حالة واحدة وهى حالة توغل عربى لا تستطيع وقفه فى داخل إسرائيل كما كانت قبل يونية سنة ١٩٦٧.

أى أنها لا تستطيع ـ عقلاً ـ أن تستخدمها فى الدفاع عن التوسع.

ولكنها قد تستطيع ـ احتمالاً ـ أن تستخدمها فى الدفاع عن النفس».

ولم أشأ أن أدخل بالحديث مع الجنرال بوفر فى هذا الموضوع إلى أبعد مما قاله فى النقط الخمس التى شرحها ـ واضحًا ـ بكلمات اللسان وإشارات اليد!

* * *

كان ما قاله لى تأكيدًا فى الواقع لما كنت أعرفه من متابعة ملحة وراء محاولات إسرائيل لامتلاك قنبلة ذرية.

لقد بدأت هذه المحاولات سنة ١٩٥٧، وفى أعقاب حرب السويس العظيمة، وحين اضطرت إسرائيل أمام المد العربى الثورى الزاحف، وأمام الإنذار الروسى الشهير سنة ١٩٥٦، وأمام الضغط الأمريكى الناشئ من ذلك كله - إلى التراجع عن سيناء بعد فشل الحملة البريطانية الفرنسية على بورسعيد.

فى تلك الفترة كانت إسرائيل فى حالة غيظ.

وكانت فرنسا مجروحة بسبب فشل الحملة.

وفى حين أن بريطانيا - الشريك الثالث - فى الحملة تراجعت... وراجعت نفسها فى تواطؤ السويس، فإن بقية أطراف التواطؤ: إسرائيل وفرنسا واصلتا السير سنوات على الطريق الوعر والخطر.

فى ذلك الوقت أصبحت إسرائيل فى أحضان فرنسا... أو لعلها فرنسا التى أصبحت فى أحضان إسرائيل وكانت النتيجة أن فرنسا قدمت لإسرائيل مفاعلاً ذريًا قادرًا على استخراج كمية كافية من «البلوتونيوم» - المادة الضرورة للتفجير الذرى وبنى المفاعل وراء جدار مطلق من السرية فى «ديمونة» قرب «بئر السبع».

وبعد خمس سنوات، حوالى سنة ١٩٦٢، كان هذا المفاعل ونشاطه قد بدأ يلفت أنظارًا كثيرة حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وفى أواخر الستينات كانت التساؤلات من حول مفاعل ديمونة مسألة مثيرة على نطاق عالمى، وفى بعض الأحيان فإن إسرائيل نفسها وبذكاء شديد كانت تشترك بطرف خفى، فى إذكاء الشكوك من حول ما يجرى فى ديمونة!

وربما كان ممكنًا تلخيص الإستراتيجية الإسرائيلية فى هذا الصدد على النحو التالى:

١ - إن إسرائيل كانت بالقطع تحاول امتلاك قنبلة ذرية.

٢ - إن أحدًا لم يكن يساوره شك فى قدرة إسرائيل على صنع قنبلة ذرية، ولكن المسألة التى كانت التساؤلات تدور من حولها فعلا هى:

- هل صدر القرار السياسى بصنع قنبلة ذرية أو أن هذا القرار مؤجل؟».

٣ - إن إسرائيل كانت راغبة فى أن يفهم العرب بالظن أن لديها قنبلة ذرية، ولكنها لم تكن راغبة فى أن يعرف العرب - باليقين - أن لديها هذه القنبلة الذرية.

فهمهم بالظن فى رأيها قد يصبح رادعًا.

وأما معرفتهم باليقين فى رأيها فقد كان يمكن أن تكون حافزًا.

٤ - إن إسرائيل لم تجرب قنبلتها الذرية - على فرض أنها صنعتها - لأن حساب الصلاحية يمكن تقديره ولو نسبيًا بعمليات عقل إليكترونى. ثم على فرض أن نسبة الصلاحية هى خمسون فى المائة، فإن الخمسين فى المائة ذرية تبقى رادعًا لا بأس به.

٥ - إن إسرائيل من أجل ذلك تهربت من توقيع اتفاقية حظر إجراء التجارب الذرية التى وقعتها معظم دول العالم، وكان هدفها أن تظل علامة الاستفهام معلقة: تنفى أو تؤكد بالمرونة التى تفرضها الظروف!

* * *

ولم يكن ذلك كله غائبًا عن المراكز المؤثرة فى السياسة العربية، وربما استطعت أن أتذكر ثلاث محاولات عربية أساسية جرت للحاق بإسرائيل فى هذا المضمار الذرى:

أولاً: محاولة مصرية اهتم بها جمال عبد الناصر لسنوات طويلة لتطوير البرنامج الذرى المصرى، ولكن هذه المحاولة لم تصل إلى نتيجة مؤكدة بسبب ضخامة الموارد التى يتطلبها إنشاء إمكانية ذرية من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن الذين تولوا الإشراف على البرنامج الذرى المصرى لم تكن لديهم - فى كثير من الأحيان - مقدرة إدارة مثل هذا الجهد.

ثانياً: محاولة مصرية بعد سنة ١٩٦٧ للاتصال بالصين التى كانت قد فجرت قنبلتها الذرية الأولى بنجاح عظيم، وكانت هناك نصيحة من الصين بالتدرج مع الاعتماد على النفس.

ثالثًا: محاولة ليبيه تحمس لها العقيد معمر القذافى سنة ١٩٧٠، وعرض من خلالها استعدادها لشراء قنبلة ذرية تكون تحت تصرف العرب كرادع أمام الاحتمالات الذرية الإسرائيلية، ولكن الحقيقة التى عرفها معمر القذافى من هذه المحاولة هى:

«إن القنابل الذرية ـ ببساطة ـ ليست للبيع»

* * *

ثم جاءت حرب أكتوبر وصدماتها بالنسبة لإسرائيل ـ وهذه مسألة لابد أن نتوسع فى دراستها بالتفصيل فيما بعد ـ ولكننا نستطيع أن نركز بسرعة على العوامل التالية:

١ ـ لقد ثبت لإسرائيل أن الفجوة الحضارية بينها وبين العرب أضيق مما كانت تتصور، فلقد ظهر أن العرب استوعبوا حرب الإليكترونيات بأسرع مما كانت تتوقع.

٢ ـ لقد ثبت أن العرب لديهم بسلاح البترول وسيلة للضغط على الولايات المتحدة الأمريكية وعلى غيرها من الدول المتقدمة التى تستطيع نجدة إسرائيل بالسلاح. وإذا كان استعمال سلاح البترول هذه المرة قد لحق بالقرار الأمريكى بمساعدة إسرائيل وتعويضها عن خسائرها، فإنه فى مرة قادمة قد يسبق مثل هذا القرار ويحول دونه أو على الأقل يحد من اندفاعه!

٣ ـ لقد ثبت أن خسائر الحرب الحديثة بأسلحة الحرب الحديثة مخيفة... ذلك أنه فى أسبوعين من الحرب كانت خسائر كل الأطراف فى المعدات كما يلى:

٢٥٠٠ دبابة

٦٠٠ طائرة

كان السبب هو تطور الصواريخ المضادة للدبابات والمضادة للطائرات.

ومعنى ذلك وهذه حقيقة لابد أن نستوعبها:

إن العدد يستعيد قيمته

معنى ذلك أن الطرف الذى يملك دبابات أكبر وطائرات أكبر يستطيع مواصلة الحرب أطول، وبالتالى فهو أقرب من الطرف الآخر على توجيه مسار الحرب والتحكم فى نتائجها.

والعدد ليس المعدات فقط.. أى أنه ليس الدبابة والطائرة فقط وإنما العدد - إلى جانب المعدات - هو أطقم الدبابات وأطقم الطائرات سواء فى الجو أو على الأرض.

مؤدى ذلك: أن كثافة العامل البشرى العربى - مع استعداد الإنسان العربى لاستيعاب تكنولوجيا العصر - سوف يكون عنصرًا فى السباق لا تستطيع إسرائيل أن تجاريه.

وإذن ماذا؟

وإذن، ألا يحتمل أن تجىء مرحلة فى الصراع تعتمد فيها إسرائيل بإرادتها - أو بمخاوفها - على رادع ذرى؟

قفزة إلى التكنولوجيا تظن أن العرب غير قادرين على مجاراتها؟

قفزة لا تضطرها إلى التسول من غيرها تحت ضغط سلاح البترول؟

قفزة لا تحتاج إلى كثافة بشرية؟

* * *

لكى يكون ما أقوله واضحًا ومحددًا، فلعلى أبادر إلى القول بأن وجود قنابل ذرية لدى إسرائيل ليس رعبًا نتركه ليخلع قلوبنا، ولكنه - فيما أرى - احتمال يجب أن نستعد له. وأن نستعد له بمقابلة الخطر وليس بالهرب منه.

ولعلى أقول إن هناك حدودًا عالمية ومحلية تقف ضد استعمال إسرائيل لسلاحها الذرى - على فرض أنه موجود - واقتناعى شخصيًا أنه موجود أو أنه قابل للوجود بقرار سياسى يتخذ فى أى لحظة.

والحدود العالمية والمحلية التى تقف ضد استعمال إسرائيل لسلاحها الذرى الموجود أو المحتمل كما يلى:

١ - إن استعمال قنبلة ذرية فى هذا العصر وموازينه وأخلاقياته، قرار لا يمكن أن يصدر عن عقل، وإنما هو قرار يصدر عن جنون مطبق.

٢ - إن استعمال قنبلة ذرية فى ميدان قتال ليس فعالاً إلى الدرجة المتصورة إزاء قوات حفرت مواقعها بعناية إلا أن يكون ذلك فى نقطة الصفر أى مركز الانفجار ذاته، وأما الدائرة المحيطة به فإن الخطر عليها قليل.

وفى هذه الحالة فإن تكاليف القنبلة الذرية تصبح أغلى بكثير من قوة دمارها الفعلى. والحرب فى كل الظروف عملية اقتصادية.

٣ - إن استعمال قنبلة ذرية ضد مدينة عربية لن يكون نهاية للصراع العربى الإسرائيلى، وإنما سوف يكون بداية لمرحلة جديدة منه لا يمكن أن تكون لها نهاية إلا بنهاية إسرائيل ذاتها.

ولقد تكون إسرائيل مدينة واحدة أو مدينتين... ولقد تكون مركزًا صناعيًا واحدًا أو مركزين، ولكن العالم العربى متعدد المدائن والمراكز.

٤ - إن العالم العربى لديه الإمكانيات والموارد ولديه الاتساع والعمق الذى يمكنه - ولو بعد سنوات - من رد الضربة، ومع ضيق إسرائيل وانحصارها فإن ضربة واحدة يمكن أن تكون قاضية.

٥ - إن حصول العرب على قنبلة ذرية لو أنهم تعرضوا لخطر ذرى لن ينتظر تطور قدراتهم التكنولوجية لصنعها، وإنما يستطيع العرب أمام خطر ذرى واقع من إسرائيل أن يحصلوا على ما يريدون من الاتحاد السوفيتى... وإذا رفض

الاتحاد السوفيتى فقد تقبل الصين، وإذا رفضت الصين فإن القنبلة الذرية ليست بعد ذلك كله فى حرز مصون بعيد عن الأيدى والعون.

* * *

أخلص من ذلك إلى نتيجتين:

١ - إن القنبلة الذرية الإسرائيلية مرهونة فى استعمالها بظرف مجنون أو ربما بشخص مجنون:

ظرف تشعر فيه إسرائيل أنها مهددة وأنها على استعداد حتى للانتحار قبل أن تموت.

أو شخص مجنون يقفز إلى مركز القرار فى إسرائيل... رجل لا يستطيع إلا رؤية لحظة بعينها تملأ انفعالاته كلها باللون الأحمر... وفى إسرائيل من هذا النوع كثير، وبينهم على سبيل المثال الجنرال أريل شارون!

وليس فى استطاعة الأمة العربية أن تعيش فى قلق من ظرف مجنون أو من شخص مجنون.

٢ - إن القنبلة الذرية الإسرائيلية بكل ما استعرضناه من ظروف قد تصبح سلاحًا أساسيًا فى عملية تشهير... أو عملية ابتزاز تحت التهديد للحصول على تنازلات عربية لا تؤخذ بدونه.

وليس فى استطاعة الأمة العربية التى كسرت حاجز الوهم وحاجز الخوف بملحمة العبور أن تسمح لنفسها أن تكون عرضة للتشهير أو الابتزاز ولو حتى أمام الخطر الذرى.

* * *

وأصل إلى قرب الختام فى هذا الحديث لأقول وبمنتهى الهدوء والتعقل ما يلى:

إذا كان لدى إسرائيل قنبلة ذرية، أو كانت لديها إمكانية لقنبلة ذرية...

إذن فإن من الضرورى أن يكون لدى العرب قنبلة ذرية، أو إمكانية لقنبلة ذرية والمنطق فى ذلك أن الردع هو إستراتيجية العصر الوحيدة والمؤثرة.

بمعنى أن وجود هذا النوع من السلاح لدى طرفين فى صراع، هو الضمان الوحيد لعدم استعمال هذا السلاح فى هذا الصراع!

ولقد سارعت بهذا الموضوع فى هذا الحديث لكى يلحق بمؤتمر القمة العربى المنتظر فى الجزائر.

وفعلت ذلك لعدة اعتبارات:

١ - إن العرب لديهم هذه اللحظة دواع للتفكير الجدى فى رادع عربى فعال ولن يلومهم أحد الآن، وبعد تجربة حرب أكتوبر، إذا شعروا أن خطوة إسرائيل المقبلة فى التصاعد بالصراع هى التشهير والابتزاز الذرى.

٢ - إن القرار فى ذلك أكبر من مسئولية دولة عربية واحدة، ثم إن متطلبات تحقيقه تتطلب ما هو أوسع من إمكانية دولة عربية واحدة.

٣ - إن الأمة العربية بما لديها من العمق الإستراتيجى تستطيع أن تبنى إمكانيتها الرادعة بعيدة عن أى تهديد يحطم محاولاتها على الأرض وقبل أن تجىء مرحلة التحليق والارتفاع.

٤ - إن جهدًا عربيًا موحدًا ومكثفًا هو وحده الكفيل باختصار فترة الوقت اللازمة لتحقيق أداة الردع العربية، وذلك لا يجعل الأمة العربية فى مركز قوى تجاه تشهير وابتزاز إسرائيل وحدها وإنما يجعلها فى مركز قوى تجاه أى تشهير وأى ابتزاز مهما كان مصدره... ذلك يعطى الأمة العربية واحدة من سمات القوى العظمى فى هذا العصر.

٥ - إنه ليس هناك خوف كما أنه ليس هناك خطر فى أن تعرف إسرائيل ويعرف العالم أننا مستعدون لسلم التصاعد حتى نهايته، بل لعل الخوف والخطر يكونان إذا

تصورت إسرائيل أو تصور العالم أننا لسنا متنبهين إلى الخطوة القادمة على سلم التصاعد وأنها إذا واجهتنا يومًا فلن يكون سبيلنا الوحيد هو قبول التشهير والابتزاز لأننا فوجئنا بما لا قبل لنا به!

□

ثم لعلنا نتذكر أن القاعدة الذهبية في إدارة صراعات التاريخ كلها في هذا العصر وقبل هذا العصر وبعد هذا العصر كانت وما زالت وسوف تبقى قاعدة واحدة:

- أن تسقط كلمة: «المفاجأة» من كل قواميسنا... أن نكون متأهبين لما هو قادم على تعدد الاحتمالات فيه.

... أن نكون مستعدين للجواب... إذا طرح التحدى علينا سؤاله».

□

ثم أشعر أنى مدين بإيضاح يتعين عليَّ أن أقدمه:

- هذه دعوة للسلام وليست دعوة ضد السلام، فالسلام لا يعيش حتى الآن إلا فى ظلال القوة وإن كان فى استطاعتنا أن نحلم ونناضل من أجل يوم يمكن أن يعيش فيه السلام فى حماية الضمير...

وحتى يجىء هذا اليوم بأحلامنا وأعمالنا فإن الدعوة إلى نزع السلاح أمام عدو مدجج بالسلاح لا تصبح دعوة سلام.

ولقد نقول فى بعض الأوقات بما نكره أن نقول به، ولكننا لا نستطيع فى كل الأوقات أن نغمض عيوننا عما نرى!!

. . . .

. . . .

رأى مرفوع وبكل احترام إلى مؤتمر القمة العربى المنعقد بعد أيام فى الجزائر..
مع العلم بأن العدو لن يسكت، ومع العلم بأن الصراع طويل، طويل ومع العلم بأن

السلام بعيد بعيد، ويخطئ من يظن أن الحل قريب، وتكفينا نظرة واحدة على ما تقوم به القوات الإسرائيلية الآن على جبهات القتال وكله يشير إلى تربص إسرائيل وتحفزها لضربة جديدة بالأسلحة التقليدية تعيد عقارب الساعة إلى الوراء، فإذا نجحت مثل هذه الضربة كان بها، وإذا تنجح إذن فخطوة أخرى مفاجئة على سلم التصاعد نحو التخويف الذرى أو الابتزاز والتشهير الذرى.

ثم قد أقول غير مبالغ: إن صنع قنبلة ذرية ليس طلسمًا، كل ما يحتاجه الآن: هيئة عربية واحدة تحت إشراف عربى عال. ومائة من علمائنا الموجودين على أرضنا، أو الذين تركناهم يهاجرون إلى أراض بعيدة وما بين مائتين إلى ثلاثمائة مليون جنيه لا أكثر، إلى جانب الحق فى استخدام تسهيلات موجودة فعلا على أرض الأمة العربية. وفسحة معقولة من الزمان، ثم يصبح لهذه الأمة أن تأمن من المفاجآت، وأن تشارك فى صنع موازين العصر ولا تكون محكومة بها فقط!

□

وأعرف مقدمًا أن أصواتًا كثيرة سوف تثور فى بقاع عديدة من العالم تصرخ فى وجوهنا:

ـ العالم كله يبتعد عن دائرة الأسلحة الذرية وأنتم الآن تشاورون عقلكم فى الاقتراب».

ويكون ردنا، ولابد أن يكون:

ـ إذا كانت لديكم وسيلة للتأكد، أمام أنفسكم، وللتأكيد بالنسبة لنا، بأن إسرائيل لا تملك أسلحة ذرية فافعلوا ذلك، واطلبوا ـ حقًا ـ التفتيش على مفاعل ديمونة... وإذا لم تكن لديكم مثل هذه الوسائل إذن فدعونا نضع مظلة على رءوسنا تحميها.

.. فرنسا فعلت ذلك وكان الحق معها... وفعلته الصين وكان الحق معها.

ولم تكن فرنسا ولا كانت الصين فى أى فترة من الفترات أمام خطر لحظة مجنونة... أو رجل مجنون!

٣ رسائـــل

٣٠ نوفمبر ١٩٧٣

أكتب هذا الحديث من القاهرة بينما المؤتمر العربى على مستوى القمة ما زال يواصل جلساته فى الجزائر.

لم تختتم أعماله بعد، ولم تظهر نتائجه..

وحتى إذا استكمل المؤتمر جلساته قبل ظهور هذا الحديث واختتم أعماله، فأغلب الظن أن ما سوف نقرأه بسرعة هو البيان الرسمى النهائى الصادر عنه، والبيانات الرسمية النهائية لمؤتمرات القمة - أو أية مؤتمرات غيرها - ليست دائمًا صورة كاملة للنتائج الحقيقية لمثل هذه المؤتمرات.

إن البيان الرسمى النهائى لأى مؤتمرات هو - إذا جاز التشبيه - مجرد «كيس» يوضع فيه ما أمكن التوصل إليه من أشياء. وقد يدل شكل الكيس الخارجى على كثير من محتوياته، وقد لايدل إلا على القليل. لكن الكيس لا يظل مقفلاً على ما فيه من أشياء إلى الأبد، فما هى إلا أيام - فى العادة - حتى تكون المحافل السياسية والصحفية قد مدت أصابع البحث والتنقيب - وربما الفضول - وتحسست ما فيه، وقاست حجمه ونوعه وقيمته، واستخلصت من ذلك آراءها فيه وأحكامها عليه وتقديراتها بعده!

□

وإذا جاز لى أن أتسرع، ولو حتى بالتمنى قبل أن تظهر النتائج الكاملة لمؤتمر الجزائر فلربما أقول:

- إلى جانب مهام بدهية لابد أن هذا المؤتمر تحمل أمانتها: مثل رسم إستراتيجية شاملة للمواجهة مع العدو الإسرائيلى، ومثل وضع حدود لما يمكن التقدم إليه أو ما يجب التوقف دونه - فلعل هذا المؤتمر العربى الكبير قد تذكر، فى زحمة ما كان أمامه من مهام، أن يوجه ثلاث رسائل أجدها ضرورية وحيوية نحو ثلاثة اتجاهات:

رسالة فى اتجاه الاتحاد السوفيتى.

ورسالة فى اتجاه أوروبا الغربية.

ورسالة فى اتجاه دول وشعوب أفريقيا.

ولست أقصد هنا المعنى الحرفى للرسائل - خطاب داخل ظرف وعليه عنوانه وفوقه طابع بريد - وإنما ما أقصده بالرسائل أن تكون سياسات معلنة، مطروحة للممارسة الفعلية، بحيث تكون قادرة عمليًا على أن تقول - وبالأفعال - ما تريد أن تقوله.

وأشرح وجهة نظرى فى هذه الرسائل الثلاث واحدة بعد واحدة.

* * *

■ ■ ■ **أولاً**: رسالة إلى الاتحاد السوفيتى:

وقد أقول - وبأمانة - إننى أشعر أن الاتحاد السوفيتى لم يحصل على ما يستحقه من قيمة الرصيد الهائل الذى حققناه يوم ٦ أكتوبر، وقد أقول أيضًا أن لدىّ ما يدعونى إلى الظن بأن الاتحاد السوفيتى نفسه يشعر بنفس هذا الشعور!

لقد حققنا ما حققناه فى ٦ أكتوبر معتمدين على عناصر متعددة بينها على وجه اليقين تأييد الاتحاد السوفيتى لنا: بالدعم العسكرى وبالمساندة السياسية.

وفى الواقع فإن أزمة الشرق الأوسط كلها، تحركت مما كانت فيه، إلى ما أصبحت عليه بفعل عنصرين اثنين فتحا الطريق بعد ذلك لغيرهما من العناصر:

الإنسان العربى العادى الذى كان معجزة حرب أكتوبر وآيتها الكبرى.

ثم السلاح الذى أمسك به هذا الإنسان العربى وقاتل به وحقق به ما حقق.

إن هذين العنصرين فتحا الباب لبقية العناصر التى لم يكن ممكنًا لها دخول ساحة التأثير على الأزمة إلا بعد فتح الباب.

أى أن «الإنسان» و«السلاح» فتحا الباب لما جاء بعدهما. البترول ـ الثقة المتجددة بالنفس ـ التعاطف العالمى الطبيعى مع الذين يقبلون تحدى الموت لصالح الحياة... إلى آخره.

□

وإذا وضعنا السلاح على هذه الدرجة من الأهمية، وهو فعلا على هذه الدرجة من الأهمية ـ إذن فنحن نتحدث عن الاتحاد السوفيتى، ذلك لأن أكثر من خمسة وتسعين فى المائة مما حاربنا به فى أكتوبر كان سلاحًا سوفييتيًا.

وإذا تذكرنا أن المعارك قد تعود إلى الاندلاع فى أى لحظة...

وإذا تذكرنا أن لا وقت لدينا لإعادة التدريب على أسلحة ومدارس فى التسليح غير الأسلحة والمدارس السوفييتية.

وإذا تذكرنا أنه ليست هناك مصادر متاحة بالحجم الكافى للحرب الحديثة ـ خلاف المصادر السوفييتية...

إذا تذكرنا ذلك كله ـ فإننا نعرف أن السلاح الذى حاربنا به فى أكتوبر هو السلاح الذى سوف نحارب به فى ديسمبر أو يناير أو فبراير أو فى أى شهر من الشهور القادمة حين تواجهنا العقبات فى مؤتمر السلام المقترح، وسوف تواجهنا مئات بل آلاف العقبات فيه. وترتيبًا على ذلك فإننا نعرف أن علاقتنا مع

الاتحاد السوفيتى - إلى جانب نواح أخرى مهمة فيها - علاقة حيوية للسلام العربى لا بديل لها ولا تعويض عنها.

□

ولقد بدا - فوق السطح على الأقل - خلال الأسابيع الأخيرة أننا فرغنا من القتال بالسلاح السوفيتى، ثم وجهنا اهتمامنا كله إلى الحوار مع الولايات المتحدة الأمريكية.

وبدا - للنظرة الأولى على الأقل - أن هناك فى العالم العربى رأيين فى التفكير إزاء الاتحاد السوفيتى:

رأى يعبر عن حساسية لا مبرر لها إزاء الاتحاد السوفيتى وذلك من تأثير خلافات عقائدية أو سياسية، حقيقية أو مدعاة...

ثم رأى يعتبر أن العلاقة مع الاتحاد السوفيتى قضية مفروغ منها، مع أنه فى العلاقات الدولية لا توجد هناك قضية مفروغ منها، بل إنه حتى فى العلاقات الإنسانية الفردية - وحتى الصداقة والحب - لا يوجد ما يجب أن يؤخذ كقضية مفروغ منها!

□

ولعلى أقول إنه ربما كانت لى - أو لغيرى - ملاحظات حول العلاقات العربية السوفييتية ولكن هذه الملاحظات لا تتصل بإستراتيجية العلاقات مع الاتحاد السوفيتى فى حد ذاتها، ولكنها تتصل بممارسة هذه الإستراتيجية من ناحيتنا فى بعض الأحيان.

وقد ألخص بعض هذه الملاحظات فيما يلى:

١ - إن الاتحاد السوفيتى هو إحدى القوتين الأعظم فى زماننا وكل واحدة من القوى الأعظم لها مطالبها وموازينها - وليس هذا عيباً بل هو طبيعة الأشياء.

٢ ـ إن الاتحاد السوفيتى له مصالح فى المنطقة العربية يريد حمايتها وقد تتفق أو لا تتفق هذه المصالح مع رؤية المنطقة ذاتها لمصالحها الذاتية.

٣ ـ إن الاتحاد السوفيتى كان فى مقدوره ـ كما نتصور ـ أن يعطى أكثر مما أعطى خصوصاً فى مجال السلاح، لكنه من وجهة نظره لم يكن يريد أن يغامر أمام القوة الأعظم الثانية ـ وإن كان على أى حال قد أعطانا ما استطعنا به تحقيق معجزة الإنسان العربى فى أكتوبر.

٤ ـ إنه مهما كانت أهمية علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتى فليس هناك ما يدعونا إلى قصر علاقاتنا الدولية عليه وحده، ثم إنه ليس هناك ما يدعونا إلى جعل أرضنا منطقة استقطاب بينه وبين القوة الأعظم الثانية، وخصوصًا أن الاستقطاب يتراجع من العالم كله مع تراجع عصر الحرب الباردة وبداية عصر الوفاق بين القوتين الأعظم.

□

وبرغم هذه الملاحظات فلقد يصح لنا أن نتذكر أن الأمنية الإستراتيجية الكبرى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ـ وحتى بعد انتهاء عصر الحرب الباردة وبداية عصر الوفاق ـ ما زالت: إخراج الاتحاد السوفيتى من المنطقة العربية.

ولقد عبر الدكتور هنرى كسينجر وزير الخارجية الأمريكية عن هذه الأمنية الكبرى أكثر من مرة، ولم يستعمل كلمة «إخراج» وإنما تجاوز ذلك إلى استعمال كلمة «طرد» الاتحاد السوفيتى من الشرق الأوسط.

وربما كان التغيير الذى أحدثه الوفاق فى الاستراتيجية الأمريكية هو ما يلى:

فى مرحلة سبقت كانت إستراتيجية الولايات المتحدة هى: إبعاد الاتحاد السوفيتى عن المنطقة.

وفى هذه المرحلة فإن إستراتيجية الولايات المتحدة هى: إبعاد المنطقة عن الاتحاد السوفيتى!

ولنا هنا أن نتساءل:

- هل كان العمل على إبعاد الاتحاد السوفيتى عن المنطقة فيما مضى أو هل أن الإغراء بإبعاد المنطقة عن الاتحاد السوفيتى مما هو موضوع للتجربة الآن، فى صالح نضالنا أو أنه ضد كل صالح لهذا النضال؟

ثم نتذكر ما يلى:

١ - إن التأييد السياسى والعسكرى السوفيتى للنضال العربى هو، وحتى الآن وكما قلنا ليس له بديل، وليس له تعويض.

٢ - إن الاتحاد السوفيتى كإحدى القوتين الأعظم - عقيدة اجتماعية وقدرة اقتصادية وعسكرية فادحة - لم يعد ممكنا إخراجه من المنطقة مهما فعلت الولايات المتحدة أو حتى مهما فعلنا نحن - فيما لو قبلنا بالانسياق مع المنطق الأمريكى - والنتيجة الوحيدة التى يمكن أن تسفر عنها محاولة إخراجه لن تكون غير مزيد من القلاقل فى الشرق الأوسط؛ لأنها سوف تكون عودة به إلى الحرب الباردة والحرب الساخنة أيضًا!

٣ - إذا فرض وتحقق للولايات المتحدة ما تريده، بنفسها أو بنا وخرج الاتحاد السوفيتى من المنطقة... فما هو معنى ذلك؟

معناه أن المنطقة سوف تفقد التوازن الذى يصون استقلالها وسوف تقع - راضية أو كارهة - تحت النفوذ الأمريكى.

٤ - وإذا حدث ذلك - مع أنه من الصعب لأسباب كثيرة أن يحدث - فإن معنى سيادة النفوذ الأمريكى فى المنطقة هو: إسرائيل سيدة فى المنطقة!

. . . .

. . . .

من ذلك كله، فلعل هناك فى الكيس الذى يضم نتائج مؤتمر القمة فى الجزائر - رسالة إلى الاتحاد السوفيتى:

رسالة تؤكد له تمسكنا بصداقته، واهتمامنا بدوره، وتقديرنا لتأييده السياسى والعسكرى، كل ذلك لأسباب عقلانية، لا هى إنشائية ولا هى شعرية، ولا هى خطابية، صداقة عقل لعقل وهو النوع الوحيد من الصداقات الذى تعرفه العلاقات الدولية!

* * *

■ ■ ■ **ثانيًا**: رسالة إلى أوروبا الغربية:

إن أوروبا الغربية قضية بالغة الأهمية بالنسبة لنا لمجموعة أسباب حضارية، ومجموعة أسباب تتصل بأمن البحر الأبيض المتوسط، ومجموعة أسباب تتصل بمستقبل رخائنا المشترك من حول هذا البحر الأبيض.

وليس هناك فى أوروبا الغربية من عاد ينكر هذه الروابط الوثيقة بين الشرق الأوسط وأوروبا الغربية وإن ظلت هناك بعض عقد من الماضى بينها:

١ - إن أوروبا الغربية - أو المجتمعات الغربية بصفة عامة - قبلت منطق المساواة مع المعسكر الاشتراكى فى الشرق بعد عناء طويل، وربما لم يقبل الغرب منطق المساواة مع المعسكر الشرقى إلا بعد أن كان الشرق قد كسب فى سباق الذرة وفى سباق الفضاء.

ولكن العالم الغربى لم يقبل بعد منطق المساواة مع العالم الثالث الذى ننتمى إليه.

٢ - إن أوروبا الغربية من هذا المنطق كانت، فى أحسن الأحوال، على استعداد لأن تبيع للعالم الثالث والشرق الأوسط فى قلبه - كلاما كلاما كلاما فى مقابل أن تأخذ منه ميزات استراتيجية واقتصادية أهمها الآن وبغير منازع: موارد البترول!

□

لكن الشرق الأوسط تنبه. وحين جاء ٦ أكتوبر وأثبت الإنسان العربى نفسه وكرم سلاحه وفتح الباب أمام عناصر جديدة تدخل ساحة التأثير على أزمة الشرق

الأوسط ـ ومنها سلاح البترول ـ فإن أوروبا الغربية استفاقت من نوم عميق أو وهم عريض وراحت تهرول إلى وسيلة تخفف عنها ضغط سلاح البترول العربى.

ولم تكن أوروبا الغربية تتصور أن هذا السيف سوف يخرج من جرابه أبدًا، وحين خرج فإنها بدت مأخوذة بالمفاجأة معنويًا وبآثار المفاجأة عمليًا.

وأتذكر مناقشات طويلة أجريتها فى عدد من عواصم أوروبا الغربية: مناقشات مع إدوارد هيث رئيس الوزراء واليك دوجلاس هيوم وزير الخارجية فى لندن ـ ومع ويلى برانت المستشار ووالتر شيل وزير الخارجية فى بون ـ ومع جيسكار ديستان وزير الاقتصاد وميشيل جوبير وزير الخارجية فى باريس....

كانوا جميعاً وبغير استثناء لا يتصورون أن البترول سيؤدى دوره فى أى مواجهة عربية ـ إسرائيلية قادمة، وأكاد أقول أنهم ـ وبغير استثناء ـ لم يكونوا يتصورون أن هذه المواجهة سوف تحدث بالسلاح وقريباً.

وحين كنت ألح عليهم فى أن يأخذوا الاحتمال كفريضة للمناقشة فقد كان قولهم جميعًا وبلا إستثناء، وبالحرف الواحد تقريبًا:

ـ وماذا تريدون منا فى هذه الحالة؟

تريدون أن تضغطوا علينا... لكى نضغط نحن على الولايات المتحدة... لكى تضغط الولايات المتحدة على إسرائيل... لكى تنسحب إسرائيل من أراضيكم المحتلة؟!

ثم كانوا يضيفون:

ـ نحن ـ ابتداء ـ لا نملك وسيلة للضغط على الولايات المتحدة... كل ما نستطيعه هو أن نقول لها رأينا وقد قلنا وليس فى طاقتنا ما هو أكثر.

□

وفى يوم ٦ أكتوبر ـ وقيمة الإنسان وقوة السلاح فيه ـ استيقظت أوروبا الغربية وإذا سيف البترول خارج من جرابه فعلاً.

وكانت هذه من ساعات الحقيقة فى أوروبا الغربية.

وكانت العلاقات بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية متوترة فعلاً لأسباب لا علاقة لها بأزمة الشرق الأوسط.

من هذه الأسباب مثلاً سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتى وكان الرأى الغالب فى أوروبا الغربية ـ باريس بالذات ـ أن الوفاق على النحو الذى تم به سوف يترك أوروبا الغربية مكشوفة أمام قوة سوفيتية هائلة.

من هذه الأسباب مثلاً خلل فى النظام النقدى العالمى سببته السياسة الأمريكية وعانى منه الاقتصاد الأوروبى.

من هذه الأسباب مثلاً مقترحات لأمن أوروبا تصورها الدكتور هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الذى أعلن عام ١٩٧٣ سوف يكون عام أوروبا ونسى قبل ذلك أن يستشير أوروبا فى عامها الذى أعلنه!

أضيفت بعد حرب الشرق الأوسط إلى هذه الأسباب القديمة... أسباب أخرى جديدة:

من هذه الأسباب الجديدة أن أوروبا الغربية وجدت سيف البترول الذى خرج من جرابه مشهرًا فوق رأسها لما لا ذنب لها فيه حسب تصورها.

ومن هذه الأسباب الجديدة أن الولايات المتحدة أعلنت حالة التأهب النووى فى قواعدها فى أوروبا دون أن تستشير دولاً تقع هذه القواعد على أرضها وتحت سيادتها الوطنية.

ومن هذه الأسباب الجديدة أن الولايات المتحدة راحت تشحن السلاح لإسرائيل من قواعدها فى أوروبا دون أن تعرف هذه الدولة أن السلاح يشحن منها لإسرائيل.

وحين أبدت أوروبا ضيقها مما حدث لها ـ فإن رد الولايات المتحدة بلسان وزير خارجيتها الدكتور هنرى كسينجر جاء اتهامًا لأوروبا بالانتهازية وبأنها حين

تشعر بالخوف ترتمى فى أحضان أمريكا فإذا أحست بالأمان تنكرت لهذه الأحضان.

□

كانت أوروبا الغربية حتى يوم ٦ أكتوبر مجرد تعبير سياسى ولكنها لم تكن بعد قد أصبحت قوة سياسية.. أى إرادة سياسية واحدة.

وربما كان هذا هو الذى دعا الرئيس الفرنسى جورج بومبيدو إلى اقتراحه بعقد مؤتمر قمة أوروبى تحضره دول السوق الأوروبية المشتركة التسع وهو اجتماع تقرر فعلاً وتحدد له يوم ١٤ ديسمبر القادم فى كوبنهاجن عاصمة الدانمارك.

ويقول الواقع أن حرب ٦ أكتوبر أكدت وحدة الأمة العربية وربما يقول التاريخ أن حرب ٦ أكتوبر أكدت وحدة أوروبا الغربية وربما تصنع منها حقيقة سياسية بعد أن كانت تعبيرًا جغرافيًا... وربما تصنع منها إرادة سياسية واحدة بعد أن كانت مصطلحًا سياسيًا عامًا.

وهذه فرصة ملائمة لنا كى نستطيع إحداث تأثير نطلبه على سياسة أوروبا الغربية تجاه أزمتنا الراهنة وتجاه مستقبلنا بعد هذه الأزمة.

وهناك - فيما بدا أمامنا - حقائق لابد أن نحسن تقديرها قبل اجتماع مؤتمر القمة الأوروبى المقبل:

١ - إن أوروبا لا تملك وسائل للضغط كبيرة على الولايات المتحدة.

٢ - إن أوروبا الغربية - دول السوق - سوف تظل ملتزمة بالتضامن بينها وإلا تحطمت فكرة السوق من أساسها، ومعنى ذلك أن الحظر الذى فرضناه على هولندا وحدها لن يؤثر على هولندا وحدها كما نتصور لأن دول السوق سوف تتضامن معها فيما لديها جميعًا من موارد الطاقة - وهذا يحدث فعلا.

٣ - إن أوروبا الغربية أعطتنا بيانًا بتأييدها لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وإننا

قبلنا هذا البيان وأوقفنا نسبة خفض صادرات البترول إليها كما كانت مقررة فى شهر ديسمبر.

٤ ـ هناك دلائل تشير إلى أننا سوف نفعل ذلك أيضاً مع نسبة الخفض المقررة بعد ذلك فى شهر يناير، ومعنى ذلك إننا قبلنا كلاما كلاما كلاما، وفى مقابله فإننا رفعنا سلاحنا.

□

محصلة ذلك ليست مرضية لنا تمامًا فيما أظن وعلينا أن نفكر من جديد.

إن كل خطة تمر فى مرحلتين: مرحلة وضع هذه الخطة وطرحها للتنفيذ.

مرحلة الحركة التى تنشأ من الفعل ورد الفعل عند طرح أية خطة للتنفيذ.

ولقد أحدثت مرحلة وضع الخطة وطرحها للتنفيذ آثارها فعلاً على أوروبا الغربية، فقد ثبت لها أن سلاح البترول فى يدنا وأننا قادرون على استعماله، وأن استعماله كفيل بوضع إرادتنا حيث نريد لها أن تكون.

ثم إن مرحلة الحركة التى نشأت من الفعل ورد الفعل أثبتت حقائق لا يمكن تجاهلها وهى سلسلة مترابطة الحلقات:

أوروبا لا تستطيع أن تضغط على الولايات المتحدة ـ أوروبا مضطرة للتضامن مع بعضها وإلا ضاعت منها وحدتها ـ أوروبا سوف تعطينا كلامًا، وهذا هو كل ما تملكه فى أزمة الشرق الأوسط إزاء أمريكا ـ لا نستطيع أن نطلب من آخرين أن يفعلوا ما هو خارج قدرتهم وإلا فإننا سوف نفرض عليهم عقابًا لا يستحقونه.

الحل إذن أن نعاند ضد الواقع، أو نرفع سلاح البترول عن أوروبا وهو لم يحقق شيئًا مذكورا إلا أنه أثبت فاعليته كسلاح...

وإذا... ماذا؟

□

إذن قد يكون لنا أن نتحرك إلى وضع جديد.

لماذا نحبس أنفسنا فى تصور أن أوروبا تستطيع أن تضغط على أمريكا؟

إذا كانت لا تستطيع وإذا اقتنعنا بأنها لا تستطيع - وهذه مسألة تستحق أن ندرسها أكثر - فإننا قد نطور موقفنا لنطلب من أوروبا أن تعطينا وسائل نضغط نحن بها على أمريكا.

وفى هذا الصدد فهناك تصورات متعددة نستطيع أن نفكر فى بعضها أو فيها كلها:

١ - لماذا لا نقول لأوروبا - وقد طرحت هذه الفكرة هنا قبل عدة أسابيع:

البترول سلعة إستراتيجية... سوف نعطيها لكم ونشترى منكم سلعًا إستراتيجية أخرى... نريد سلاحًا نضيفه إلى ما عندنا لنضغط بذلك على إسرائيل... ثم لنضغط بذلك على أمريكا سلعة إستراتيجية بسلعة إستراتيجية... هذه شروطنا؟

٢ - لماذا لا نقول لأوروبا:

- نحن نريد أن نبنى صناعة أسلحة عربية حديثة، وسلاح الحرب الحديثة الأخطر كما أثبتت معارك أكتوبر هو الإليكترونيات وأنتم فيها متقدمون حتى على الولايات المتحدة... تعالوا وتعاونوا معنا فى بناء صناعة أسلحة عربية إليكترونية بالدرجة الأولى.

(لعلنا نفعل ذلك - إذا فعلنا - بدون وساطة سماسرة، وتجار سوق سوداء).

٣ - لماذا لا نقول لأوروبا:

- إن الأرباح الهائلة من البترول لا تجىء من مجرد استخراجه ولكنها تجىء من تكريره ومن الصناعات البتروكيماوية التى تتصل بصناعات التكرير ونحن نريد البترول لنا... نريد حقوله فى أراضينا وصناعته عليها.. ولديكم فى ذلك خبرة وهناك مجال لتعاون وثيق بيننا خصوصًا وأنتم أكثر من يحتاجون إليه،

فالاتحاد السوفيتى لديه ما يكفيه ولو مؤقتًا، والولايات المتحدة تستطيع بجهد أكبر وتكاليف أكثر أن تستغنى عنه كطاقة وإن كانت تريد مواصلة استغلاله كمصدر ربح تجارى.

٤ ـ لماذا لا نقول لأوروبا:

ـ إذا أصبحتم إرادة سياسية واحدة، وإذا أصبحت لكم نظرية أمن مستقل عن الولايات المتحدة فإننا لا نرى تعارضا بين أمنكم وأمننا؛ لأن البحر الأبيض صلة بيننا ولا يمكن دعم أمن أوروبى بدون دعم أمنى عربى.

تعالوا نبحث كيف يمكن للأمن الأوروبى أن يخدم الأمن العربى وكيف يمكن للأمن العربى أن يخدم الأمن الأوروبى؟

. . . .

. . . .

من ذلك كله، فلعل هناك فى الكيس الذى يضم نتائج مؤتمر القمة فى الجزائر، رسالة إلى أوروبا الغربية.

رسالة تقترح أساسًا جديدًا لتعاون حر متكافئ يقوم على مصالح رخاء متبادلة ومصالح أمن متصلة.

رسالة تقول: لنترك رواسب الماضى وعقده... ولنبدأ من جديد تجربة جديدة وعلى قدم المساواة.

❋ ❋ ❋

■ ■ ■ ثالثًا: رسالة إلى أفريقيا:

إن أفريقيا تضامنت معنا وربطت مصيرها بمصيرنا ويجب ألا نترك هذا العامل المضاف إلى القوة العربية يتفكك أو يدركه الوهن.

وأفريقيا فى مرحلة نمو وهى تقول إلى جانب كل ما تقول به إن ارتفاع أسعار البترول سوف يؤثر فى نموها.

وأسعار البترول لن تعود إلى الوراء وهناك أسباب عديدة اقتصادية وسياسية تحول دون ذلك.

ومن الظواهر المشجعة أن الدول العربية التى خفضت إنتاجها من البترول لم يتأثر دخلها وإنما زاد دخلها بسبب زيادة الأسعار الهائلة.

وعلى سبيل المثالث ما يلى:

● السعودية:

كان إنتاج السعودية من البترول خلال شهر سبتمبر ١٩٧٣ ـ أى قبل التخفيض هو: ٨,٥٤٩,٠٠٠ برميل يوميًا.

وكان العائد منه هو ١٥,٣٠٠,٠٠٠ دولار يوميًا.

وانخفض إنتاج البترول فى شهر نوفمبر ١٩٧٣.

أصبح الإنتاج ٦,٤١٢,٠٠٠ برميل يوميًا. ولكن الدخل ارتفع فأصبح ١٩,٢٤٠,٠٠٠ دولار يوميًا.

● كان إنتاج الكويت من البترول خلال شهر سبتمبر ١٩٧٣ ـ أى قبل التخفيض هو:

٣,٥٠٦,٠٠٠ برميل يوميًا. وكان العائد منه هو ٦,١٤٠,٠٠٠ دولار يوميًا.

وانخفض إنتاج البترول فى شهر نوفمبر ١٩٧٣، أصبح الإنتاج ٢,٦٢٨٦٠٠٠ برميل يوميًا. ولكن الدخل ارتفع فأصبح ٧,٧٣٠,٠٠٠ دولار يوميًا.

وهكذا بقية الدول العربية التى خفضت إنتاجها من البترول ومع ذلك زاد دخلها منه.

أى أنها استطاعت بنفس الضربة التى أتاحتها لها ظروف أزمة الشرق الأوسط أن تحقق أربعة أهداف.

- ادخرت ثروتها الطبيعية وصانتها من الاستنزاف.
- زادت دخلها برغم تخفيض إنتاجها.
- اكتسبت لنفسها قوة تأثير عالمى غلاب.
- أدت لأمتها العربية خدمة عظيمة وشاركت فى نضالها مشاركة إيجابية قوت وعززت.

□

ولم يعد ممكنا أن تعود أسعار البترول إلى الوراء.

وليس منطقيًا أن تقول لنا الدول الصناعية المتقدمة: خفضوا أسعار بترولكم لكى نستطيع نحن مساعدة الدول النامية وأفريقيا فى مقدمتها».

لماذا لا نقوم نحن كأمة عربية بهذا الدور؟

لماذا لا تخصص بعض الزيادات فى دخل البترول ـ برغم خفض نسبة إنتاجه ـ فى صندوق للمعونة نرصده للدول الأفريقية. نقدم لها بغير استعلاء... وبغير سيادة من الرجل الأبيض الذى عانت من سيطرته عليها طويلا.

ثم نجعلها على صلة بنضالنا وخصوصًا أنه ليس هناك تناقض بين أهدافهم وأهدافنا... وإنما نحن كأمة عربية ـ وهم هناك كشعوب أفريقية ـ جزء من حركة واحدة هى حركة التحرر الوطنى.

. . . .

. . . .

من ذلك كله، فلعل هناك فى الكيس الذى يضم نتائج مؤتمر القمة فى الجزائر رسالة إلى أفريقيا.

رسالة تصنع تاريخًا جديدًا للعالم النامى كله... تفتح أمامه طريقًا آمنا للتقدم مع الحرية... والحرية مع التقدم.

* * *

ثلاث رسائل..

لعلنا نجدها إذا ما بحثنا ونقبنا داخل البيان الرسمى الثانى لمؤتمر الجزائر الذى يمكن له وبغير تجاوز أن يصبح نقطة التحول الكبرى فى العمل العربى المشترك...

(١)

إسرائيل..
ما يجرى وماجرى؟!

٧ ديسمبر ١٩٧٣

سوف يتأثر شكل الحوادث القادمة فى الشرق الأوسط، إلى حد كبير، بما يجرى فى إسرائيل خلال هذا الشهر: ديسمبر ١٩٧٣.

ومن الآن، وحتى آخر يوم فى هذا الشهر: ٣١ ديسمبر، سوف تصل المعركة الانتخابية إلى ذروتها وسوف تنتهى على نحو أو آخر إلى نتيجتها...

والانتخابات العامة - فى بعض المجتمعات - هى فترة حوار حاد بين الأفكار والشخصيات والسياسات والخطط ومستويات الأداء. وعندما يشتد الحوار فإن التعبير عادة يكون بغير حساب كما أن النوايا يمكن أن تظهر بغير براقع، وفضلاً عن ذلك فإن نتيجة الانتخابات العامة - فى هذه المجتمعات - تحسم ولعدد محدد من السنين: أى نوع من الأفكار والشخصيات والسياسات والخطط ومستويات الأداء - سوف تكون له السلطة وسوف يملك فى يده القرار...

وعندما تجرى الانتخابات العامة فى ظروف غير عادية فإن الأمر يصبح أكثر مدعاة للاهتمام، ذلك لأن ضغط الظروف لا يكشف الصورة فحسب، وإنما يصل إلى حد تعريتها تماماً...

وإذا جرت الانتخابات العامة، وجرت فى ظروف غير عادية، وجرت فى بلد غير عادى، وكان هذا البلد هو إسرائيل بالذات - إذن فنحن أمام تجربة فريدة تستحق متابعة دقيقة، تحت نظر عدسات تكبر، وتحت سمع ميكروفونات تضخم، حتى لا تفوتنا خلجة أو همسة..

... حتى لا تفوتنا خلجة أوهمسة؛ لأن الصراع هناك معقد إلى درجة غريبة: أجيال قديمة وأجيال جديدة، قيم من الأساطير وقيم من العلم، فلسفات محاصرة وفلسفات تحاول أن تشق لنفسها منفذاً للخلاص، شتات من الغرب وشتات من الشرق، حقائق واقعة وسراب يصنعه الوهم، حزازات قديمة وعداوات طارئة، خصومات أصدقاء وصداقات خصوم، شيوخ وشباب، ساسة وساسة، جنرالات وساسة، جنرالات وجنرالات ... إلى آخره..

وفوق أن الصراع معقد إلى درجة غريبة، فإن نتيجته يمكن أن تكون خطيرة، لأنها قد تؤثر مباشرة على قضية الحرب والسلام فى الشرق الأوسط، وإن كنت أقول مقدماً إن تأثيرها على قضية الحرب سوف يكون أكثر لأن إسرائيل ليست بتكوينها ولا هى بأهدافها، ولا هى بمزاجها العام مجتمع سلام!

ولأسباب عديدة، بعضها ظاهر على السطح، وبعضها غائر فى أعماق النفس الإسرائيلية فإن قضية الحرب فى إسرائيل هى المصدر الأساسى لقانون وجودها ذاته:

- هناك مشكلة الأمن ونظرية الأمن.
- هناك البقعة الإسرائيلية وسط الحصار العربى الكبير.
- هناك رواسب التاريخ اليهودى وتعقيداته.
- وهناك نظرة إسرائيل إلى العرب واعتقاد من فيها أن الطلقة أكثر نفاذًا إلى القلب العربى من الكلمة.

وهناك أسباب أخرى كثيرة. ولكننا فى النهاية أمام مجتمع يؤمن بالعنف،

ويتبنى سياسة القوة، ويتخذ من الحرب عقيدة يؤسس عليها ـ حتى الآن ـ حياته ومستقبله، وهو ينظر إلى الحرب نظرة تختلف عن نظرة غيره من المجتمعات لها:

● كان العالم المتمدن كله قد قبل بتعريف «كلاوزفيتز» أو الإستراتيجية الحديثة: بأن «الحرب هى استمرار للسياسة بوسيلة أخرى» (تغير ذلك بالنسبة للحرب النووية).

ولكن إسرائيل عمليًا عكست تعبير كلاوزفيتز الشهير فأقنعت نفسها بأن «السياسة هى استمرار للحرب بوسيلة أخرى».

● وكان العالم المتمدن كله قد استقر على أن الحرب «دقة عالية بالطبل فى سيمفونية العمل السياسى» وهى تدوى فى لحظة حاسمة وعندما يقتضى الأمر ضغطًا على الإيقاع يفرضه التأثير الدرامى.

لكن إسرائيل استعملت أوركسترا ليس فيه غير الطبول!

● وكان العالم المتمدن قد استقر ـ خلافًا للانطباع السطحى السريع ـ على أن أخطاء الساسة هى التى تصنع الحرب وكفاءة الجنود هى التى تصنع السلام.

فالحرب تجىء حين يعجز الساسة، كما أن السلام يجىء حين ينجح الجنود.

لكن إسرائيل وحدها مختلفة: جنرالاتها وساستها معًا شركاء فى خطيئة واحدة: خطيئة حرب بغير سلام!

* * *

من ذلك كله فإن «الحرب» ـ الحرب التى وقعت يوم ٦ أكتوبر والحرب التى قد تقع فى أى لحظة ـ هى محور المعركة الانتخابية الدائرة الآن فى إسرائيل.

والحرب التى وقعت يوم ٦ أكتوبر تجربة كاملة تمت فعلاً أمام عيوننا، ومن هنا فإن دراستها خصوصًا فيما يتصل بالتأثير على الانتخابات العامة الدائرة الآن فى إسرائيل تصبح شيئًا ضروريًا إذا كان علينا أن نتابع هذه الانتخابات ونتائجها

القريبة والبعيدة شاعرين أنها موضوع وثيق الصلة بنا لأننا الطرف الآخر فى هذه الحرب التى وقعت، كما أننا الطرف الآخر فى تلك الحرب التى يمكن أن تقع.

□

ولو أن أحدا سألنى:

ـ ما هو تقييمى لحرب أكتوبر ونتائجها؟»

لقلت بما يلى:

ـ لا أستطيع، وربما لا يستطيع أحد أن يعطى الآن تقييمًا نهائيًا لحرب أكتوبر، فهذه الحرب ما زالت دائرة برغم قرار وقف إطلاق النار.

لقد جرى اعتراض سير المعارك بفعل عوامل محلية ودولية، ثم أمسكت مجموعة موازين على الأرض وفى العالم بعمليات القتال... لكن الستار لم ينزل بعد على مشهد نهائى من مسرح المعقول أو اللامعقول! والأوضاع الراهنة بالنسبة للطرفين دقيقة... أكاد أقول أنها حرجة... لكن الميزان ما زال معلقًا لم ترجح بعد كفة على كفة».

ثم كنت أضيف:

ـ بصرف النظر عن العوامل التى اعترضت سير المعارك، وعن الموازين التى أمسكت بعمليات القتال، وعن الستار المرفوع، وعن الميزان المعلق ـ بصرف النظر عن ذلك كله، فإن هناك حقيقة كبرى لا يمكن إنكارها وهى:

«إنه مهما كان المشهد والنتيجة والوضع الأخير الذى تنتهى إليه الحرب الدائرة الآن ـ فإن نظرية الأمن الإسرائيلى قد أصيبت بضربة قاسية وشديدة بالذات فى الأسبوع الأول من الحرب... إن هذه الضربة القاسية والشديدة أحدثت بنظرية الأمن الإسرائيلى ما يمكن أن نسميه عاهة مستديمة سوف تبقى معها باستمرار، حتى إذا تحولت النتيجة النهائية لهذه الحرب ـ لا سمح الله ـ إلى صالحها تمامًا.

كانت نظرية الأمن الإسرائيلى تقوم على الفرض بالقوة وكانت ترتكز على ثلاث دعائم واضحة بالنسبة لإسرائيل:

١ - المبادأة فى يدها دائمًا.

٢ - المفاجأة ليست عندها أبدًا.

٣ - كفاءة القتال (التخطيط والسلاح وشجاعة الرجال) حكر لها لا ينازعها فيه غيرها فى المنطقة.

وهذه الدعائم كلها اهتزت يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، واهتزت بالتالى نظرية الأمن القائمة فوقها».

ولو أردت أن الخص بسرعة لقلت:

- إننا نستطيع على الأقل اعتبار الأسبوع الأول من حرب أكتوبر بمثابة «رسالة إلى الحرب القادمة».

ولو أردت أن أستشهد لنقلت عن شخصية دولية لقيتها أخيرًا نص حوار دار بينها وبين السيدة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل كان لقاؤهما أخيرًا فى عاصمة أوروبية، وقالت جولدا مائير لمحدثها - وقد سمعت القصة منه بنفسى وإن كان قد طلب منى عدم نسبتها إليه - ما يلى:

- إننى أعتبر أننا انتصرنا فى حرب أكتوبر: لقد دفعنا السوريين وراء الخط الذى بدءوا القتال منه عشرة كيلو مترات إلى الوراء... ثم إننا نجحنا فى اختراق الخطوط المصرية شرق قناة السويس ووصلنا إلى مناطق فى الغرب من قناة السويس».

وقال لها هو:

- بالمقاييس التكتيكية فربما يكون ما تقولينه صحيحًا... وأقول ربما لأن المعركة ما زالت مفتوحة لكل الاحتمالات... لكننا إذا اعتمدنا المقاييس الإستراتيجية فسوف نقول إنكم خسرتم مهما كانت الاحتمالات... لا أقول إنكم هزمتم... ولكن

أقول إنكم خسرتم... ربحتهم تكتيكياً... ربما كان ذلك صحيحًا... وخسرتم إستراتيجيًا.. وهذا أمامنا مؤكد.

لماذا؟

لقد كنتم تعتمدون منطقًا معينًا أصبحت له فى تقديراتكم قوة القانون - أقصد نظرية الأمن الإسرائيلى - ولكن ما كنتم تعتبرونه قانونًا لم يعد كذلك فى الواقع... الموازين بدأت تتغير... لا أقول إنها انقلبت رأسًا على عقب، ولكن أقول ببساطة إن ما كنتم تعتمدون عليه فى السابق إستراتيجيًا أصبح معرضًا للتحدى.

إن العرب أخذوا المبادأة فى يدهم، ثم إن المفاجأة كانت عليكم، ثم إنهم قاتلوا بكفاءة وهذه كلها عامل لم تكن فى حساب نظرية الأمن الإسرائيلى.

لقد كنتم مطمئنين دائمًا إلى فجوة واسعة بين الإنسان الإسرائيلى وبين الإنسان العربى، ولقد أثبت الإنسان العربى أن الفجوة ليست واسعة إلى الدرجة التى كنتم مطمئنين إليها، وهذه رسالة تحذير خطيرة إليكم مؤداها ما يلى:

«هذه المرة كانت الأمور سيئة... فى المرة القادمة فإن الأمور يمكن أن تكون أسوأ».

هكذا أقول - يا سيدتى - إنكم ربما تربحون هذه المرة تكتيكيًا، ولكنكم خسرتم إستراتيجيًا، وهذا ما ينبغى أن تأخذوه فى حسابكم.

هذا ما أقوله... ولا أقول أكثر منه، ولا أقول غيره».

* * *

وربما كان مفيدًا - ولعله مهم - أن نراجع ما حدث فى إسرائيل يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وما حوله.

وأتذكر أننى كتبت فى أعقابه مباشرة أقول:

«إن جنرالات إسرائيل ضبطوا وبنطلوناتهم مدلاة فى الحمام على حد ما يقول التعبير الإنجليزى».

ثم إننى كتبت أقول:

«إن رءوسا كثيرة سوف تتدحرج فى إسرائيل نتيجة لما حدث فى الأيام الأولى للحرب وفى مقدمتها رأس الجنرال موشى ديان.

لكنى عندما كتبت ذلك فى وقته لم تكن أمامى صورة مفصلة لما حدث فى إسرائيل فى تلك الفترة.

والآن فلعلى استطعت تجميع كثير من التفاصيل أثق فى مصادرها - وهى عديدة وعلى درجات تسمح لها بأن تعرف حقيقة ما حدث...

□

كانت القيادة العسكرية الإسرائيلية، والجنرال موشى ديان وزير الدفاع على رأسها، متأكدة تمامًا من تقديراتها للموقف:

١ - أنور السادات لن يجسر على اتخاذ قرار الحرب.

٢ - خط بارليف على حافة القناة عائق منيع كفيل بوقف أى مغامرة.

٣ - قوة إسرائيل العسكرية قادرة على تدمير أى هجوم يتخطى - على فرض وقوع المعجزة - حدود خط بارليف.

٤ - القوة العربية العامة ممزقة ولن يكون هناك تنسيق عربى من أى نوع.

وكانت القيادة السياسية فى إسرائيل والسيدة جولدا مائير على رأسها - شريكًا مقتنعًا بتقديرات القيادة العسكرية.

وكانت الانتخابات على الأبواب والهالة التى تحيط بالجنرالات المنتصرين تعطيهم نفوذًا سياسيًا واسعًا إلى درجة أن الجنرال ديان لم يفرض البرنامج الانتخابى لحزب العمل فحسب، بل إنه فرض مرشحيه أيضًا وكان قوله المشهور:

ـ ليس المهم أن يوضع برنامج يرضينى، ولكن المهم أن أكون راضيًا عن هؤلاء الذين سوف يكون هذا البرنامج فى أيديهم».

وكانت النقطة الحيوية فى برنامج حزب العمل هى خطط التوسع فى الأرض المحتلة وكان هناك من يقاوم الجنرال ديان، ولكن أحدهم لم يكن يجرؤ على المعارضة العلنية لآرائه.

ووصل الحال إلى حد أن ضيفًا أجنبيًا كبيرًا كان يزور إسرائيل وتقابل فى حفل عشاء فى بيت الجنرال حاييم هرتزوج مع عدد من قادة إسرائيل وبينهم الجنرال موشى ديان ووزير الخارجية أبا إيبان.

وتضايق الضيف الأجنبى من الطريقة التى كان ديان يتكلم بها وقال له صراحة:

ـ إنك مملوء بالخيلاء يا سيدى الجنرال وأنا لا أحب الممتلئين بالخيلاء!»

وكان ديان يبتسم واثقًا من نفسه.

ثم خرج هذا الضيف بعد العشاء مع أبا إيبان، وفى طريقهما خارج بيت الجنرال هرتزوج لركوب سيارتيهما قال الضيف الأجنبى مشيرًا إلى حديثه مع ديان:

ـ إن غروره لا يطاق... ولا أظن أننى أرغب فى مقابلته مرة أخرى.

وقال إيبان:

ـ هذه هى طبيعته... ولكننا نحاول ترويضه.

وقال الضيف الأجنبى:

ـ عندما أتصور أن هذا الرجل يمكن أن يصبح رئيسًا لوزراء إسرائيل فإن فرائصى ترتعش.

وكان رد أبا إيبان:

ـ لن يكون رئيسًا للوزراء فى يوم من الأيام...

ثم أضاف إيبان هامسًا:

- لن يحدث ذلك إلا فوق جثتى!

□

إن لجنة التحقيق الخاصة التى تتقصى الآن ما حدث فى إسرائيل يوم ٦ أكتوبر وما حوله، والتى يرأسها قاضى المحكمة العليا شيمون إجراناتوالتى تضم فى عضويتها أربعة غير رئيسها هم: المستشار موشى لاندو والجنرالات بيجال يادين وحايين لاسكوف، وكلاهما كان رئيسًا من قبل لهيئة أركان حرب الجيش الإسرائيلى، ثم الدكتور إيزاك نيبنزهل، مراقب أعمال الدولة فى إسرائيل - سوف تكتشف ظاهرة غريبة تلك هى أن إسرائيل فوجئت بحرب أكتوبر ولم تفاجأ بها فى الوقت نفسه!!

وإذا بدا هذا القول متناقضاً فلعلى أضيف:

- إن إسرائيل فوجئت إستراتيجيًا، ولم تفاجأ تكتيكيًا فوجئت إستراتيجيًا: لأنها لم تعلم مسبقًا بنية الهجوم العربى وبحجمه، ومداه، وأهدافه - فى وقت يسمح لها بملاقاته.

ولم تفاجأ تكتيكيًا: لأنها رأت أمامها من الشواهد ما يدل على احتمال نشوب قتال على الجبهة المصرية والسورية، ثم إنها قدرت احتمال نشوب عمليات عسكرية وكان ذلك مساء يوم الخميس ٤ أكتوبر طبقًا لروايات أثق فى مصادرها وبالتالى فى صحتها.

□

كانت هناك حشود على الجبهة المصرية وحشود على الجبهة السورية ورصدت المخابرات الإسرائيلية العسكرية هذه الحشود قبلها بأربعة أو خمسة أيام، ثم جرى نقاش طويل من حول طبيعة هذه الحشود شاركت فيه إدارة المخابرات العسكرية الإسرائيلية وهيئة المخابرات العامة فى إسرائيل، ثم انتقل

النقاش من حول طبيعة هذه الحشود إلى هيئة العمليات فى الجيش الإسرائيلى، ثم هيئة أركان الحرب.

وكان هناك فيما يبدو رأيان برزا خلال النقاش:

رأى يتزعمه الجنرال الياهو زائيرا رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية، وهو يقول بما يلى:

● إن الحشود على الجبهة السورية جزء من التوتر العام الذى أعقب اشتباك الطيران السورى والإسرائيلى يوم ١٣ سبتمبر.

● إن الحشود على الجبهة المصرية قد تكون نوعًا من التضامن مع سوريا لطمأنتها، أو ربما كانت سبب مناورات الخريف التى تجريها مصر عادة فى مثل هذا الوقت من كل سنة.

رأى آخر كان ينادى به بعض الضباط الشبان فى المخابرات، وهو يقول بما يلى:

● إن الحشود على الجبهتين - كما يبدو من عمليات الاستطلاع - أكبر من حالة التوتر العادى بعد اشتباك الطيران يوم ١٣ سبتمبر.

● إن أوضاع القوات المحتشدة على الجبهتين أوضاع هجومية وليست أوضاعًا دفاعية تتأهب لحالة توتر يخشى معها من هجوم إسرائيلى.

وكان الرأى الذى ساد فى النهاية هو رأى الجنرالات، واستمر ذلك حتى يوم الخميس ٤ أكتوبر.

□

بشكل ما، وبطريقة ما - تلقت إسرائيل مساء يوم الخميس معلومات عن احتمال وجود نية هجوم وشيك تقوم به مصر وسوريا، وكانت هذه المعلومات تشير إلى أن موعد الهجوم هو آخر ضوء - غروب - يوم ٦ أكتوبر.

(ومما يدعونا إلى الاهتمام هنا بهذه النقطة، أن ذلك الموعد كان هو ساعة الصفر

فى الخطة الأصلية، وقد تغيرت هذه الساعة يوم ٣ أكتوبر فتقدمت عن موعدها فى التخطيط العربى النهائى للعمليات وأصبحت الساعة الثانية بعد الظهر).

وفى ليلة الجمعة وصباح يوم الجمعة ٥ أكتوبر، كانت أجهزة الاستطلاع والرصد الإسرائيلية قد كلفت بتأكيد أو نفى هذه المعلومات. وفى عصر يوم الجمعة ٥ أكتوبر كانت هذه المعلومات شبه مؤكدة بوساطة عمليات استطلاع إليكترونى واستطلاع جوى.

ويروى الجنرال «أريل شارون» ـ الذى قاد فيما بعد هجوم إسرائيل على الضفة الغربية من السويس ـ أنه ذهب يوم الجمعة إلى مقر القيادة الجنوبية الإسرائيلية فى سيناء والتقى هناك مع «الجنرال جونين» القائد العام لهذه الجبهة، ثم دخل معه إلى غرفة الخرائط والمعلومات فى قيادته، ثم دقق فى إحدى الصور الفوتوغرافية للاستطلاع الجوى وأذهله ما رآه والتفت إلى «الجنرال جونين» وقال له:

ـ أليست هذه جسور عبور... إن المصريين ينوون عبور قناة السويس... إن الأمر لم يعد يحتمل أى شك الآن!»

□

كان مساء يوم الجمعة مشحونًا فى بيت السيدة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل فقد ذهب إليها الجنرال موشى ديان وزير الدفاع والجنرال دافيد اليعازر رئيس هيئة أركان الحرب يحملان إليها نتائج الاستطلاع وكلها تشير إلى نية هجوم مصرى سورى وشيك.

واستدعت رئيسة وزراء إسرائيل بعضًا من وزرائها المقربين ودارت مناقشة طويلة وكانت التساؤلات تدور حول نقطتين:

- إن المعلومات والصور تقول بنية هجوم وشيك...
- ولكن هل يمكن تصديق ذلك سياسيًا...؟

كانت المعلومات الجديدة في صراع مع القناعات التي سبقتها. واستقر الرأى على التركيز في اتجاهين:

اتصال سياسي مع الولايات المتحدة، وعن طريقها مع الاتحاد السوفيتي ومصر وسوريا للتنبيه والتحذير.

دراسة احتمالات توجيه ضربة مضادة، ضربة إجهاض ـ كما يقولون ـ قبل أن تتحرك الجيوش المصرية والسورية على الجبهتين.

وتولت السيدة جولدا مائير بنفسها مسئولية الاتجاه الأول (الاتصال السياسي مع الولايات المتحدة وعن طريقها بغيرها..)

وتولى الجنرال موشى ديان بنفسه مسئولية الاتجاه الثاني (دراسة احتمالات ضربة إجهاض).

□

واتصلت جوالدا مائير بالتليفون السرى المباشر مع سفيرها في واشنطن «سيمحا دينتز» ـ وكان مدير مكتبها من قبل ـ وطلبت أن تتحدث مع وزير خارجيتها أبا إيبان الذى كان موجودًا في نيويورك تلك الليلة وأبلغته بأن يتصل بالرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون وأن ينقل إليه ما لدى إسرائيل من معلومات وأن يطلب تدخله.

واتصل أبا إيبان بالدكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية ونقل إليه ما تلقاه.

كان الوقت يجرى بسرعة..

كان الفجر لم يطلع بعد في واشنطن وكان «كيسنجر» نائمًا، ولكنه ـ بعد انتهاء مكالمة أبا إيبان معه ـ طلب توصيله على التليفون بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ليسألها تأكيدًا للمعلومات الإسرائيلية قبل أن يتصل هو بالرئيس الأمريكي «ريتشارد نيكسون» ويوقظه من النوم..

وتلقى «الدكتور كسينجر» ردًا بأن هناك - كما قالت تقارير سابقة - حشودًا على الجبهتين المصرية والسورية، ثم إن هناك فى الساعات الأخيرة إشارات إلى احتمالات نشوب قتال، ولكن الأمر لا يبدو مؤكدًا بطريقة حاسمة.

واتصل كيسنجر بالرئيس الأمريكى فأيقظه من النوم وأبلغه بما حدث واتفق معه على ما يمكن عمله وبعدها أجرى كيسنجر اتصالين أحدهما مع الاتحاد السوفيتى والثانى مع مصر:

واتصل الدكتور هنرى كيسنجر بالسفير السوفيتى فى واشنطن أناتولى دوبرينين ليتصل بسرعة بالكرملين، ثم أمر كيسنجر بفتح الخط الساخن بين البيت الأبيض والكرملين مباشرة لنقل رسالة من بندين باسم نيكسون إلى بريجنيف:

● إذا كان فى نية مصر وسوريا القيام بهجوم على إسرائيل فإن الولايات المتحدة ترجو أن يتدخل الاتحاد السوفيتى للحيلولة دون وقوع مأساة أخرى فى الشرق الأوسط.

● إذا كانت حشود مصر وسوريا تخوفًا من هجوم إسرائيل محتمل بعد التوتر الناشئ من اشتباك الطائرات يوم ١٣ سبتمبر - فإن الولايات المتحدة تستطيع أن تؤكد بالنيابة عن إسرائيل أن إسرائيل ليست لديها نية هجوم.

ثم اتصل الدكتور هنرى كيسنجر بوزير الخارجية المصرى وقتها، وكان هو الآخر فى نيويورك، يرجوه أن يتصل بالقاهرة فورًا لإبلاغ الرئيس السادات برسالة من الرئيس نيكسون (وكانت فى مضمونها لا تخرج عن رسالة نيكسون إلى بريجنيف).

وفى حين كان دوبرينين يتصل من واشنطن بالكرملين فى موسكو - فإن وزير الخارجية المصرى كان يتصل برئاسة الجمهورية فى القاهرة.

كانت الساعة فى نيويورك وقتها السادسة وعشر دقائق من الصباح بالضبط وكانت الساعة فى القاهرة وقتها الواحدة وعشر دقائق بعد الظهر بالضبط.

وصلت الرسالة إلى الرئيس السادات وكان قد انتقل فى مقر قيادة العمليات فعلاً وأمامه خرائط الخطة والدقائق والثوانى تزحف فى بطء ورهبة نحو ساعة الصفر وكان باقيًا عليها بالضبط عشرون دقيقة؛ لأن موجة الهجوم الجوى الأولى بقرابة مائتى طائرة كان محددًا لها الثانية إلا عشر دقائق.

وفى ذلك الوقت تقريبًا كان السفير السوفيتى فى القاهرة فلاديمير فينوجرادوف يتصل برئاسة الجمهورية تليفونيًا بناء على تعليمات تلقاها من موسكو: يسأل عما بلغهم عن طريق الرئيس نيكسون».

وقيل للسفير السوفيتى:

«إن القوات المصرية تقوم الآن برد هجوم قامت به القوات الإسرائيلية على بعض المواقع فى خليج السويس، وأن العملية قد تتطور».

□

فى ساعات الفجر كان الجنرال موشى ديان يدخل ومعه الجنرال دافيد اليعازر وبعض الضباط من هيئة أركان الحرب الإسرائيلية - إلى مكتب رئيسة وزراء إسرائيل السيدة جولدا مائير، وكان يحمل معه تقديراته وتقديرات القيادة العسكرية الإسرائيلية لاحتمالات الضربة المضادة.

وليست عندى تفاصيل كاملة عن وقائع ما دار فى هذا الاجتماع، ولكن نتائجه قد تشير إلى وقائع ما دار فيه.

لقد انتهى الاجتماع إلى النتائج التالية:

١ - لقد فات الوقت لتوجيه ضربة إجهاض مؤثرة بالذات ضد الجيش المصرى لأن الأمر يقتضى حشد قوات ليست جاهزة لهذه المهمة.

٢ - إن التدخل بنصف ضربة لن يأتى بأى نتيجة وخصوصًا أن مصر بنت فى الشهور الأخيرة مواقع دفاعية ضخمة تستطيع إبطال أثر ضربة الإجهاض.

٣ ـ إن الاعتماد على الطيران وحده فى ضربة الإجهاض المقترحة سوف يعرض الطيران الإسرائيلى لشبكة الصواريخ المصرية بطريقة مباشرة، ومعنى ذلك أن إسرائيل يمكن أن تخسر فى هذه المحاولة من طائراتها ما يعطى لمصر ميزة بدلاً من أن يحرمها من ميزة.

٤ ـ إن البدء بضربة إجهاض غير مؤثرة، أو غالية فى تكاليفها من الطائرات، لن يكون له من نتيجة إلا إظهار إسرائيل مرة أخرى بمظهر المعتدى، وهو وضع لا تستطيع مواجهته عالميًا مرة أخرى. وربما كان فى استطاعتها مواجهته، وليكن ما يكون إذا جاءت ضربة الإجهاض رادعة، أما وهى لن تكون رادعة فإن البدء بها سوف يكون حماية سياسية بغير فاعلية عسكرية.

والغريب أنه ظل حتى هذا الوقت المتأخر اتجاه يقول بأن المصريين سوف يغيرون رأيهم فى آخر لحظة... ثم إنهم لن يعرفوا كيف يبدءون... ثم إنهم إذا بدءوا فسوف تضيع المبادأة من أيديهم فور أن يبدأ التصدى الإسرائيلى لهم!

□

ودعت السيدة جولدا مائير بعد ذلك إلى اجتماع لمجلس الوزراء بكامل هيئته وكانت الساعة التاسعة صباحًا من يوم ٦ أكتوبر واتصلت المناقشات، وكانت هناك آراء تحبذ الضربة المضادة مهما كان حجمها أو بلغت تكاليفها، ثم انتهى هذا الاجتماع بدوره إلى القرارات التالية:

١ ـ تكثيف الاتصالات بالولايات المتحدة للسؤال عن نتيجة مساعيها.

٢ ـ دعوة الاحتياطى العام.

٣ ـ صدور أمر إنذارى بالتأهب إلى قوات الجبهة.

٤ ـ على وزير الدفاع ورئيس أركان الحرب أن يعيدا النظر فى إمكانية توجيه ضربة إجهاض إذا لاحت لهما فرصة، حتى ولو كانت هذه الضربة بالطيران وحده.

وانتهى اجتماع مجلس الوزراء فى الساعة الثانية عشرة ودقائق قليلة، ونظر أحد الوزراء فى ساعته وقال للجنرال ديان:

ـ ما زالت أمامك أكثر من خمس ساعات ثمينة... إن المعلومات تقول بأن الهجوم سوف يأتى مع آخر ضوء ونحن الآن فى منتصف النهار... ومن الآن إلى لحظتها فقد تتاح لك فرصة!»

وقال ديان وهو يجرى مسرعًا إلى سيارته قاصدًا وزارة الدفاع:

ـ سوف نرى ما يمكن عمله.

وأرسلت إشارة إنذار إلى كل القيادات من «تساهال» قيادة الجيش الإسرائيلى... وصدر القرار بالتعبئة العامة... وراحت إذاعة إسرائيل تردد إشارات استدعاء الاحتياطى المتفق عليها... وراحت سيارات الجيش تجمع الجنود من احتفالات يوم الغفران... ثم إن قيادات الجبهة التى تلقت الإنذار راحت تحاول تبليغيه إلى وحدات الخط الأمامى.

وكان مركز قيادة الاتصالات فى «أم خشيب» ـ فى سينا ـ مشغولا بإرسال إشارات الإنذار إلى وحدات الخط الأمامى حينما انقضت عليه الصواريخ.

كانت الساعة الثانية بعد الظهر، فات الوقت، وانقضت المفاجأة.

* * *

وهم الآن فى إسرائيل، ومع حمى المعركة الانتخابية يناقشون ويناقشون ويناقشون.

وسوف يبدو أمامهم مهما كان أو يكن تصدع فى نظرية الأمن الإسرائيلى تحقق بالضبط فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر:

المبادأة ليست فى يدهم هذه المرة.

ـ المفاجأة عندهم هذه المرة، ومثل هذا الصدع فى مثل ذلك المجتمع ليس مجرد أمر

عسكرى وإنما هو صدع فى البنيان الاجتماعى من أساسه لأنه يمس الفلسفة التى يقوم عليها هذا البنيان.

. . . .

. . . .

وبدأت وقائع الحرب وحديثها يطول لكنه يمكن تلخيص محصلتها فى عبارة واحدة أقولها بمنتهى التحفظ:

ـ ليس هناك ما هو أقرب للهزيمة أكثر من جيش انتشى بالنصر؛ لأن النصر ينسيه إمكانية تغيير الموازين، كما أنه ليس هناك ماهو أكثر قربًا للنصر من جيش قاسى الهزيمة؛ لأن الهزيمة تعلمه ضرورة تغيير الموازين».

(٢)

إسرائيل: مايجرى وماجرى
المراحل الثلاث لصراع الحرب

١٤ ديسمبر ١٩٧٣

منذ بدء الحضارة، وكل عمل إنسانى يمر فى ثلاث مراحل متعاقبة، وأحياناً تكون متداخلة، وهى:

- نقطة البداية (أى القرار).
- خط الممارسة (أى الحركة).
- ثم: المحصلة (أى النتائج).

ولو اعتبرنا أن الزراعة كانت مدخل الإنسان إلى الحضارة - وهذا صحيح - لوجدنا أن المراحل الثلاث تتمثل فيما يلى:

- الغرس: (وهو نقطة البداية، أو القرار).
- الفلاحة: (وهى حركة الرعاية المستمرة للغرس ومتابعة مراحل النمو والتنبه للعلاقة بالفعل ورد الفعل بين الإنسان والأرض، بما فى ذلك حساب متغيرات الجو والاستعداد للعوارض الطارئة).

● الحصاد: (وهو جمع النتائج التى يحققها الغرس والفلاحة، وحماية هذه النتائج، والاستفادة منها إلى الحدود القصوى).

والسياسة، قديمًا وحديثًا، لا تختلف عن ذلك كثيراً - باعتبارها عملاً إنسانيًا - وربما كان الفارق بين السياسة القديمة والسياسة الحديثة، هو زيادة معدلات سرعة الحركة، وتغير الوسائل والأدوات، واتساع رقعة العمل، وتنوع المؤثرات والاحتمالات - لكن المعالم الرئيسية تبقى كما هى بدون اختلاف كبير:

● صنع القرار السياسى واتخاذه لتحقيق هدف من الأهداف المطلوبة.

● إدارة الصراع السياسى الشامل للوصول إلى هذا الهدف المطلوب.

● استغلال العناصر التى تظهر من خلال إدارة الصراع وتوجيه النتائج التى تتحقق به للوصول إلى حل يتلاءم - أو هو قريب - من الهدف المطلوب.

ولقد قلت فى السطر الأول من هذا الحديث إن المراحل الثلاث فى أى عمل: متعاقبة، وأحياناً تكون متداخلة، والحقيقة أن الصلة بين المراحل الثلاث وثيقة إلى درجة عضوية، أى أنه:

● لابد أن تكون نقطة البداية سليمة، لتكون هناك فرصة لممارسة سليمة، ثم لمحصلة نهائية سليمة.

● وقد يحدث أحياناً أن يكون الغرس طيباً، ولكن الفلاحة تقصر فى دورها، فلا يكون هناك حصاد، أو أن يكون الغرس طيبًا، وتكون الفلاحة واعية، ولكن أسلوب الحصاد يفسد المحصول، أو يكون القصور فى حماية المحصول بعد الحصاد فإذا اللصوص يسرقونه من «الجرن»!

● وقد يكون القرار السياسى صائبًا فى صنعه واتخاذه، ثم يحدث الخلل فى مرحلة إدارة الصراع، أو يحدث الخلل فى مرحلة استغلال العناصر التى تظهر من خلال إرادته والخطأ فى توجيهها بما يحقق الوصول إلى حل يتلاءم - أو يقترب - من الهدف المطلوب.

وربما لاحظنا ـ ولابد أن نلاحظ ـ أن المراحل الثلاث لأى عمل تعكس نفسها عند التطبيق العملى فى ثلاث قسمات شبه مستقلة، برغم التداخل بين المراحل عند التطبيق العملى تبدو القسمات الثلاثة المستقلة، ظاهرة واضحة على النحو التالى:

● **فى المرحلة الأولى**: (البداية ـ الغرس ـ القرار)، فإن التصرف يكون فى الواقع أشبه بحديث من جانب واحد (ما يسمونه مونولوج)، أى طرف قرر بنفسه ولنفسه، وأخذ فى يده المبادأة، وربما المفاجأة وأقدم على عمل ما لتحقيق هدف ما.

● **وفى المرحلة الثانية**: (الممارسة ـ الفلاحة ـ إدارة الصراع)، فإن التصرف يكون فى الواقع أشبه بحوار بين طرفين (ما يسمونه ديالوج)، ذلك لأن الطرف الآخر لا يستسلم للمبادأة ـ أو للمفاجأة ـ إلى الأبد وبغير رد فعل من جانبه. ولعل هذه المرحلة الثانية فى أى صراع، أن تكون أخطر المراحل فيه، لأنها المرحلة التى تستطيع أن تصون ما سبقها وتؤثر فيما بعدها، ذلك لأنها مرحلة الاختبار الفعلى للقوى، فهى المرحلة التى تبدو وتتجلى فيها «ديناميكا» الصراع.

ذلك أنه حينما يبدأ أحد بحديث من طرف واحد، فإن الحديث قد يكون بليغاً، وقد يكون مؤثراً، ولكن الصورة الكاملة لا تظهر إلا عندما يبدأ الحوار بين اثنين، ويحتدم الصراع بين القوى المتعارضة.

● **وفى المرحلة الثالثة**: (المحصلة ـ الحصاد ـ استغلال العناصر وتوجيه النتائج لتحقيق الهدف)، فإن التصرف فى الواقع يصبح ـ فى ظل أوضاع متغيرة ـ مناقشة عامة بين أطراف متعددة، لأن أى صراع فى هذا العالم، وفى هذا العصر، لا يمكن حصره بين طرفين، وإنما يدخل آخرون فيه بعد وقت معين، وهم فى تدخلهم يتأثرون بما حدث فى المرحلتين السابقتين، وتدخلهم بدوره يؤثر فى المرحلة الثالثة على نحو أو آخر: ولكنه يبقى طول الوقت تحت تأثير ما سبق.

* * *

وإذا تركنا التعميم إلى التخصيص فيما هو متصل بموقفنا اليوم من حرب ٦ أكتوبر وما يجرى وجرى فى إسرائيل بسببها، فإننا نستطيع أن نضع الملامح التالية على أساس المراحل الثلاث فى كل عمل إنسانى:

١ ـ **مرحلة القرار**: (كان قرار الحرب عربياً، وقد تحملت مصر بالذات مسئوليته الأولى، وكانت المبادأة فيه ـ والمفاجأة ـ فى يد الطرف العربى).

ويمكن أن نقول إن هذه المرحلة بدأت من تاريخ سابق بكثير على السادس من أكتوبر، ثم بلغت قمتها فى ذلك اليوم.

٢ ـ **مرحلة إدارة الصراع ـ بالقوة الشاملة ـ بعد القرار**: وحين بدأ رد الفعل الإسرائيلى والموالى لإسرائيل (من الولايات المتحدة الأمريكية)، ولم يعد الصدام بذلك مجرد حديث من جانب واحد (مونولوج)، وإنما أصبح الصدام حديثًا بالنار بين طرفين (ديالوج).

ونستطيع أن نقول إن هذه المرحلة ما زالت مستمرة إلى الآن.

٣ ـ **مرحلة تحقيق الهدف**: ونستطيع أن نقول إن هذه المرحلة تكاد تبدأ مقدماتها، وكلها معلقة بالتطورات القادمة وشكلها ونوعها وقيمتها.

ولسنا فى هذه المرحلة نجرى حديثًا من جانب واحد، كما أننا لا نجرى فيها حواراً بالنار مع العدو فقط، ولكن الأمر تحول ـ فى ظل أوضاع متغيرة ـ إلى مناقشة عالمية، فيها أمتنا العربية كلها، وفيها القوتان الأعظم (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى)، وفيها أوروبا الغربية، وفيها أفريقيا، وفيها الدول غير المنحازة، وفيها الأمم المتحدة بأسرها، كما أن أساليب الفرض أو الإقناع فى هذه المناقشة لا تقتصر على قوة النار، ولكن هناك أيضًا قوة النفط، وقوة الرأى العام العالمى وتوازن القوى الدولية ... إلى آخره.

وبالتالى فلعلى أقول إن ما أتحدث عنه هنا، فى هذه السلسلة من المقالات عن

«إسرائيل: ما يجرى وما جرى» محدد كله، ومحصور كله، فى نطاق المرحلة الأولى وهى «مرحلة القرار»، ذلك لأن هذه المرحلة أمامنا كاملة أو شبه كاملة، وذلك مع تسليمى بأنها متداخلة مع مراحل تليها فيما يتعلق بأى حكم نهائى.

أردت أن أحدد ذلك لكى أكون دقيقاً فيما أقول، ثم لكى أكون منصفًا.

* * *

كما يوم السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ ـ وسوف يبقى كذلك مهما حدث أو يحدث ـ أكثر الأيام سواداً فى تاريخ إسرائيل حتى الآن.

فى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم، كانت المبادأة العسكرية ـ لأول مرة ـ فى يد مصر، وكانت المفاجأة ـ لأول مرة ـ ضد إسرائيل.

وصحيح أن إسرائيل عرفت قبلها بساعات بنية هجوم وشيك عليها من الجبهة المصرية والجبهة السورية، إلا أن الوقت كان متأخرًا «لعمل شىء مؤثر» كما ثبت من نتائج اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى صباح يوم السادس من أكتوبر:

● كان الوقت قد فات لضربة إجهاض مؤثرة، لأن القوات اللازمة لمثل هذه الضربة لم تكن متوافرة لدى إسرائيل.

● كان التدخل بنصف ضربة قاصرًا عن تحقيق أى هدف.

● كان الاعتماد على الطيران وحده لضربة الإجهاض المقترحة كفيلاً بتعريض الطيران الإسرائيلى لشبكة الصواريخ المصرية، وبتكاليف فادحة بالنسبة له.

● كان التقدير الإسرائيلى أن البدء بنصف ضربة أو بضربة طيران فادحة التكاليف، سوف يظهر إسرائيل مرة أخرى بمظهر المعتدى، وهو وضع لا تستطيع مواجهته عالميًا، خصوصًا مع احتمال الفشل، وهو ما بدا محققًا.

وللأمانة التاريخية، فإن هذا الوضع الذى وجدت إسرائيل نفسها فيه، لم يكن مجرد مصادفة قابلتها مصر، أو حظًا حالفها فجأة، وإنما كان حسابًا دقيقًا فى خطورته وفى مسئوليته.

وأتذكر مقابلة مع الرئيس أنور السادات في بيته في الجيزة يوم الأربعاء الثالث من أكتوبر، واتصل الحديث من الساعة الثانية بعد الظهر إلى ما قبل مدفع الإفطار بقليل، وكان الحديث بالطبع عما هو قادم وعن احتمالاته.

كنا نجلس في شرفة أمام غرفة نومه مطلة على النيل وفي الهواء الطلق الذي لا يطيق أنور السادات أن يعيش بعيدًا عنه.

وأثناء مناقشة كل الاحتمالات نظر الرئيس إلى ساعته وقال ومازلت أتذكر عبارته بالحرف.

ـ اليوم هو الثالث من أكتوبر والساعة الآن الرابعة بعد الظهر، وأظن أنهم سوف يعرفون بنوايانا في أي لحظة ابتداءً من الآن، ذلك لأن تحركاتنا في الساعات القادمة لن تترك لهم مجالا للخطأ فيما ننويه... لكنهم مهما فعلوا لن يلحقوا بنا...

حتى لو عرفوا هذه الليلة، وحتى لو اتخذوا القرار باستدعاء كل الاحتياطي العام لديهم، وحتى لو فكروا في توجيه ضربة وقائية كما يقولون، فقد فاتتهم الفرصة للحاق بنا».

كان تقديره ـ كما أثبتت الحوادث وأكدت ـ صحيحًا إلى أبعد حد.

لقد رأت إسرائيل أمامها على الجبهة ما لم يترك لها مجالاً للخطأ في نوايا مصر... ولكن الوقت كان متأخرًا وانقضت المفاجأة.

لم تكن المفاجأة هي نية الهجوم المصري فقط، وإنما كانت المفاجأة أوسع مدى من ذلك وأعمق بكثير.

١ ـ فوجئت إسرائيل بجسارة الهجوم المصري على طول خط المواجهة، أي على امتداد ما بين ١٥٠ و ١٧٠ كيلو مترا، وكانت تصوراتها من قبل تتمثل في اندفاعه على جبهة محددة وفي اتجاه محور واحد رئيسي تستطيع تركيز جهودها بالطائرات والمدرعات عليه... ولم يحدث ذلك، وإنما جاء الهجوم على طول خط المواجهة واحتارت إسرائيل في أي ومتى وكيف توجه هجومها المضاد الأول.

٢ ـ فوجئت إسرائيل بدقة التخطيط العلمى لعملية العبور، وكانت هذه العملية فى تقديرات كل الخبراء فى إسرائيل وفى العالم هى مرحلة التعرض المخيف للخطر.

وقد قال الجنرال ناركيس ـ وهو أحد القادة البارزين فى إسرائيل ـ خلال مناقشة له مع أحد الملحقين العسكريين الغربيين فى تل أبيب، وهو يصف عملية العبور:

ـ لابد أن نشهد لهم (للمصريين يقصد)... لقد كانت خطتهم دقيقة وكان تنفيذها أكثر دقة...

إننا حاولنا بكل جهدنا عرقلة عملية العبور وصدها بالقوة وردها على أعقابها... لكننا ما كدنا نتمثل ما حدث إلا وقد تحققت لهم نتائجه.

كأننا أغمضنا عيوننا وفتحناها فإذا هم قد انتقلوا تحت النار من غرب القناة إلى شرقها وفاجئونا صباح يوم السابع من أكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الشرق من القناة!»

٣ ـ فوجئت إسرائيل بنوعية الإنسان المصرى الذى استعد للقتال، وأتيحت له فرصته.

وكان وصف الجنرال جونين القائد العام الإسرائيلى لجبهة سيناء لافتا للنظر، فقد قال الجنرال جونين:

«لقد كانوا يتقدمون موجات بعد موجات... كنا نطلق النار عليهم ويتقدمون... كنا نحيل ما حولهم جحيمًا ويتقدمون... كان لون القناة قانيًا بلون الدم وهم يتقدمون».

٤ ـ فوجئت إسرائيل بعد ذلك بجهد سلاحين، كان تقديرها لهما أقل من الواقع، وكانت التجربة بالنسبة لها مزعجة:

الطيران المصرى وضربته الأولى بقرابة مائتى طائرة، وكان أبرز ما حققه الطيران المصرى فى هذه الضربة الأولى هو تدمير مركز القيادة الإسرائيلى الرئيسى فى «أم خشيب»، وبعده أصبحت جبهة سيناء لعدة ساعات، على حد تعبير

أحد جنرالات إسرائيل «جسمًا بغير جهاز عصبى يحكم تصرفاته ويسيطر عليها». وكانت إحدى قنابل هذه الضربة الأولى هى التى أصابت الجنرال إبراهام مندلر قائد المدرعات الإسرائيلى فى سيناء.

٥ ـ جهاز الدفاع الجوى المصرى خصوصًا عند حائط الصواريخ الشهير الذى بنى سنة ١٩٧٠. وكانت إسرائيل تحسب حساب هذا الحائط تمامًا، ولكن التجربة أثبتت لها أيضًا أن تقديرها لهذا الحائط كان بأقل من حقيقته.

ويصف أحد المراقبين الدوليين عمل هذا الحائط قائلاً:

ـ بين كل أربع طائرات إسرائيلية، اقتربت من هذا الحائط ودخلت فى مجال تأثيره، فإن ثلاثًا منها تهاوت كالفراش المحترق».

وقد ركزت إسرائيل ضد هذا الحائط صفوة ما لديها من الطيارين، وخلال ثمان وأربعين ساعة ـ كما تقول التقارير الإسرائيلية نفسها ـ فقدت إسرائيل من هؤلاء أربعين قتيلاً، معظمهم لا يقل سجله فى الطيران عن ثلاثة آلاف ساعة!

ولكى يكون هذا الرقم فى إطاره الصحيح فلعلنا نتذكر أن إعداد طيار من هذا المستوى فى أى سلاح جوى يتكلف، وفق أدق التقديرات، ثلاثة ملايين جنيه استرلينى من المعدات واستهلاك الطائرات والوقود إلى آخره.. وهذا بالطبع غير ثمن الطائرة التى يكون على قيادتها حين يلحقه صاروخ الموت!

* * *

لم تكن مفاجآت الحرب فى مرحلتها الأولى لإسرائيل فقط:

كانت وزارات الحرب والدفاع فى العالم كله تقريبًا تتوقع هزيمة مصرية ساحقة، وربما كان الخلاف بينها هو تباين فترة الوقت اللازمة للجيش الإسرائيلى حتى «يتصرف كما اعتاد أن يتصرف دائمًا».

كان البنتاجون (قيادة الجيش الأمريكى) يتوقع الهزيمة فى اثنتى عشرة ساعة

لا أكثر، وكانت التقديرات فى أوربا الغربية تتوقعها فى فترة تتراوح ما بين أربع وعشرين إلى ثمان وأربعين ساعة.

ولم تكن هذه تقديراتهم وحدهم وإنما كانت ملخص ما أبلغته لهم إسرائيل من معلومات فى الليلة الأولى من الهجوم العربى.

وحين جاء مساء اليوم الثانى بدأ العالم الغربى يتساءل عن أسباب تأخير النتيجة المنتظرة... لم يكن هناك من يساوره شك فيها... ولكن السؤال كان: لماذا تأخرت؟!

وفى اليوم الثالث كانت هناك شكوك، وكانت هناك تساؤلات وروى لى أحد أعضاء مجلس النواب الأمريكى أن كل عضو فى الكونجرس الأمريكى راح يتصل بالبنتاجون، والسؤال الدائر على كل لسان هو:

- بحق السماء... ماذا يحدث فى ميدان الحرب بين مصر وإسرائيل؟

وكان الرد من البنتاجون معبأ بالحيرة يقول:

- هناك شىء غريب يحدث ونحن بصدد متابعته وتقييمه، وسوف نوافيكم بما يستجد لدينا.

وكانت كل صحف العالم الكبرى تتوقع تكرارًا سريعًا لكارثة سنة ١٩٦٧.

وروى دنيس هاملتون رئيس التحرير العام لمجموعة صحف التيمس فى لندن - وكان يزور «الأهرام» فى الأسبوع الماضى - روى أمامى للرئيس أنور السادات، وكان قد ذهب معى للقائه: إن صحافة العالم توقعت أقصر حرب فى التاريخ... ربما حرب الساعات الست بدلاً من حرب الأيام الستة. وقال دنيس هاملتون:

«لكننا جميعًا بدأنا نراجع توقعاتنا على ضوء ما كان يجيئنا من أخبار جبهات القتال، وكانت كلها عكس ما انتظرناه».

وروى لى صحفى أمريكى كبير تجربته فى متابعة أخبار القتال من نيويورك قائلاً:

ـ فى اليوم الأول كنت أعتمد على المصادر الإسرائيلية وحدها وكنت مقتنعًا بأن ما فيها هوا لحقيقة، لأن إسرائيل بقوتها لايهمها أن تغطى على شيء، ولكننى فى اليوم التالى اكتشفت أن ما أتلقاه من إسرائيل لا يمثل الحقيقة، ومن ثم فإنى تحولت إلى مصادر أخرى...»

وربما كانت الجاليات العربية فى الولايات المتحدة وفى أوروبا بين أكثر من فوجئوا بما حدث.

وروى لى أستاذ فلسطينى يعمل فى إحدى الجامعات الأمريكية تجربته قائلاً:

ـ عندما بدأت الحرب... كان همى وهم غيرى، أن نرتب أنفسنا على ما سوف نقوله بعد أن تحل بنا الهزيمة... كنا فى تكويننا العقلى قد استوعبنا الهزيمة، ولم نكن قد تحسبنا لاحتمال النصر».

واستطرد يقول:

ـ بعد أيام اختلفت الصورة... أدركنا أنه لا حاجة بنا لاستعادة ما استوعبناه من تجربة الهزيمة... أدركنا إننا استأنفنا التاريخ!

❋ ❋ ❋

كان سير المعارك على الجبهة المصرية ـ وأقصر حديثى عليها لا تقليلاً من أهمية الجبهة الأخرى وهى الجبهة السورية، ولكن لأنها الجبهة التى تابعت سير الحرب عليها ثانية بثانية ـ يمشى فى طريق يختلف تماماً عن أى تجربة سابقة.

وربما نقلت بعض الملامح الرئيسية لصورة ما حدث، معتمدًا فى هذا على مصادر دولية متعددة أثق تمامًا فى دقة اطلاعها.

■ ■ ■ قيل لى مثلاً:

ـ إن الجنرال جونين قائد جبهة سيناء فقد أعصابه وأصيب بانهيار كامل بعد سقوط خط بارليف.

وهذا الذى حدث للجنرال جونين يستحق وقفة عنده... إن جونين واحد من جيل القادة العسكريين الإسرائيليين الذين أعدتهم الدولة مبكرًا للقيادة واعطتهم كل الفرص حتى يكونوا على المستوى المطلوب حينما يصلون إلى قمة الهرم العسكرى فى إسرائيل.

إن انهيار الجنرال جونين لم يكن مأساة جنرال غلبته الحوادث، ولكنها كانت مأساة جيل بأسره من القادة الجدد فى إسرائيل.

ربما كانت مشكلة أفراد هذا الجيل الذى وصل إلى القمة العسكرية فى إسرائيل أنهم عاشوا أطفالاً فى تجربة سنة ١٩٤٨، ثم عاشوا رجالا تجربة سنة ١٩٦٧، ثم خلطوا بين قدراتهم الذاتية، وبين ضعف غيرهم، فأعطوا لأنفسهم أكثر مما يستحقون وسلبوا غيرهم حقه فى تلافى ضعفه!»

■ ■ ■ قيل لى مثلاً:

- إن وضع القيادة الإسرائيلية أمام الجبهة المصرية أصبح وضعًا غريبًا، فقد سارعت القيادة السياسية والعسكرية العليا إلى تعزيز جبهة سيناء بعدد من جنرالات إسرائيل القدامى المجربين.

كان هناك رأى بعزل جونين بعد انهياره، ولكن ديان عارض ذلك، لأنه يسىء إلى سمعة العسكرية الإسرائيلية، ويعتبر اعترافًا بالفشل أمام الجيش المصرى.

والنتيجة أن جونين وجد نفسه باقيًا فى قيادته، ولكن حوله ثلاثة من الجنرالات يتنازعون الأوامر وهم:

● **الجنرال كالمان**: الذى حل فى قيادة المدرعات أمام الجبهة المصرية محل الجنرال يتنازعون الأوامر وهم:

● **الجنرال أدان**: الذى أرسل على عجل ليقوم بأية مهام يكلف بها بجوار الجنرال جونين.

● **الجنرال شارون**: وهو قائدة جبهة سيناء السابق، وقد كلف بتحين الفرصة

للقيام بهجوم إسرائيلى مضاد، وكان هو فعلاً قائد قوات الثغرة فى الدفرسوار والمشكلة أن كل هؤلاء الجنرالات الثلاثة كانوا أسبق فى الأقدمية من الجنرال جونين الذى كان ما زال على الورق قائدًا عامًا للجبهة!

كانوا تحت قيادته... وكانوا أعلى رتبة منه.

والنتيجة فوضى شاملة فى قيادة الجبهة.

وتقرر إرسال الجنرال حاييم بارليف ليتولى التنسيق بين الجنرالات الأربعة الذين شاعت الفوضى فى علاقاتهم وتوجيهاتهم، ولكن بارليف وصل لكى يصبح طرفًا فى الفوضى الضاربة، وليس حكمًا فوق أطرافها.

■ ■ ■ قيل لى مثلا: والقائل فى وضع يسمح له بمعرفة الحقائق كاملة.

- إن الجنرال دافيد اليعازر رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإسرائيلى دخل إلى اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلى يحمل تقريرًا يدعو إلى التشاؤم حول سير الحرب على الجبهة المصرية.

كان ذلك فى مساء يوم ٨ أكتوبر، وكان مؤدى تقرير «دادو» - اسم التدليل الذى اشتهر به دافيد اليعازر - أن قوة المدرعات الإسرائيلية فى سيناء قد تلقت ضربة مخيفة.

كانت هناك حين بدأت العمليات ثلاثمائة وخمسون دبابة.

وقال «دادو» فى تقريره:

- لم تبق الآن فى سيناء وعلى طول المسافة من خط الجبهة إلى العريش غير تسعين دبابة».

واستطرد دادو:

- إن هناك ألوية مدرعة من الاحتياطى الاستراتيجى تأخذ طريقها الآن إلى خط الاشتباك مع مصر.. ولكن الموقف فى هذه اللحظات عصيب.

وسكت «دادو»، وران الصمت على مجلس الوزراء الإسرائيلى.

■ ■ ■ وقيل لى مثلاً:

إن دافيد اليعازر جلس إلى اجتماع مع الملحق العسكرى الأمريكى فى إسرائيل يعطى قوائم بالسلاح المطلوب إرساله على عجل، وكان أول طلباته أسلحة صاروخية مضادة للدبابات.

وطلب اليعازر أن تجيء هذه الأسلحة الصاروخية المضادة للدبابات على عجل، وأن تنقل بالطائرات، لأن كل دقيقة لها قيمتها.

وسمع بعض الملحقين العسكريين الأجانب فى إسرائيل بطلبات الجنرال اليعازر.

وجلس معهم فى اليوم التالى يعطيهم صورة لما يجرى فى ميدان القتال، وسأله أحد الملحقين العسكريين الغربيين:

ـ لماذا لم تكن لديكم من قبل هذه الأسلحة الصاروخية المضادة للدبابات... إننا نعرف أن معظم إصابات دباباتكم جاءت من الصاروخ الذى تستعمله مصر وهو من طراز «مولوتكا» السوفيتى.. ومعنى ذلك أن مصر تنبهت من قبل لأهمية الصواريخ المضادة للدبابات، فى حين أنكم هنا لم تتنبهوا لذلك..

كانت ترسانات الأسلحة الأمريكية مفتوحة لكم... تختارون كما تشاءون ولكنكم لم تأخذوا ما كانت بكم حاجة إليه والآن تجدون أنفسكم فى موقف صعب.».

ورد الجنرال اليعازر رداً فيه من العصبية أكثر مما فيه من المنطق قائلاً ببساطة، وأكاد أقول ببلاهة:

ـ أيها السادة... أنتم تنسون أننا أعددنا جيشنا ليكون جيشًا هجوميًا... كنا نريد الدبابات ولم تكن تعنينا الأسلحة المضادة للدبابات... نحن جيش هجومى... هل ترون؟!

■ ■ ■ قيل لى مثلاً:

ـ من الغريب أنه كانت لدى إسرائيل كل الفرصة لمعرفة قدرة وفاعلية الصواريخ المضادة للدبابات.. كان هناك باستمرار مراقبون إسرائيليون فى كل معارك فيتنام وقد شهدوا استعمالات الأسلحة الأمريكية الحديثة على الطبيعة.

كانوا هناك حيث استطاع الفيتناميون الجنوبيون أن يصدوا آخر هجوم بالدبابات قامت به قوات الجنرال جياب الفيتنامى الشمالى الأسطورى.

وقد تمكن جيش فيتنام الجنوبية من تدمير دبابات كثيرة للجنرال جياب وكانت هناك جلسة لتقييم نتائج هذه المعركة حضرها جنرال إسرائيلى لكنه قال:

ـ إن خسائر جياب لم تكن بسبب الصواريخ المضادة للدبابات، ولكن لأن قواته التى تعودت أساليب حرب العصابات ونجحت فيها نجاحًا باهرًا كانت أمام تجربة لم تستوعبها؛ لأن حرب الدبابات كانت جديدة عليها!

* * *

ومضت أيام قبل أن تتمكن القيادة الإسرائيلية من استعادة توازنها، لكنها عندما فعلت ذلك كانت خسائرها فادحة:

كانت قد فقدت ثلث سلاح الطيران وضاعت منها صفوة الطيارين.

كانت قد فقدت نصف سلاح المدرعات بما فيها خيرة الأطقم المدربة.

كانت قد فقدت ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف قتيل من الضباط والجنود.

ولقد زادت كل هذه الخسائر فيما بعد لكن تلك كانت الفترة التى وقفت فيها إسرائيل على حافة الجنون.

● كانت هذه هى الفترة التى سارعت فيها الولايات المتحدة الأمريكية إلى إقامة جسر جوى وبحرى ينقل المدد العسكرى السريع إلى إسرائيل.

● وكانت هذه الفترة التى راودت فيها إسرائيل فكرة التخويف بالمعلوم ـ أو بالمجهول ـ عن قنابلها الذرية.

ولعلى أرجو ملحًا أن يؤخذ هذا الموضوع جدًا، وأن نستعد له عارفين مقدمًا أن استعمال الأسلحة الذرية دونه محاذير هائلة، ولكن علينا أن ندرك أن صراعنا مع إسرائيل برغم كل ما يقال عن مؤتمر السلام القادم صراع طويل قد يشهد لحظات جنون يجب ألا تأخذنا فيها أية مفاجأة، ثم إن هذه الأمة العربية إذا كانت بالفعل تتطلع إلى دور عالمى مؤثر فإنها لا تستطيع بلوغه بغير مظلة ذرية مستقلة، وهو ما فهمته جيدًا كل من الصين وفرنسا وأكاد أقول: والهند واليابان أيضًا من ناحية استعدادهما لصنع القنبلة فى شهور إذا ما صدر بذلك قرار سياسى).

● وكانت هذه هى الفترة التى صدرت فيها الأوامر إلى الجنرال شارون بأن يقوم - ومهما كانت المخاطر - باختراق الجبهة المصرية لكى يصل بقواته إلى الغرب من قناة السويس.

● ثم كانت هذه أخيرًا هى الفترة التى أطلت فيها أزمة الثقة لأول مرة فى إسرائيل بين الجيش والحكومة وبين الجيش والشعب، وبين الحكومة والشعب.

أحس الرجل العادى فى إسرائيل أن الأمور على الجبهة تسير خلافًا لما كان مهيأ له وأحس الرجل العادى فى إسرائيل أن ما يقال له أبعد ما يكون عن الحقيقة.

واهتزت أشياء كثيرة فى إسرائيل..

أفكارٌ... وقيمٌ... ومعتقدات سابقة.

وتهاوت مُثل... وتماثيل... وصُروح شامخة أو بدت شامخة!

. . . .

. . . .

كل هذا والانتخابات الإسرائيلية العامة على الأبواب.

وهى انتخابات سوف تحكم نتائجها سياسة ومزاج إسرائيل لعدة سنوات قادمة على الأقل.

ولو تصورنا أن كل صراع هو فى حقيقته إمتحان لاستطعنا أن نقول بما يلى:

● إن مصر حصلت على الدرجات النهائية الأولى من حرب أكتوبر وهى مرحلة القرار والمبادأة ـ والمفاجأة ـ به.

● إن مرحلة إدارة صراع الحرب ـ ضمن ممارسة القوة السياسية الشاملة ما زالت تجرى.

● إن مرحلة تحقيق الهدف ـ أو محاولة ذلك ـ على وشك أن تبدأ.

وليس هناك شك فى أن إسرائيل سوف تستميت للحصول على أقصى ما تستطيع الحصول عليه من درجات الامتحان فى المرحلتين الأخيرتين... مرحلة ما زالت تجرى، ومرحلة على وشك أن تبدأ.

وليس هناك شك فى أننا نحن الآخرين سوف نحاول تعزيز نجاح المرحلة الأولى بنجاح مماثل فى المرحلتين التاليتين.

ومن هنا تأتى أهمية متابعة ما جرى ويجرى الآن فى إسرائيل وبالذات فى فترة انتخابات عامة فى بلد غير عادى، فى ظروف غير عادية.

(٣)

إسرائيل: ما يجرى فيها وما جرى!
مغامرة «الجنرال شارون»
وحكاياتها ونتائجها

٢١ ديسمبر ١٩٧٣

لا أظن أن المؤتمر الدولى الذى يبدأ اليوم فى جنيف، سوف يعبر بأزمة الشرق الأوسط ذلك الجسر الدقيق والحرج بين الحرب والسلام. ولعلى من هنا فضلت تسميته بـ «مؤتمر جنيف» وليس «مؤتمر السلام فى جنيف» ـ ذلك أن هذا المؤتمر تحيط به، وتضغط عليه مجموعة عوامل وظروف موضوعية، تجعل دوره فى تحقيق سلام الشرق الأوسط مهمة صعبة، وأكاد أقول مستحيلة، ما لم تتبدل هذه العوامل ولم تتغير هذه الظروف.

وربما قلت إننى لا أرى ضررًا من حضور هذا المؤتمر إذا كان من وراء ذلك «اختبار للنوايا» ـ ولكنى أقول على الفور إننى لا أرى نفعًا من حضوره إذا كنا نتصوره طريقًا إلى نتائج سريعة ومحققة.

والأسباب التى تدعونى إلى ذلك القول، وهى تعبير بشكل أو بآخر عن مجموعة العوامل والظروف الموضوعية التى تحيط بهذا المؤتمر وتضغط عليه، كما يلى وفيما أتصور:

١ ـ إن الدور الأمريكى ـ حتى هذه اللحظة ـ مثير للشك وليس داعيًا للطمأنينة... وحتى الآن فإن هذا الدور يضغط على العرب ولا يضغط على إسرائيل، بصرف النظر عن بعض الإيحاءات السطحية التى تريد أن تقنع بعكس هذا.

وليست تهمنى كثيرًا مظاهرة من عشرين أو ثلاثين شخصًا ذهبوا لاستقبال الدكتور هنرى كيسنجر عند وصوله إلى مطار اللد رافعين «الشماسى» تذكيرًا لكيسنجر بدور «تشمبرلين» عندما استسلم فى ميونيخ أمام هتلر سنة ١٩٣٨ ـ وإنما تهمنى أكثر من ذلك حقائق لا علاقة لها بأية مظاهرات مسرحية: منها مثلاً أن تزاد قيمة المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل، وأن يصدق مجلس النواب الأمريكى على هذه المساعدات قبل وصول كيسنجر إلى الشرق الأوسط بثلاثة أو أربعة أيام ـ ومنها مثلاً أحاديث كيسنجر أثناء مؤتمر وزراء خارجية حلف الأطلنطى، ومحاولته تذكير أوروبا الغربية بأنها فشلت تمامًا فى فهم حرب أكتوبر، وأن تعرض إسرائيل لنكسة فيها كان خطرًا مخيفًا على حلف الأطلنطى، وأن دول أوروبا الغربية اخطأت حين منعت سيل المساعدات الأمريكية المتدفق على إسرائيل من المرور عبر أوروبا ومنها، ومثلاً هذه التأكيدات التى أعطاها الدكتور كيسنجر لهولندا بأن الولايات المتحدة سوف تقدم لها ما تحتاج إليه من البترول بما يبطل مفعول الحظر العربى على تصديره إليها ـ ومنها مثلاً ذهاب كيسنجر لزيارة لشبونة عاصمة البرتغال، كتعبير عن تقدير أمريكا للدولة الأوروبية الوحيدة التى سمحت بمرور المساعدات الأمريكية لإسرائيل عبر أراضيها ـ ومنها مثلاً عجز أمريكا عن الضغط على إسرائيل لتنفيذ البند الثانى من النقط الست المشهورة وهو البند الخاص بالعودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر، مع أن هذه النقط الست كانت من فكر وصياغة الدكتور هنرى كيسنجر نفسه، وقد نفذت مصر منها ما يخصها، ولم تنفذ إسرائيل منها بندًا واحدًا كان يخصها ـ ومنها مثلاً أن أمريكا راحت تضغط على العرب لكى يوقفوا تخفيض ضخ البترول إلى الغرب، وحجتهم فى ذلك كما قال الدكتور كيسنجر فى الرياض للملك فيصل «إن استمرار الضغط على هذا النحو لا يتيح لأمريكا أن تقوم

بدورها الذى تأمل القيام به، وإلا سمحت لنفسها كقوة عظمى بأن تتصرف تحت الإكراه، وأن يملى عليها غيرها سياساتها وممارساتها»!

٢ - إن الدور السوفيتى - حتى هذه اللحظة - يتحدث عن أزمة الشرق الأوسط فى نبرة هادئة أكثر مما ينبغى، وإلى درجة لا تسمح لكثيرين أن يتبينوا بالضبط ماذا يقول الاتحاد السوفيتى (وهذه مسألة ليس هذا وقت مناقشتها تفصيلا، ثم إن التطورات قد ترتفع بصوت الاتحاد السوفيتى إلى طبقة عالية) وإن كان علينا أن نسلم بأن الاتحاد السوفيتى له الحق فى أن يشعر ببعض ما يشعر به اليوم من مرارة ذلك؛ لأن هناك من ينسون أنه إذا كانت هناك صداقة دولية ذات أهمية حيوية للعرب - فهذه الصداقة هى مع الاتحاد السوفيتى بالدرجة الأولى...

٣ - إن الدور العربى لا يذهب إلى المؤتمر بكامل قوة فعاليته، ذلك أن التحالف العربى الكبير الذى أضاف إلى حرب أكتوبر مهابة شعرت بها الدنيا كلها، راح يتباعد فى آرائه، وأحيانًا فى تصرفاته...

٤ - إن الدور الخاص الذى كان منتظرًا فى هذا المؤتمر للأمم المتحدة تواضع إلى درجة تثير القلق، ولقد أصبح هذا الدور مجرد رئاسة شرف «لفالدهايم» مقصورة على مراسم الافتتاح، وقد حدث ذلك تحت ضغط مكثف وعنيف جعل مقر الأمم المتحدة فى نيويورك ومكتب سكرتيرها العام تائها لا يعرف ماذا يفعل، ولا ما هو مطلوب منه!

٥ - إن الدور الأوروبى مشتت بالحيرة بين اعتبارات متباينة تتجاذبه، وعلى أى الأحوال فإن الدور الأوروبى قد عزل - ولو مؤقت - عن التأثير المباشر فى موتمر جنيف، لأن إسرائيل أصرت على عدم اشتراك بريطانيا وفرنسا فى المؤتمر، وسمحوا لها بما أصرت عليه رغم ارتباط عضوى بين الأمن الأوروبى والأمن فى الشرق الأوسط.

٦ - إن دور البترول العربى - وهذه مسألة حساسة ولابد أن نتنبه لها - يتعرض لمحاولات من جانب بعض العناصر والقوى. وهى تحاول أن تتجه به إلى لعبة رفع الأسعار وتتصور أن بذلك تغريه بأن يرفع درجة استفادته هو من الأزمة، أكثر من

درجة استفادة الأزمة منه (وهذه أيضًا مسألة ليس هذا وقت مناقشتها تفصيلا) ولقد أقول لكى لا يكون هناك مجال لأى لبس إن لعبة رفع الأسعار لا بأس بها، ولكن معيار جدواها بالنسبة للمعركة هو ما تقدمه زيادة الأسعار عمليًا من دعم مباشر لأعباء المعركة.

٧ - إن إسرائيل تريد أن تصدق نفسها فى نتائج حرب أكتوبر، بل أكاد أقول إنها تريد أن توهم نفسها فى هذه النتائج، على أساس أن تقدمها لعدة كيلومترات وراء خط وقف إطلاق النار فى سوريا، كما أن تمكنها من عبور البحيرات المرة وفتح ثغرة إلى الغرب من قناة السويس، يجعل حرب أكتوبر فى النتيجة النهائية لصالحها وليست ضدها. وقد عبر الجنرال ياريف عن هذا الشعور الإسرائيلى فى آخر اجتماع عقد عند الكيلو ١٠١، ففى ذلك الاجتماع استمع الجنرال ياريف إلى اقتراح مصرى بخطوط الفصل بين القوات المتحاربة ثم كان تعليقه:

- ولكن ذلك لا يعكس النتائج الحقيقية لحرب أكتوبر».

ولقد رد عليه اللواء الجمسى منبهًا ومذكرًا، ولكن الجنرال ياريف ظل على عناده وتوقفت اجتماعات الكيلو ١٠١ وكان ذلك خيرًا، لأن هذه الاجتماعات من أولها إلى آخرها كانت تجربة فى الفراغ!

□

وهذه النقطة الأخيرة، نقطة رغبة إسرائيل فى تصديق نفسها، أو إيهام نفسها، هى النقطة التى تعنينى فى هذا الحديث، وهو كما قد نتذكر حديث يركز على «إسرائيل وما يجرى فيها وما جرى» وتأثيره على الانتخابات العامة التى اقترب موعدها، وهى انتخابات سوف تحكم تصرفات العدو ومزاجه لعدة سنوات قادمة، كما أن حساب الأصوات فيها سوف يكون مصدر كل قراراته فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الشرق الأوسط وصراعاته الكبرى!

* * *

لقد مشت إسرائيل شوطًا طويلا على طريق تصديق النفس أو إيهام النفس. وربما قلنا إن هذا الشوط الطويل بدأ بشكل حاد منذ تلك الأيام الحزينة في يونيو سنة ١٩٦٧ وحين أحرزت إسرائيل نصرًا لم يكن في مجال تصديقها أو حتى في مجال أوهامها، وتكفيني في ذلك قصة بسيطة في وقائعها، مهمة فيما تدل عليه، رواها لي الجنرال أندريه بوفر القائد العسكري الذائع الصيت ومدير مركز الدراسات الإستراتيجية الفرنسي ومستشاره الأكبر حتى الآن.

كانت إسرائيل مبهورة - قبل أي طرف آخر - بما تحقق لها في معارك الأيام الستة. وكان هناك في العالم الخارجي من الخبراء العسكريين من أذهلهم هذا الذي تحقق لإسرائيل، وهرع بعضهم إلى هناك يدرسون ويبحثون، وكان بينهم الجنرال أندريه بوفر.

وكان الجنرال بوفر يعرف الجنرال ديان من وقت حرب السويس سنة ١٩٥٦ فقد كان ديان مسئولاً عن عملية سيناء، وكان بوفر مسئولاً عن الغزو البريطاني الثلاثي المشهور

ووضعت القيادة العسكرية الإسرائيلية طائرة هليكوبتر تحت تصرف الجنرال بوفر وطار بها فوق مسارح العمليات، وبالذات مسرح العمليات في سيناء.

وعاد الجنرال بوفر من رحلة الهليكوبتر فوق سيناء بالضبط مساء يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ والتقى بالجنرال ديان وقال له:

- إن ما تحقق لكم كان شيئًا لم يسبق له مثيل؟».

- إن ديان كان شديد التواضع في مسلكه وفي رد فعله... وكان تعليقه على ما قلت هو:

« في الحقيقة أن الذي يستحق التقدير هو رابين... كان هو الذي أشرف على إعداد الخطة كرئيس لهيئة أركان الحرب، وأما أنا فلم يكن لي دخل فيها لأنني عينت وزيرًا للدفاع قبل نشوب القتال بثلاثة أيام فقط وكان تعييني لاعتبارات سياسية أكثر منها عسكرية».

ويستطرد الجنرال بوفر فى روايته لى فيقول:

- وتصادف فى نفس الليلة أننى قابلت رابين رئيس هيئة أركان الحرب الإسرائيلى: وكان رابين متعبًا ومرهقًا بعد ليال طويلة بغير نوم وقلت له:

لقد تحقق لكم شىء كبير... وقال لى الجنرال ديان قبل ساعة واحدة إن الفضل كله يرجع إليك».

كان رابين هو الآخر شديد التواضع فى مسلكه وفى رد فعله.. وكان تعليقه على ما قلت بالحرف كما يلى:

«لا أعرف ما الذى سيبقى من هذا الذى تحقق لنا كله... أغلب الظن أنه كله - الأراضى يقصد - سوف يعود إلى أصحابه»

□

كانت هذه مشاعر القيادة الإسرائيلية العليا غداة معارك الأيام الستة... مشاعرغاية فى التواضع أو لعلى أقول غاية فى الواقعية... مشاعر لا تريد أن تصدق حتى ما تراه أمام عيونها وقد تحقق لها، ولا تريد مجرد إيهام نفسها فى النتائج البعيدة لما حدث.

ومرت أيام.. وأسابيع... وشهور.

أكثر وأكثر مع كل يوم وأسبوع وشهر راحوا يصدقون أنفسهم

أكثر وأكثر مع كل يوم وأسبوع وشهر راحوا يوهمون أنفسهم.

وفى البداية بدا أن القدس وحدها هى المطمع... لم تعد قابلة للمناقشة... لن تعود عربية بعد الآن... ثم لحقت بها مرتفعات الجولان وأجزاء كبيرة من الضفة الغربية... ثم جاء الدور على غزة... ثم شرم الشيخ... وشريط ساحلى من إيلات إلى شرم الشيخ... كانت عملية مخيفة فى تفاعلاتها وفى آثارها...

بدأ التاريخ يتراجع أمام الأساطير.

وبرزت أسطورة الجيش الذى لا يقهر.

وأحاط ديان نفسه بهالة المنتصر لدرجة ارتفعت معها أصوات فى الكونجرس الأمريكى تطالب بالاستعانة به فى حرب فيتنام أيام كان الجيش الأمريكى يواجه أصعب فترات حربه فى مستنقعاتها.

ووصل دافيد اليعازر - خليفة رابين فى رئاسة هيئة أركان حرب الجيش الإسرائيلى إلى حد قال عنده:

- إن الجيش الإسرائيلى قادر على غزو العالم العربى كله وإخضاعه من الخليج إلى المحيط»

وتبخر التساؤل الواقعى الذى عبر عنه رابين مساء يوم ٩ يونيو ١٩٦٧، حين قال للجنرال بوفر.

- لا أعرف ما الذى سيبقى من هذا كله!»

تراجع التاريخ - كما قلت - وتقدمت الأساطير... وسادت وحكمت حتى كان يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

* * *

لقد كان مستحيلاً أن يكون هناك حل لأزمة الشرق الأوسط فى ظل الأساطير.

ولم يكن مستحيلاً أن يكون هناك حل لأزمة الشرق الأوسط فى ظل التاريخ.

وكانت أهمية ما حدث يوم ٦ أكتوبر - خصوصًا باقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف - أنه فى جوهره كان اقترابًا من التاريخ وابتعادًا عن الأساطير.

إن التاريخ قد يسمح لإسرائيل بتفوق لبعض الوقت على بعض العرب، ولكن التاريخ لا يمكن أن يسمح بتفوق لإسرائيل طول الوقت على كل العرب.

وقد نتحدث عن فجوة حضارية تعطى لإسرائيل ميزة سبق على العرب...

وقد نتحدث عن ضعف فى الفكر الإستراتيجى العربى يترك المجال فسيحًا لإسرائيل...

وقد نتحدث عن فقر فى التجربة القتالية الحديثة حصلت عليها إسرائيل ولم ينلها العرب...

وقد نتحدث عن أن الصراع فى حقيقته هو صراع بين «كم» عربى مبعثر فى اتجاهات شتى، «وكيف» إسرائيلى مسخر فى اتجاه واحد محدد.

قد نتحدث عن ذلك كله وغيره ولكن التاريخ - إذا كنا نتحدث عن التاريخ وليس عن الأساطير - يعلمنا أن ذلك كله مؤقت، وأن الموازين فيه قابلة للتغير بل الانقلاب تمامًا إذا استطاع العرب...

إذا استطاع العرب أن يحققوا إضافة كيفية ولو محدودة إلى الكم العربى اللامحدود.

□

كان يوم ٦ أكتوبر - وهذه أهميته القصوى - بداية لعمليةُ تراجع الأسطورة أمام التاريخ.

وفى الساعات الأولى لم تكن إسرائيل وحدها هى التى رفضت أن تصدق ما حدث ولكن العالم كله - غارقًا تحت أوهام ست سنوات كاملة - رفض أن يصدق.

وفى اليوم التالى لم يكن فى وسع العالم إلا أن يصدق ما يراه وينزع عن نفسه كل وهم مسبق.

وبعد أسبوع من الحرب كانت الحقيقة قد بدأت تتسرب إلى إسرائيل وتنساب إلى قلبها من الأطراف على جبهات القتال!

وعبر «كاتزير» رئيس إسرائيل عن ذلك بوضوح حين قال فى لحظة حقيقة:

- لقد عشنا سنوات طويلة على الوهم... وقد جاء الوقت لكى ننزع عن عيوننا غشاوته ولكى نطل على الأمور بمنظار الحقيقة».

وكانت تلك هى الفترة التى قبلت فيها إسرائيل بوقف إطلاق النار على «المواقع الحالية» فى ذلك الوقت ١٢ أكتوبر - ... وهى مواقع كان الجيش المصرى فيها قد تمكن من احتلال الضفة الشرقية لقناة السويس كلها. ثم تقدم بعد ذلك على خط مواجهة يتراوح عمقه ما بين ١٨ إلى ٢٢ كيلو مترا.

وكانت تلك هى الفترة التى نزلت فيها إسرائيل على ركبتها أمام الولايات المتحدة الأمريكية تطلب المدد السريع وبالطائرات قبل أن يفوت الوقت... تنازلت عن دور الشريك للولايات المتحدة وهو دور كانت تزهو به بعد سنة ١٩٦٧... وعادت إلى دور التابع وهو حجمها الحقيقى!.

كان التاريخ يؤكد نفسه... وكانت الأساطير تبتعد كما يبتعد سراب الصحراء.

وفجأة طرأ طارئ وهو الثغرة التى فتحتها إسرائيل عبر البحيرات المرة لكى تدفع «بقوة عمل» إلى الضفة الغربية من قناة السويس...

* * *

إن الأيام سوف تثبت أن عملية الثغرة كانت فى وقتها مغامرة عسكرية براقة ولكنها فى حقيقة الأمر وعلى المدى الطويل سوف تصبح عقبة سياسية من الدرجة الأولى لسبب محدد وهو أن هذه الثغرة سوف تتحول إلى غشاوة تحجب عن الناس فى إسرائيل رؤية التاريخ وحركته وتبقيهم فى إسار الأسطورة وضبابها الغيبى. سوف تثبت الأيام يقينا: إن إسرائيل كانت على وشك مواجهة الحقيقة التاريخية، ولكن مغامرة الجنرال أريل شارون عطلت هذه العملية لبعض الوقت، وسوف يدفع كثيرون فى إسرائيل ثمن هذا التعطيل للتاريخ مضاعفاً وفادحًا.

وهذه هى المأساة فيما فعله الجنرال شارون الذى يظن نفسه الآن بطلاً بينما هو فى الحقيقة مغامر ضد التاريخ.

□

يقول الجنرال شارون نفسه فى روايته لقصة مغامرته فى الغرب، وهى الرواية التى أدت إلى قطيعة بينه وبين الجنرال حاييم بارليف رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإسرائيلى السابق ووزير التجارة الحالى والذى استدعى بعد حرب أكتوبر ليتولى التنسيق بين الجنرالات المتخاصمين على جبهة سيناء:

ـ كان الموقف بالغ السوء... إن المصريين استطاعوا أخذ المبادأة والمفاجأة... ثم الحقوا بنا خسائر فادحة... كانت هذه حربًا حقيقية.. لقد خضت معارك كثيرة من قبل، ولكن هذه كانت حربًا حقيقية.

ولقد أحسست أن الحرب سوف تتوقف فى أى ساعة: الخسائر من الصواريخ على الناحيتين عالية..

والموازين الدولية تتحرك...

وفى أى لحظة فإنه قد ينزل علينا وعلى ميدان القتال كله قرار بوقف إطلاق النار، ووقف إطلاق النار على الوضع الذى كنا فيه سوف يكون كارثة.

كان لابد من عمل جرىء قبل وقف إطلاق النار.

... عمل يمكن عنده ـ من جانبنا ـ أن نقبل وقف إطلاق النار وفى نفس الوقت لا نكون عنده قد فقدنا كل سمعتنا.

وكان الحل هو عبور القناة إلى الغرب.

وعندما كنت قائدًا لجبهة سيناء حتى ١٥ يوليو من هذه السنة فإنى كنت أفكر فى هذا الحل فيما لو حدث وأقدم الجيش المصرى على عبور القناة..

وقد استطلعت الجبهة على شاطىء القناة.. واخترت موقع عبورها المحتمل وطلبت إلى سلاح المهندسين تقليل كثافة الحاجز الترابى عنده... وطلبت بناء علامة من الأحجار الحمراء تشير إلى هذا الموقع وتذكرنا به وهكذا ذهبت يوم ١٢ أكتوبر إلى اجتماع فى القيادة الجنوبية أقترح السماح لى بتنفيذ خطتى فى الغرب.

ولم يكن الجنرال جونين قائد جبهة سيناء متحمسًا لفكرتى، ولا كان الجنرال حاييم بارليف المسئول عن التنسيق فى الجبهة متحمسًا لها، لكنى صممت وأظن أننى نجحت !».

■ إن الجنرال شارون يدعى لنفسه بذلك أكثر مما يستحق لكنه فى حمى المغامرة نسى حقائق كثيرة.

... نسى أن فكرة عبور القناة من الشرق إلى الغرب وعند البحيرات المرة برزت لأول مرة فى التاريخ الحديث بخطط وضعها الجنرالات الألمان الذين كانوا يقودون الجيوش التركية فى محاولة استعادة مصر للخلافة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى.

ثم إن القيادة الإسرائيلية بعد سنة ١٩٦٧، وبشهادة الجنرال حاييم باريف نفسه، عادت إلى بعث الخطط الألمانية القديمة وأعدتها تفصيلاً فى حالة إقدام القوات المصرية على محاولة عبور قناة السويس من الغرب إلى الشرق.

بل أقول ما هو أكثر:

أقول إن القيادة السياسية والعسكرية المصرية كانت منذ سنة ١٩٦٧، تتحسب لهذا الاحتمال، وتعتقد أنه فى حالة عبور مصرى لقناة السويس من الغرب إلى الشرق بهدف التحرير فإن إسرائيل سوف تحاول عبورها، وعند البحيرات المرة، من الشرق إلى الغرب.

وكانت هناك خطط لمواجهة هذا الاحتمال... بل وجرت تدريبات عملية عليه ورُصدت له قوات قامت بإجراء هذه التدريبات عشرات المرات.

وقد اعترف الجنرال إرييل شارون بنفسه بهذه الحقيقة ذات ليلة من ليالى أكتوبر.

كان قد دعا عددًا من الصحفيين الأجانب للمبيت معه فى عربة القيادة المتنقلة، وعندما حل المساء جاء بزجاجة من الكونياك وجلس يتحدث معهم... وأقبل ضابط

الاتصال الصحفى، وهو برتبة ماجور، يقول لهؤلاء الصحفيين إنهم لا يستطيعون المبيت في عربة القيادة.

وقال شارون أمام هؤلاء الصحفيين (لضابط الاتصال الصحفى):

ـ ما هى رتبتك؟»

وقال الضابط:

ـ إننى برتبة ماجور يا سيدى؟»

ـ حسن.. وأنا ماجور جنرال.. وإذن فإننى أحكم.. أنهم سوف يبيتون معى هنا وليس لك شأن بهذا».

وقضى الصحفيون ليلتهم مع الجنرال شارون.

وفى الليل، ومع زجاجة الكونياك، كان الجنرال شارون متجليًا على الآخر مع ضيوفه، وكان مما قاله لهم وقد سمعته بنفسى من أحدهم، كما استمعت إليه معه، مسجلاً بصوت الجنرال شارون وهو صوت خفيض ممتلىء:

ـ لقد كان المصريون يتوقعون فى خططهم احتمال عبورنا لقناة السويس من الشرق إلى الغرب إن ضابط المخابرات المصرية لهذا القطاع من الجبهة وقع أسيرًا فى يد قواتى وقد عثرنا معه على خريطة تحدد بالضبط مكان عبورنا المحتمل وخطتنا بعد العبور.

كانت خطتنا كلها على خريطته كان هناك تفصيل واحد اختلف مع ما حدث فعلاً.

كانت الخريطة تقول بأن طلائع قواتنا سوف تكون دبابات برمائية.. ولكننا لم نستعمل دبابات برمائية...»

واستطرد شارون:

ـ الغريب... أن استعمال الدبابات البرمائية كان فى خطتى الأصلية، ولكنى عدلت

عن ذلك لأن الدبابات البرمائية لم تصلنى فى الموعد الذى أردته وتصرفت بغيرها... نقلت بعض طلائع قوات العبور بالهليكوبتر على الناحية الأخرى لتأمين رأس جسر... ثم استعملت أطوافًا عائمة.. إن اللواء المدرع الأول الذى استعملته ليفتح الطريق ليلة ١٦ أكتوبر عبر كله على هذه الأطواف العائمة، وبعدها استطعنا نصب أول جسر، ولم يكن هذا الجسر مأمونًا فى نظر القيادة العامة فى سيناء، ولذلك فإن الجنرال بارليف رفض تعزيز قواتى بلواء ثانى آخر، لأنه قدر أن الجسر الذى نصبناه تنقصه الحماية الكافية».

☐

إننى هنا لا أقترب من الأسباب التى أدت من وجهة نظر مصرية إلى نجاح المغامرة الإسرائيلية، فهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة متأنية، ثم إنه يحتاج إلى توقيت ملائم.

ولكنى أعود إلى استخلاص بعض الحقائق من رواية الجنرال شارون:

١ ـ إن الجنرال شارون نفسه يعرف أنه قام بمغامرة لم تكن هيئة أركان الحرب الإسرائيلية ولا ممثلها المسئول عن التنسيق فى جبهة سيناء، وهو الجنرال حاييم بارليف متحمساً لها.

ولقد قيل، والقول صحيح أغلب الظن، إن «الجنرال بارليف» طلب فى بعض مراحل العملية إلى «الجنرال شارون» أن يوقفها لأن نجاحها مشكوك فيه، لكن الجنرال شارون قطع كل اتصالات تليفونية مع مركز قيادته لمدة ست ساعات، ثم عاد بعد هذه الفترة يتصل ببارليف ويقول له:

ـ أبلغونى أنك طلبتنى عدة مرات باللاسلكى.. ولكنى لم أستطع الاتصال بك... لقد قمت بالمهمة وأريد الآن تعزيزات!».

وقال الجنرال بارليف فى حديث صحفى وافق عليه رسميًا للنشر:

ـ «إن الجنرال شارون خالف عقيدة هامة من عقائد الحرب الإسرائيلية، وهى أن

تكون الخسائر البشرية فى أقل حد ممكن... وقد دفعنا خسائر كثيرة فى عملية شارون، وكان ذلك ضد عقائدنا».

٢ - إن الجنرال شارن نفسه لا ينكر فى كل ما قاله إن احتمال صدور قرار بوقف إطلاق النار كان على الأبواب، وأنه قدم على مغامرته متأكدًا من أن وقف إطلاق النار سوف يحميها ويغطى مخاطرها.

٣ - إن الجنرال شارون نفسه يسلم بأن هدفه من مغامرته كان تحويل الأنظار عن الصدمة التى تلقاها الجيش الإسرائيلى عندما نجح الجيش المصرى فى اقتحام قناة السويس واجتياح خط بارليف.

٤ - إن الجنرال شارون أول من يعلم أنه استعمل الغش فى لعبته، ذلك لأنه لم يستطع تعزيز مواقعه على الضفة الغربية إلا بعد سريان وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر، وأنه فى الفترة ما بين ٢٢ أكتوبر، بعد سريان وقف إطلاق النار الأول إلى يوم ٢٥ أكتوبر - تأكيد وقف إطلاق النار مرة أخرى بوساطة مجلس الأمن - فإنه استطاع مد سيطرته على رقعة من الأرض فى الغرب تزيد مرتين على الرقعة التى كان قد استولى عليها بالقتال.

بالقتال حصل على واحد، وبالغش أضاف للواحد اثنين!

وعلى أى حال، فإن الغش على هذا النحو ليس بعيدًا عن عقائد الحرب الإسرائيلية، بل إنه عملية تكررت فى كل تجربة من تجارب وقف إطلاق النار السابقة، ومنذ هدنة سنة ١٩٤٨ الأولى - وحتى الآن.

٥ - إن الجنرال شارون سمع بتقييم عدد من كبار خبراء الإستراتيجية فى العالم لمغامرته وكان وصف أحدهم لها، صريحًا للغاية، إذ قال:

- ... لقد بدت لى فى أيامها الأولى نوعًا من حرب السينما...

ولكن وقف إطلاق النار - بصرف النظر عن الأسباب المختلفة التى دعت إليه - أعطاها فرصة أكثر مما تستحق من وجهة نظر إستراتيجية».

* * *

ما هو أثر ذلك على إسرائيل؟. أثره ـ مع الرغبة الحارقة فى تصديق النفس، وتصديق الوهم ـ هو أن ينسى الناس فى إسرائيل عبرة التجربة الضخمة التى عاشوها من ٦ أكتوبر إلى ١٦ أكتوبر.

يهبطون بها من حدث تاريخى خطير إلى حادثة عارضة أصابتهم بجروح ورضوض.

... يتصورون أن ما حدث كان مجرد تقصير... مُلافاته ممكنة.

يتصورون أن ما حدث كان مجرد إهمال... الحساب عنه ضرورى.

لكنه فى هذه الحدود لا يتجاوزها ولتبق الأساطير وليذهب التاريخ. ومعنى ذلك أنه لا حل للأزمة... لأنه ليس هناك ما يدعو إلى الانسحاب الكامل إلى خطوط ما قبل يونيو سنة ١٩٦٧، ثم إنه ليس هناك ما يدعو إلى إعادة أى حق لشعب فلسطين، لأنه لا يوجد قط ـ كما يقال لهم ـ شعب يحمل وصف شعب فلسطين!!

■ إن الحكومة الإسرائيلية والمؤسسة العسكرية الإسرائيلية معاً سوف تضغطان على هذه النقطة طويلا وبعناد شديد لاستعادة الهيبة أولا، ولاستعادة الثقة ثانيا، ولمواصلة أحلام التوسع ثالثا.

وإذا كان الضغط على هذه النقطة ـ إن ٦ أكتوبر ليس حدثا وإنما هو حادثة ـ لم يشهد حتى الآن تركيزًا شديدًا فإن السبب يعود إلى الانتخابات.

إن الحكومة والمؤسسة العسكرية تدرك أن الضغط على هذه النقطة ـ مع الإشارة فى نفس الوقت دلالة على صحتها إلى عملية «الجنرال شارون» ـ معناه نسبة الفضل ببساطة إلى كتلة المعارضة «ليكود» التى يعتبر «شارون» واحداً من أقطابها بل لعله أبرز مؤسسيها

* * *

بقى أن أقول ـ فيما يتعلق بنا ـ إن إسرائيل سوف تستغل عملية الجنرال شارن وثغرة الغرب من قناة السويس ـ إلى أقصى حد لكى تثبت لنا نحن أيضًا ـ كما أثبتت

لنفسها ـ أن يوم ٦ أكتوبر لم يكن حدثًا وإنما كان حادثة عارضة لا يمكن أن تتأسس عليها نتائج بعيدة المدى.

ولقد استطيع القول استنادًا إلى مصادر دولية موثوقة إن خطة إسرائيل فى مؤتمر جنيف سوف تسير على النهج التالى:

فى المرحلة الأولى من المؤتمر وهى تبدأ اليوم فإن أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل سوف يتقدم بتصور إسرائيل للسلام... صورة وردية: علاقات جوار حسن، وتعاون اقتصادى وعلمى مفتوح، وحدود بغير أسلاك شائكة أو ألغام، وسفراء وسياح، كأنما لم يحدث شىء بين العرب وإسرائيل على الإطلاق، كأنه لم تضع حقوق شعوب وأراضى شعوب، ولم تتعرض للعدوان وللإرهاب شعوب... كأن التاريخ يولد من الضياع هذا اليوم فقط وعلى أساس الأمر الواقع...

كأن التاريخ زر كهربائى يضغط عليه أبا إيبان فيحدث شىء... ثم يضغط عليه مرة أخرى فيحدث نقيض هذا الشىء!

فى المرحلة الثانية من المؤتمر وهى على الأرجح فى نهاية شهر يناير القادم، وبعد أن تكون الانتخابات العامة فى إسرائيل قد انتهت وتشكلت الحكومة الإسرائيلية الجديدة على أساسها فإن إسرائيل سوف تركز على المساومة بالثغرة فى الغرب ضمن ما يسمونه «عملية الفصل ما بين القوات المتحاربة».

سوف تعرض إسرائيل، أو لعلها تتظاهر بالقبول تحت إلحاح أمريكى عنيف ـ !!ـ بأن تسحب قواتها من ثغرة الغرب وإلى عشرين كيلو مترا فى الشرق مقابل أن تقوم مصر بتخفيف قواتها العسكرية التى عبرت القناة من الجيشين الثانى والثالث وتحديد حجم قوة النيران فيهما... ثم تتمركز قوات الأمم المتحدة بين الجيش المصرى والجيش الإسرائيلى...

أى أن خطة إسرائيل فى هذه المرحلة سوف ترتكز على تمسكها بمنطقة المضايق الحاكمة فى سيناء.

ولتمض المؤتمرات والمحادثات واللقاءات بعد ذلك سنين فى أعقاب سنين...

لا شيء يهم ما دامت إسرائيل ممسكة ومتحكمة فى مفاتيح مصر الإستراتيجية من الشرق، ومفاتيح مصر الإستراتيجية من الشرق هى بالتأكيد مضايق سيناء.

□

ولعلى فى غير حاجة إلى القول بأن هذه اللعبة ليست لمصر حتى وإن كان ثمنها ثغرة الغرب.

لعلى أقول أكثر:

إن ثغرة الغرب بسبعة ألوية إسرائيلية كاملة محشورة فيها حشرًا يمكن أن تكون رهينة إسرائيلية فى متناول يدنا أكثر منها خنجرًا غائرًا فى كتفنا.

الألوية السبعة فى الثغرة يمكن أن تكون رهينة لأنها:

- محشورة حشرًا كما قلت.
- خطوط مواصلاتها بعيدة.
- مدخلها إلى الغرب محصور بين الجيشين الثانى والثالث.
- انتشارها فى المساحة التى تحتلها انتشار خطر عليها وهو غير متوازن.
- طوق قواتنا من حولها نصف دائرة محكمة من الفولاذ.

□

لعلى أقول فى النهاية:

- «إن ثغرة الغرب ليست موضوعًا تضغط علينا به إسرائيل وإنما هى أقرب إلى أن تكون موضوعًا نضغط به نحن على إسرائيل».

ذلك ما تعلمه لنا روح ٦ أكتوبر

ثم لكى نثبت - وعلى المدى الطويل - لإسرائيل ولكل من فيها أن ٦ أكتوبر كان حدثًا ولم يكن حادثة.

ثم لكى يواصل التاريخ مسيرته وتتراجع الأسطورة!

(٤)

إسرائيل: ما يجرى فيها وما جرى أمام صناديق الانتخابات فى إسرائيل

٢٨ ديسمبر ١٩٧٣

بعد ثلاثة أيام، يتوجه مليون ونصف مليون ناخب فى إسرائيل إلى صناديق الانتخابات العامة، يدلون بأصواتهم فى جو لم يعرفوه من قبل، ولم يعيشوا فيه منذ قامت الدولة الإسرائيلية فى مايو سنة ١٩٤٨...

الخطى ثقيلة... والقلوب مثقلة... والهواجس فى الفكر رياح شتاء عاصفة!

يرى المواطن الإسرائيلى نفسه، ولأول مرة، فى حرب حقيقية ـ بالنار والدم ـ على جبهتين تضغطان عليه من الجنوب والشمال: مصر وسوريا.

ويعرف المواطن الإسرائيلى أن وراء الجبهتين ـ النار والدم ـ بحرًا من العداء العربى يواجه إسرائيل بالرفض، والرفض هذه المرة رفض نشيط بالحركة، وليس مجرد رفض ساكن فى الضمائر.

ويشعر المواطن الإسرائيلى أنه فى مشكلة مع العالم كله... حادة مع بعضه، أقل حدة مع بعضه الآخر.

ثم يجد المواطن الإسرائيلي نفسه محاطًا بعدد من الحروب الأهلية: أحزابه في معركة، ساسته في معركة، جنرالاته في معركة، والخطوط متشابكة متداخلة بين هذه المعارك كلها، لأن الساسة جنرالات في إسرائيل، كما أن الجنرالات ساسة، ثم أنه بين الساسة والجنرالات في إسرائيل من يتصور نفسه ـ منفردًا ـ حزبًا بأكمله!!

ولقد أحس المواطن الإسرائيلي في بداية حرب أكتوبر التي دهمته على غير انتظار، أنه كان على شفا كارثة لم يعرف حتى الآن دواعيها، ثم أُوحي إليه مع نهاية أيام الحرب أنه بقرب انتصار دفع فيه بالأحزان، ثمنًا غاليًا، ولكنه لسبب ما لم يحصل عليه، واكتشف المواطن الإسرائيلي بعد مرور أيام وأسابيع أنه في وضع غريب: لا هو انهزم ولا هو انتصر، وإنما هو على نقطة ضائعة بين الأمل وخيبة الأمل.

ومهما تكن النتيجة التي تظهرها عمليات فرز وعد الأصوات في صناديق الانتخابات ـ فإن الأمور لن تعود قط في إسرائيل إلى ما كانت عليه قبل ٦ أكتوبر، لأن الصورة تغيرت، وبعض ما حدث، بل كثير مما حدث، جاء ليبقى، وليواجه إسرائيل كلها، شعبًا ومؤسسات وقيادة، بحقائق جديدة تفرض نفسها فرضًا. ومهما كان القبول بها صعبًا فإن إنكارها مستحيل!

* * *

ولربما استطعنا تقسيم الحقائق الجديدة التي جاءت لتبقى في إسرائيل، والتي تفرض نفسها الآن فرضًا على هذا المجتمع الغريب في تكوينه وتفكيره ومزاجه ـ إلى عدة مجموعات، والقصد مجرد تسهيل البحث:

هناك أولاً مجموعة حقائق عسكرية.

ثم هناك ثانيًا مجموعة حقائق سياسية.

ثم هناك ثالثًا مجموعة حقائق نفسية.

□

■■■ وسوف أبدأ ـ أولاً ـ بمجموعة الحقائق العسكرية، ولعلى اخترت البدء بها لأن إسرائيل أريد لها أن تكون مجتمع حامية عسكرية بصرف النظر عن الأحلام والرؤى الصهيونية، ومثالياتها عن فلاح الكيبوتز ـ حركة المستعمرات الإسرائيلية ـ وهو فلاح تصوروه أو صوروه يقود المحراث ويمسك البندقية، وانكسر المحراث وبقيت البندقية وأصبح هذا الفلاح من الكيبوتز شيئًا عجيبًا إذا أخذنا الجنرال شارن (قائدة الثغرة غرب قناة السويس) نموذجًا له فقد ظهر أخيرًا أن الجنرال شارون يملك ويدير مزرعة مساحتها أربعة آلاف فدان قرب بئر السبع!

□

مجموعة الحقائق العسكرية الجديدة كما يلى:

١ ـ إن حرب أكتوبر هزت ـ ولا أقول حتى الآن كسرت ـ نظرية الأمن الإسرائيلى التى كانت ترتكز على قدرة إسرائيل وتفوقها وحريتها فى الحركة إلى أى اتجاه ـ بما يمكنها دائمًا من فرض إرادتها.

لقد ثبت أن الآخرين ـ العرب ـ لديهم المقدرة، وفى استطاعتهم تحدى التفوق الإسرائيلى أو تلافى نقط الخطر فيه، ثم إنهم بالتجربة العملية تمكنوا من أخذ المفاجأة لصالحهم والمبادأة فى أيديهم ومن ثم أعطوا أنفسهم حرية الحركة.

٢ ـ إن تطبيقات نظرية الأمن الإسرائيلى التقليدية كانت تقوم على أساس تجنب عدد من المحظورات:

حرب على جبهتين أو أكثر (وفى أكتوبر كانت هناك جبهتان: المصرية والسورية، وكان احتمال الثالثة مطروحًا سواء بعمل الجيش الأردنى على جبهته أو بعمل قوات المقاومة الفلسطينية عبر نهر الأردن وإن كان ذلك الاحتمال لم يتحقق لأسباب عديدة، ومع ذلك فإن إسرائيل استبقت على الجبهة الأردنية وحتى آخر يوم من الحرب لواءين من المدرعات ولواء من المشاة الميكانيكية).

وتخوف إسرائيل من الحرب على جبهتين أو أكثر مرجعه إلى أن هذا الوضع

يحرمها من تركيز كل قوتها في اتجاه واحد والضغط عليه إلى الحد الأقصى لضربه بل لسحقه تمامًا.

حرب طويلة (وفى أكتوبر كانت الحرب طويلة... ستة عشر يومًا... وإسرائيل تريد حربًا لا تزيد بأى حال من الأحوال على أسبوع واحد، لأنها فى حالة التعبئة العامة تضع تحت السلاح أكثر من ٣٥٠ ألف رجل وامرأة، ومعنى ذلك أنها لا تترك لبقية مرافق الحياة: الإنتاج والخدمات من يستطيع القيام بمسئولياتها وذلك وضع لا يحتمل.

وقد روى المراقبون العسكريون أنه فى حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ بدأت القوات الإسرائيلية فى العودة يوم ٩ يونيه - فى أعقاب صدور قرار وقف إطلاق النار - ثم فكت تعبئتها فورًا).

وقد كان يمكن أن تطول حرب أكتوبر أكثر مما طالت، ولقد توقفت معاركها بعد ستة عشر يومًا والجيش المصرى سليم والجيش السورى متماسك.

حرب غالية فى تكاليفها البشرية (وفى أكتوبر كانت الحرب غالية فى تكاليفها البشرية، وقد كان عدد القتلى كما أذاعته إسرائيل فى البداية - حوالى ١٨٠٠ - صدمة، وعندما ارتفع ذلك الرقم رسميًا فى إسرائيل بعد ذلك - إلى ٢٣٠٠ - فقد كانت تلك فجيعة. ولست أعرف ما هو الوصف الذى يمكن استعماله حينما تظهر الأرقام الحقيقية هى أرقام تتفاوت فيها التقديرات: وزارة الدفاع الأمريكى تقدر رقم الخسائر البشرية الإسرائيلية بـ ٤٥٠٠ - والمصادر البريطانية العسكرية تقدر الرقم بـ ٥٦٠٠ - والمصادر الفرنسية تقدر الرقم بـ ٦٨٠٠ - والمصادر السوفييتية تصل بالرقم إلى قرب العشرة آلاف).

والتكاليف البشرية بالنسبة لإسرائيل نقطة حساسة فتعدادها كله بالقطارة: أقل من ثلاثة ملايين، ثم إن عدد اليهود فى العالم كله شحيح: أقل من خمسة عشر مليونا!

٣ - إن تطبيقات نظرية الأمن الإسرائيلى حديثًا، أى بعد سنة ١٩٦٧ صدر عليها حكم يصعب استئنافه كما يصعب نقضه.

كانت إسرائيل بعد سنة ١٩٦٧ قد توصلت إلى استراتيجية كما يلى:

حدود بعيدة: خط قناة السويس إلى الجنوب، خط نهر الأردن إلى الشرق، والمرتفعات السورية من الشمال (خطوط تضمن الأمن كما تكفل التوسع).

على هذه الحدود البعيدة تقوم نظم دفاعية معقدة، يزداد تعقيدها بازدياد الخطر المحتمل عليها ومن هنا كان خط بارليف أعقدها... تليه تحصينات الجبهة السورية... ثم شبكات الإنذار على الضفة الغربية للأردن.

وكان التقدير أن هذه النظم الدفاعية، وبالذات خط بارليف قادرة على عرقلة أى محاولة هجوم عربى.

نظام سريع للتعبئة العامة: ست وثلاثون ساعة، ثم تكون القوات المسلحة الإسرائيلية كلها فى دروعها ووراء مدافعها وفوق طائراتها تضرب، وتضرب بقسوة، وتضرب لتسحق!

هكذا كانت إستراتيجية الأمن: حدود بعيدة، ونظم دفاعية معقدة عليها تصد وتعرقل، ونظام للتعبئة العامة يلحق بهذا كله ويتكفل ببقية المهمة.

وقال الجنرال ديان فى اجتماع للجنة المركزية لحزب العمل أخيرًا:

«إن هذه لم تكن أكفأ إستراتيجية أمن لإسرائيل فحسب ولكنها أيضًا كانت أرخص إستراتيجية أمن».

واستطرد ديان:

«كانت هذه الإستراتيجية تمكننا من حماية إسرائيل ومن الاحتفاظ بالأراضى وبغير أن نكون مضطرين لقوات كبيرة تحت السلاح ترهق اقتصادنا».

واستطرد ديان وهو لا يدرى أنه كان فى الواقع يتحدث عن سقوط إستراتيجية الأمن الجديدة... الأمن الأكفأ والأمن الأرخص:

«كانت مشكلتنا يوم ٦ أكتوبر أننا لم نعلن التعبئة العامة بالسرعة المطلوبة وقد أخطأنا فى تحليل وتقييم ما كان لدينا من معلومات...

إن العرب - ومصر بالذات - تحركوا فى مرات سابقة وبدت عندهم نية الهجوم علينا ولكن كانت تلك إنذارات كاذبة.

ولم يكن فى وسعنا أن نعلن التعبئة العامة فى كل مرة نراهم أمامنا يتحركون حركة واسعة.

لقد استجبنا من قبل لتحركات واسعة قاموا بها وكانت كل مرة تكلفنا ما بين ثمانية إلى عشرة ملايين دولار، فهل كان علينا كل شهر أو شهرين أن ندفع هذا المبلغ ثمنًا للتحوط أمام إنذارات كاذبة.

إننا فى أكتوبر لم نعلن التعبئة العامة إلا عندما تأكدنا بما لا يقبل الشك... لكن ذلك جاء متأخرًا بعض الشيء».

٤ - إن خليج العقبة، وهو بؤرة الإستراتيجية البحرية لإسرائيل منذ قيامها، فقد بالتجربة أهميته...

لم تعد شرم الشيخ هى النقطة التى يمكن منها تهديد الملاحة إلى إسرائيل، وإنما نزلت هذه النقطة جنوبيًا، وبعيدًا عن مطال إسرائيل، واستقرت عند باب المندب مدخل البحر الأحمر.

وإذا توصلت الدول العربية إلى رسم إستراتيجية عربية، ذكية وقوية، للبحر الأحمر - فإنها تستطيع أن تنقل هذه النقطة بعيدًا أكثر عن باب المندب، وهى تستطيع بالتعاون مع الصومال أن تغطى المساحة ما بين رأس القرن الأفريقى إلى الخليج العربى، وتغطيه بوجود بحرى عربى مؤثر.

ولقد حدثت فى أكتوبر، وبمحاولة مصر إغلاق باب المندب بداية، وهى بداية وراءها ما وراءها.

٥ ـ لقد تخلفت نظرية الأمن الإسرائيلية فى التطبيق العسكرى وفاتها أن تدرك المعنى الحقيقى لتطورات بعيدة المدى فى الأسلحة واستعمالاتها.

كانت ما زالت مأخوذة بصور الحرب الخاطفة الألمانية فى الحرب العالمية الثانية (الماريشالات جودويان وروميل إلى آخره)... حرب بالطيران وبالمدرعات بالدرجة الأولى، وأسلوبها ضربات سريعة تشل أمامها، ثم اختراق وتطويق وإبادة.

لقد جاءت الصواريخ المضادة للطائرات بثورة.

وجاءت الصواريخ المضادة للدبابات بثورة.

وأصبحت هذه الصواريخ المضادة للطائرات صغيرة بحيث يحملها فرد واحد (مثل صاروخ الاستريلا).

وأصبحت هذه الصواريخ المضادة للدبابات صغيرة بحيث يحملها فرد واحد (مثل صاروخ المولوتكا).

ومعنى ذلك أن الجندى حامل «الاستريلا» أو حامل «المولوتكا» أصبح أقوى من الطائرة وأقوى من الدبابة.

وهذا تغيير له معانيه فى حقائق الحرب الجديدة.

معانيه ببساطة:

● إن الدافع ـ لأول مرة ـ يمكن أن تكون له نفس فاعلية الهجوم.

● إن الطائرة والدبابة كلتيهما تنزل عن العرش الملكى الذى تربعت عليه فى حروب القرن العشرين.

● إن العدد يستعيد قيمته التى كاد يفقدها أمام قوة النيران المتحركة والمركزة.

وهذا كله لصالح العرب؛ لأنه يسد جزءًا كبيرًا من فجوة التفوق الحضارى الذى كان ولا يزال ـ إلى حد ما ـ لصالح إسرائيل!

* * *

■■■ أصل الآن - ثانيًا - إلى مجموعة الحقائق السياسية الجديدة وقد أستطيع إجمالها فيما يلى:

١ - لقد ثبت عمليًا أن هناك شيئًا اسمه الوحدة العربية، وهذا الشىء كان احتمالاً مستبعدًا فى إسرائيل تمامًا وكان الجنرال ديان هو الذى قال بنفسه لويليام روجرز وزير الخارجية الأمريكى السابق:

- ليس هناك أمل فى أن يلتقى العرب يومًا على هدف واحد.

يقولون إنهم أمة واحدة ولكن ذلك مشكوك فيه.

وإسرائيل - فى كل الأحوال - تعتمد على فرقتهم أكثر مما تخاف وحدتهم!».

ولقد برزت الوحدة العربية فى شكل مهيب خلال شهر أكتوبر، وربما لم تكن هذه الوحدة فى أقصى حالات الفعالية ولكنها أظهرت نفسها بما فيه الكفاية.

ولقد نقول أن التنادى للحرب فى الجولة الرابعة بين العرب وإسرائيل سنة ١٩٧٣ (بعد جولة أولى سنة ١٩٤٨ وجولة ثانية سنة ١٩٥٦ وجولة ثالثة سنة ١٩٦٧) كان لا يزال بأسلوب استثارة النخوة على الطريقة القبلية، ولكن هذا الحال قابل للتغير، لأنه مع اكتشاف العرب لقيمة وحدتهم، فإنهم على وجه اليقين سوف يحرصون فى المستقبل على التخطيط لها بأسلوب العصر وليس بأسلوب الجاهلية.

٢ - إن الإنسان العربى العادى كان هو بالفعل معجزة حرب أكتوبر، وسرها وبطلها الأكبر والأوحد.

ولقد كانت شجاعة القيادة فى اتخاذ القرار.

ولكن الرجال هم الذين حملوا القرار وانطلقوا به على نحو لم يكن يخطر على البال.

ولقد لخص أحد الخبراء العالميين مغزى دور الرجال فى حرب أكتوبر بقوله:

ـ إن الطريقة التى حارب بها الجندى العربى سنة ١٩٧٣ ضربت التفوق الإسرائيلى المطلق.

وقد كانت هذه الطريقة حقيقة كبرى من حقائق الجولة الرابعة بين العرب وإسرائيل.

وهى على هذا الأساس نذير شؤم لإسرائيل فى الجولة الخامسة، ونذير كارثة فى الجولة السادسة، وقد تكون نهاية كل شىء فى الجولة السابعة».

٣ ـ لقد تنبه العرب إلى قيمة ما لديهم من ثروة ـ البترول ـ ولقد أشهروا بالفعل سلاحه وأحسوا بتأثيره على العالم كله، وأتذكر ما كنت ألاقيه عندما كنت أتحدث عن سلاح البترول فى المعركة وكان ذلك قبل خمسة عشر عامًا أو تزيد... كان الحديث يقابل بالإهمال أحيانًا وبالاستهجان أحيانًا أخرى وقيل لى باستمرار: ـ البترول قضية اقتصادية وإقحامه فى السياسة أو فى الحرب خطأ».

ثم عرف من لم يكن يعرف أخيرًا أن الاقتصاد والسياسة والحرب كلها شىء واحد فى صراع البقاء والتقدم.

وخرج السلاح من غمده وارتعشت الدنيا.

ومع أنه قد تكون لى تحفظات على الطريقة التى استدار بها سلاح البترول ـ وربما قلت ابتعد!! ـ إلى خدمة قضية الأسعار ـ إلا أن الحقيقة الكبرى باقية والحقيقة الكبرى هى أن لدى العرب سلاحًا... وأن استعمال هذا السلاح ممكن... وأن هذا السلاح لا يقاوم.

٤ ـ لقد أفاقت الدنيا كلها، بالرضى أو بالغضب، من غيبوبة التنويم المغناطيسى الإسرائيلى. وإذا جلست إسرائيل لتحسب خسائرها فى حرب أكتوبر فلسوف تكتشف أن خسارتها على المدى البعيد فى أوروبا وفى أفريقيا كانت أكبر من خسائرها فى ميادين القتال القريبة.

كانت أوروبا مدخلاً لإسرائيل وكانت أفريقيا منفذًا لإسرائيل ولم تعد أوروبا مدخلاً... ولا عادت أفريقيا منفذًا.

٥ ـ لقد أدركت إسرائيل في معمل الحوادث، وداخل أنابيب الاختبار أنها لا تستطيع الحياة بعيدًا عن الولايات المتحدة،. وخارج فلكها.

وكانت إسرائيل تدرك باستمرار أهمية علاقتها مع الولايات المتحدة لكنها كانت تحاول أن تمنح نفسها لمسة من الاستقلال.

وكانت تحاول أن تجعل نفسها ـ خصوصًا أما م أفريقيا وأمام حركة التحرر الوطني عمومًا ـ شريكًا صغيراً للولايات المتحدة وقد نجحت هذه المحاولة إلى حد ما بعد سنة ١٩٦٧، فلقد بدا ضد حقائق الطبيعة، والواقع أن إسرائيل تستطيع أن تحارب وحدها وأن تنتصر، وهي على هذا النحو صديق خاص للولايات المتحدة، وليست تابعًا ـ أو أداة ـ للإمبريالية الأمريكية.

يلفت النظر أن نغمة جديدة تسود العالم الآن تربط بطريقة واضحة بين إسرائيل والبرتغال وروديسيا وجنوب أفريقيا وفيتنام الجنوبية وغيرها.

كيانات معادية في أساسها أو في سياساتها للحرية وللتحرر... وكل قيمتها أن الاستعمار الأمريكي يستغلها ويستخدمها... وقد يستطيع أن يستغني عنها تحت الضغوط أو إذا تأكد أن قيمتها بالنسبة له تتضاءل بحيث تتحول من سوط في يده يجلد به الآخرين إلى سوط في يد الآخرين يجلدون به ظهره!

***

■■■ وأخيراً ـ وثالثًا ـ مجموعة الحقائق النفسية، وهي ما يتجلى الآن بوضوح في عملية البحث في أعماق النفس وهي عملية تجري الآن في إسرائيل، وتجري بإلحاح وقلق، ويمكن تلخيص هذه العوامل فيما يلي:

١ ـ لقد كانت هناك ثقة في إسرائيل، أو على الأقل بقايا ثقة، بقيمة الحلم الصهيوني والرؤية الصهيونية في فلسطين كانت هناك أحلام بمجتمع يكون العمل فيه مصدرًا لكل قيمة وكانت حركة الكيبوتز هي التعبير العملي عن هذه الأحلام.

ولكن الكيبوتز ـ حركة المستعمرات ـ راحت تتراجع رويدا رويدا وبرز على

أرض إسرائيل وبين شعب إسرائيل - أرض الشعب المختار وشعب الأرض المختارة!- وضع طبقى عرته تماماً تجربة الحرب.

طبقة رأسمالية تنشأ

طبقة عسكرية تنشأ

تحالف بين الرأسمالية والعكسرية، ومليونيرات يظهرون من أرباح الصناعات الحربية ومن الارتباط العضوى مع الرأسمالية العالمية - حتى الهستدروت اتحاد العمال الإسرائيليين العام، انحرف هو الآخر وانجرف مع التيار.

ليست الدولة الحلم هى إذن... وإنما هى دولة شأنها شأن غيرها من الدول... وأسوأ من ذلك فهى دولة طفيلية لا تملك إمكانيات حياة مستقلة.

٢ - كانت هناك ثقة فى إسرائيل بجيل الرواد... هؤلاء الذين صنعوا الحلم وحققوه (بن جوريون مات شبه منفى لأنه اصطدم... وجولدا مائير ضبطت متلبسة بالكذب على الشعب ولم تقل له الحقيقة ولا صارحته بما جرى، وهى تحكم - كما ظهر - ببلاط خاص وليس بمؤسسة حقيقية: وأفراد بلاطها المقربون من عملية صنع القرار أربعة أو خمسة لا يزيدون.

وكانت هناك ثقة فى إسرائيل بجيل السابرا (جيل نبات الصبار الذى ولد فى إسرائيل) من أمثال ديان، ولكن هذا الجيل تحركه مطامع شخصية حارقة تجعله يدخل فى صراعات ومناورات بعضها يصل إلى المساس بصورة الدولة أمام العالم الخارجى... بل وبأمنها الوطنى.

٣ - وكانت هناك ثقة فى إسرائيل بـ «تساهال» - جيش الدفاع الإسرائيلى - وكانت لهذا الجيش باستمرار مكانة خاصة فى إسرائيل تضعه فى قلب الحياة الإسرائيلية تماماً بل تجعله هو قلب الحياة الإسرائيلية ذاته.

ولقد كان مشهد هذا الجيش لا يصدق يوم ٦ أكتوبر.

قيادته مفاجأة بما حدث مأخوذة.

قواته مبعثرة: أجنحتها فراش ودروعها صفيح، وتحصيناتها بيوت من ورق الكرتون... أو هكذا بدأ في الساعات الأولى من القتال.

ثم استعادت القيادة توازنها، وتماسكت قوات الجيش وراحت تقاتل، ولكن الجنرالات انهمكوا إلى الآخر في الاقتتال فيما بينهم، لسوف تتهاوى رءوس كثيرة... سوف يتهاوى أغلب الظن رأس الجنرال ديان وزير الدفاع ورأس الجنرال اليعازر رئيس هيئة أركان الحرب، ورأس الجنرال زاييرا رئيس المخابرات العسكرية.

وليس تهاوى الرءوس هو المهم ولكن التساؤل سوف يبقى:

- وماذا حدث لـ «تساهال»؟ وإلى أى مدى أصبح ممكنًا لإسرائيل أن تعتبره قلبها، أن تنام واثقة أنه في مكانه يدق بانتظام؟!».

٤ - وكانت هناك ثقة لدى الإسرائيلى العادى فى أنه لم يرتكب جريمة، فلقد أبعد جسم الجريمة وهو فلسطين، عن خواطره وعن أفكاره، بل أبعد عن مدى بصره...

وربما كان أقصى ما كان يمثله الفلسطينى بالنسبة للإسرائيلى هو أنه مجرد شبح من الماضى ولكن الحرب وما سبقها وما لحق بها وما سوف يلحق حدثت شيئًا لم يكن منتظرًا كأنه عودة الشبح، عاد الفلسطينى... إنسانًا موجودًا، يعيش - ويموت - مطالبًا بحق له سلبه منه الإسرائيلى وجاء العقاب ليطارد الجريمة!

٥ - وكانت هناك ثقة لدى الإسرائيلى فى أنه يعيش وسط عالم هو سيده، فهو المتقدم الوحيد وسط حشد من الهمج المتخلفين لكن المواجهة فى ميدان القتال غيرت الصورة وفتحت الباب لرؤية جديدة على الحقيقة العربية المعاصرة، فضلاً عن إمكانيات تطوره.

وقد سمحت قيادة الجيش المصرى لأحد الخبراء النفسيين بإجراء تجربة على عدد من الضباط الإسرائيليين الأسرى لكى يقيس مدى معرفتهم بمصر وشعبها.. وأخذ بعضهم إلى أحد فنادق القاهرة الكبرى، ثم أخذهم إلى المنطقة الصناعية

الكبيرة بحلوان، ثم أخذهم إلى حرم جامعة القاهرة، وكانت النتيجة شبه صدمة عصبية لهؤلاء، فقد كان ما رءوه أبعد الأشياء عن تصوراتهم.

* * *

هذه كلها حقائق جديدة تعصف فى وجدان الإسرائيلى العادى وهو ذاهب بعد أيام إلى صناديق الانتخابات.

ولعلى أحذر فى النهاية:

إن كل ما قلته لا ينبغى المبالغة فيه.

إن الحقائق الجديدة لن تجعل إسرائيل تسقط من الداخل كالثمرة الناضجة.

لا أقول بذلك... بل هو آخر ما أرضى لنفسى أن أقول به».

ما أقول به شىء واحد:

- إن إسرائيل بعد تجربة أكتوبر سوف تكون شيئًا مختلفًا.

وقد يصعب تحديد اتجاه الاختلاف وإن كنت أتصوره إلى الأسوأ على أساس عقدة «الماسادا» - العناد إلى درجة الموت الانتحارى - فى التاريخ اليهودى... ومع ذلك فلماذا نسبق الحوادث؟

أقول بالتحديد: إنها سوف تكون شيئًا مختلفا...

إسرائيل سنة ١٩٧٤ وما بعدها لن تكون هى إسرائيل سنة ١٩٧٣ وما قبلها.

هذا ما؟ أقوله.. ولا أقول غيره... وعلينا أن نتابع!

الجنرال..والغزالة!

٢٥ يناير ١٩٧٤

لماذا استقال الجنرال أريل شارون، قائد قوات الثغرة الإسرائيلية غربي السويس؟... ولماذا آثر ترك خدمة الجيش الإسرائيلي برغم تصريحات له قريبة، أكد فيها تمسكه بالبقاء في الخدمة العسكرية مهما حدث أو يحدث؟

لماذا؟

□

إذا قيل أن السبب هو إعلان الاحتجاج على انسحاب القوات الإسرائيلية من الغرب طبقًا لما جاء في اتفاقيات الفصل بين القوات ـ فلعلّي أقول إن ذلك التفسير يصبح تبسيطًا للأمور بأكثر مما هو جائز، إزاء ظواهر ووقائع تستحق منا دراسة أكثر عمقًا، وليس بالضرورة أكثر تعقيدًا.

... وإذن ما هو السبب؟

□

إن الإجابة عن أي سؤال فيما يتعلق بأي تصرف سياسي تمر في الغالب بثلاث مناطق: منطقة ما هو «خاص» ـ ومنطة ما هو «خاص عام» ـ ومنطقة ما هو «عام».

ذلك أنه لا يمكن مهما فعلنا أن نعزل أي تصرف عن مشاعر ومزاج صاحبه، وحتى إذا كان التصرف سياسيًا فإنه في الأصل إنساني.

وهذه منطقة ماهو «خاص».

ثم إن الحدود الفاصلة بين ما هو خاص وما هو عام ليست حادة وقاطعة كأنها خط أسلاك شائكة محاط على الناحيتين بحقول ألغام مبثوثة.

وهذه منطقة ماهو «خاص عام» في أي تصرف، أي المنطقة التي تختلط فيها النزعات الشخصية بالاعتبارات الأوسع من شخص صاحبها.

وأخيرًا فإن وراء كل تصرف سياسي بالتأكيد قضية...

* * *

وإذا طبقنا هذه المقاييس على استقالة الجنرال أريل شارون وبدأنا بمنطقة ما هو خاص في الأسباب التي دعته إلى الاستقالة من الجيش الإسرائيلي هذا الأسبوع - لوجدنا مايلي:

١ - إن شارون يشعر أنه لم يعد له عمل في خدمة الجيش الإسرائيلي، ولقد شعر بذلك من قبل في شهر يوليو سنة ١٩٧٣، حينما طلب إحالته إلى التقاعد بعد سنوات في قيادة الجبهة الجنوبية - مع مصر. وكان دافعه إلى هذا الطلب في ذلك الوقت هو معرفته مقدمًا بأن الحكومة الإسرائيلية قررت تخطيه في التعيين لمنصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة الإسرائيلية بعد انتهاء خدمة الجنرال دافيد إليعازر في هذا المنصب، واتجاه الترشيح في الغالب إلى الجنرال إسرائيل تال.

ولقد تصور الجنرال شارون - ربما لوهلة - أن دوره في فتح الثغرة غرب قناة السويس قد يعطيه فرصة جديدة على القمة أو بقربها في هرم المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، لكن الشواهد كلها أقنعته بأن ذلك احتمال مستبعد تمامًا.

٢ - وكان أكثر ما أقنع شارون بذلك هو تعيين الجنرال «إفراهام آدان» قائدًا للجبهة الجنوبية - مع مصر. والعلاقات بين «شارون» وبين «آدان» متوترة، وكانت بين الاثنين اتهامات متبادلة أثناء عملية فتح الثغرة في غرب قناة السويس، فقد كان اتهام «آدان» لشارون» بأنه اندفع في مغامرة خطرة دون أن يتخذ

ضمانات تأمينها، وحتى على فرض نجاحها فإن الحرب ليست ألعاب قمار ترتهن بالحظ وحده - وأما اتهام شارون لآدان فقد كان «التردد بأكثر مما ينبغى، والبطء بأكثر مما هو لازم، والعجز عن تدعيم واستغلال نجاح ظهرت بوادره».

وقد دارت هذه الاتهامات كلها على الهواء بأمواج شبكات الاتصال على مستوى القيادات العسكرية العليا فى الحرب، وكانت مسموعة فى الساعات الأولى من فتح الثغرة حين اندفع «شارون» بمجموعات ميكانيكية خفيفة بلواءين من المدرعات، وأراد آدان أن يؤمن دخول قواته إلى الثغرة واعتبر شارون أن آدان تلكأ.

٣ - إن «شارون» يجد أن بقاءه فى الجيش يضر به ماديًا لأنه يجعله بعيدًا عن مزرعته فى بئر سبع، وهى مزرعة مساحتها ألفان وخمسمائة فدان، وقد قال شارون من قبل: إن خدمته فى الجبهات المختلفة أضرت بمزرعته لأن ابتعاده عنها قلل من رقابته على إنتاجها، على أن هناك آخرين يقولون إن خدمة شارون فى الجيش خصوصًا فترة عمله فى القيادة الجنوبية لم تلحق ضررًا - بل جلبت نفعًا - على مزرعة شارون، لأن جرارات الجيش عملت بالقرب منها ومهدت طريقًا مؤديًا إليها!

... وباختصار وفى ناحية الأسباب الخاصة فإن شارون يشعر أنهم تخطوه على سلم القيادة العليا، ثم وضعوا فوقه رجلاً لا يحبه وهو آدان، ثم إن مصالحه المادية قد تتأثر.

* * *

نصل إلى منطقة الأسباب «الخاصة العامة» وعندها نجد ما يلى مما يدفع الجنرال شارون إلى الاستقالة من خدمة الجيش:

١ - إن مجموعة «ليكود» التى يرأسها مناحم بيجين، والتى لعب شارون نفسه دورًا كبيرًا فى تكتيل عناصرها فى شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٧٣ - قد اختارته فى قائمتها الانتخابية، وجاء ترتيب اسمه الخامس فى هذه القائمة، ومعنى ذلك أنه

له مقعدًا فى الكنيست الجديد - ينتظره إذا رغب وهذا مكان مناسب له خصوصًا وهو يريد أن يثير مسائل كثيرة مما جرى فى الأيام الأولى لحرب أكتوبر.

وبالتأكيد فإن تقرير لجنة التحقيق الخاصة التى شكلت برئاسة قاضى المحكمة العليا لتحديد مسئولية القصور فى الاستعداد للحرب يوم ٦ أكتوبر - سوف يذهب إلى الكنيست أو على الأقل إلى لجنة الأمن والدفاع فيه وهذه فرصة فى رأى شارون لا تعوض لكى ينتقم من كل الذين أساءوا إليه حين تخطوه أو خالفوه.

وقد كان آخر ما قاله شارون وهو يغادر مركز قيادته فى غرب قناة السويس لآخر مرة هو:

- سوف أذيقهم طعم الجحيم»

ولم يكن بالطبع يتكلم عن المصريين!

٢ - إن الجنرال شارون قد بدأ يشعر أن هناك نظامًا للانضباط الحديدى سوف ينزل على الجيش الإسرائيلى بعد الأضرار البالغة التى أحدثها تسيب الأيام الأولى من الحرب على الجبهة المصرية وحين كان الاقتتال بين جنرالات الجيش الإسرائيلى على أشده، بينما كان القتال مع الجيش المصرى فى ذروة ضراوته.

ولقد وضع الجنرال ديان - وهو الوحيد الذى ظل شارون إلى آخر لحظة يحترمه ويحتمى به - قواعد جديدة للعلاقات العامة فى الجيش الإسرائيلى، وبينها حظر دخول الصحفيين الأجانب إلى قيادات الجيش إلا لمهام محددة لساعات محدودة، كما أنه قد أصبح محظورًا حظرًا باتًا أن يتحدث ضابط الجيش الإسرائيلى إلى «الغير» بدون وجود مسئول من المخابرات الإسرائيلية له وحده أن يقرر حدود مايقال وما لا يقال.

ومعنى ذلك كما يقول شارون بنفسه «إنهم يريدون وضعى فى قميص من الحديد».

٣ - إن شارون نفسه أحس بأن الرأى العام الإسرائيلى مجروح من السلوك العام والعلنى لجنرالاته وقت المعركة، والجيش الإسرائيلى له مكانة خاصة فى المجتمع الإسرائيلى وهذه المكانة حجمها بحجم مشكلة الأمن فى إسرائيل تمامًا، ومشكلة الأمن فى إسرائيل هى كل حياة إسرائيل، ومن هنا نستطيع تصور مكانة الجيش الإسرائيلى فى مجتمعه.

ولقد أحس شارون - كما أحس غيره - أن الرأى العام الإسرائيلى يريد إبعاد الجيش عن الصخب السياسى، والرأى العام الإسرائيلى مفتون بمغامرة شارون ولكن الأغلبية فيه تفضل أن تسمع شارون يقول ما يريد بملابس مدنية... ويضايقها أن تسمع منه وهو باللون «الكاكى» كما يقولون!

وهكذا أحس شارون أن «جمهوره» يريد أن يسمع منه ولكنه يريده فى زى آخر.

... وباختصار وفى ناحية الأسباب الخاصة العامة فإن شارن وجد أن مقعد الكنيست أفضل بالنسبة له، ثم أنه يعطيه حريته التى يطلبها فى الكلام، ويكسوه بزى آخر لا تتمزق أمامه مشاعر الجمهور الذى يريد أن يسمعه، وإذا كان مستقبله فى الجيش قد توقف فإن مستقبله فى السياسة على وشك أن يبدأ...

* * *

هكذا تتبقى منطقة الأسباب العامة التى دعت - وأكاد أقول أرغمت - الجنرال شارون على الاستقالة من خدمة الجيش.

وهذه المنطقة هى القضية ذاتها أو هى الصلب من القضية وأظن أن هذه المنطقة هى مسافة الخلاف الكبير فى التفكير العسكرى الإسرائيلى حول القيمة الحقيقية للثغرة التى فتحها الجنرال شارون فى غرب قناة السويس:

● هل كانت هذه الثغرة عملاً حربيًا عظيمًا غير نتيجة حرب أكتوبر من نكسة لإسرائيل إلى نصر حرمت فى اللحظة الأخيرة من ثماره. (وهذا هو رأى الجنرال شارون).

أو:

● إن هذه الثغرة كانت مغامرة خطرة نجحت عمليًا ونفسيًا لساعات أو لأسابيع ولأسباب خارجة عن تخطيط مدبريها ويستحسن تصفيتها بكرامة وهدوء (وهذا هو رأى عدد آخر من جنرالات إسرائيل وفى مقدمتهم الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان السابق والمشرف على تنسيق العمليات على جبهة سيناء)

ولقد بدأ هذا الخلاف من ثانى يوم فى حرب أكتوبر وظل محتدمًا طول فترة العمليات وبعدها وتجاوز النطاق العسكرى وعلت النبرات السياسية فيه على غيرها من أصوات الكلام!

□

وربما اقتضانا الأمر أن نلقى نظرة أبعد على عملية الثغرة، بدايتها كفكرة، ثم التخطيط لها، ثم تنفيذها، ثم نتائجها الظاهرية والحقيقية.

ويمكن تلخيص ذلك كله فيما يلى:

١ ـ لقد كانت إسرائيل تحاذر دائماً من أى حماقة فى غرب قناة السويس. وبعد معارك الأيام الستة، فقد كان الطريق مفتوحًا أمامها وحتى القاهرة، ولم يخطر ببال أحد ـ على سبيل الجد ـ أن يعبر القناة لأن المخاطر شديدة وأولها الامتداد البعيد بأكثر مما هو محتمل بالنسبة للجيش الإسرائيلى، وثانيها الاقتراب من مناطق الكثافة السكانية المصرية.. وأسباب أخرى.

كان الطريق مفتوحًا أمامها فى الغرب ومع ذلك توقفت إسرائيل على الضفة الشرقية سنة ١٩٦٧ ولم تعبر ولا بقارب مطاط واحد.

٢ ـ بدأ التفكير فى عملية محدودة فى الغرب سنة ١٩٧٠، فى أعقاب حرب الاستنزاف الشهيرة، وفى أعقاب نجاح مصر فى بناء حائط الصواريخ العتيد على الضفة الغربية لقناة السويس وكان هذا الحائط أكبر شبكة صواريخ عرفها العالم،

وكان من أثر بناء هذا الحائط أن أصبح الطيران الإسرائيلى ـ وهو سلاح الردع الأساسى ـ عاجزًا تمامًا عن العمل فوق القوات المصرية.

ورأت القيادة الإسرائيلية أنها سوف تكون فى مأزق صعب إذا حدث واستؤنفت حرب الاستنزاف أو إذا حدث وقامت مصر بعملية أكبر لعبور قناة السويس.

وهكذا بدأ التفكير فى عملية إسرائيلية محدودة فى الغرب تقوم بها قوة عمل إسرائيلية خاصة تكون مهمتها تحطيم جزء من شبكة الصواريخ لفتح ثغرة فيه تستغلها الطائرات الإسرائيلية لكى تتم بأمان تدمير الحائط كله، ومن ثم تصبح قوات الجبهة المصرية تحت رحمة الطيران الإسرائيلى.

٣ ـ لقد كان هذا التفكير دائرًا ـ بشهادة الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان فى ذلك الوقت ـ حينما عين الجنرال شارون قائدًا للجبهة الجنوبية ـ مع مصر.

واهتم شارون بهذه الفكرة، وشارك فى التخطيط لها، واختار بنفسه مجموعات عناصر العمل التى تكلف بها، وكان هو نفسه الذى صك لها اسمها الرمزى الذى عرفت به من وقتها وحتى الآن وهو اسم: «الغزالة».

ولعل هذا الاسم الرمزى نفسه يشير إلى التصور الحقيقى وراء هذه العملية: حركة سريعة وخفيفة.. تعبر القناة بقفزة واحدة.. وترمح هنا وهناك فى لمح البصر، ثم تفر عائدة من حيث أتت بعد أن تتمم دورها، أو يلحقها الصياد فيصيبها، بعد أن تكون قد فتحت ثغرة فى السماء وليس ثغرة على الأرض، أى أزاحت جزءًا من حائط الصواريخ.. دون أن تحتل أرضًا عليه أو من حوله!

وبلغ من اهتمام شارون «بالغزالة» أنه استكشف مواقع العبور المحتمل بنفسه واختار منها موقعًا عند نقطة الدفرسوار وأمر سلاح المهندسين فى هذا الموقع ببناء منطقة تجمع للدبابات والمصفحات، وبتخفيف الحاجز الترابى على القناة ليسهل فتح فجوة فيه إذا جاء وقت تنفيذ العملية، وبوضع علامات من الأحجار الحمراء هناك لتكون دليلاً لقوة العمل جاهزًا يشير لها نحو منطقة الاختراق إذا حانت الفرصة.

٤ ـ وفى يوم الجمعة ٥ أكتوبر، وقبل أربع وعشرين ساعة من بدء العمليات وصل الجنرال شارون إلى مقر القيادة الجنوبية المتقدم فى أم خشيب.

كان شارون قد استدعى للخدمة ضمن من استدعوا من كبار الضباط فى إسرائيل بعد أن أحست القيادة الإسرائيلية بنية هجوم مصرى واسع.. وشيك.

وتوجه «شارون» إلى غرفة العمليات حيث كان يجلس قائد الجبهة الحالى ـ وقتها ـ ومرءوسه السابق ـ من قبل ـ «الجنرال جونين» وعدد من أركان حربه.

واشترك الجنرال شارون فى مناقشة حول التطورات المحتملة عرضت فيها مجموعة من صور الاستطلاع التى التقطتها الطائرات الإسرائيلية، وأمسك الجنرال شارون ببعض هذه الصور يتأملها ويقول:

ـ هذه معدات عبور واضحة فى الصورة.. معنى ذلك إنهم سوف يهاجمون.. بهذه الأوضاع التى أراها أمامى فإن هجومهم سوف يجىء فى ظرف ساعات قليلة..

وبدأ شارون يعرض مقترحات وتصورات أحس أن جونين لا يشاركه فيها فحاول الاتصال بموشى ديان فى تل أبيب، ثم تمكن من الاتصال بدافيد اليعازر فى مقر قيادة «تساهال» ـ جيش الدفاع الإسرائيلى، وكان رأى الجنرال دافيد اليعازر أن تكون المسئولية للقائد المسئول (جونين) وأن يلتزم شارون بالتسلسل القيادى فى عرض أى مقترحات له.

٥ ـ وبعد الظهر بقليل من يوم ٦ أكتوبر العظيم فى مصر، صدر القرار وانطلق الرجال ولم تمض ساعات حتى كان خط بارليف قد سقط أمام الموجات الأولى للهجوم المصرى.

أخذت قوات الخط كلها بالمفاجأة رغم أن إشارة استعداد كانت قد أرسلت لها، وتبين بعد أن هذه الإشارة لم تصل بسبب ارتباك القيادة وخطوط اتصالاتها.

وكان شارون قد ترك مقر القيادة العامة المتقدم وقضى الليل فى قيادة

مدرعات أقامها على عجل للقوات التى وضعت تحت إمرته ليقوم بالهجمات المضادة الأولى.

وعند ظهر اليوم التالى كان شارون فى حالة عصبية بالغة حملها معه وذهب إلى المقر المتقدم للقيادة العامة فى الجنوب.

كان سبب عصبيته هو معارك الدبابات التى وقعت فى الصباح أمام الفرقة الثانية مشاة المصرية ضمن قوات الجيش الثانى.

لقد فوجئ شارون فى هذه المعارك بجندى المشاة المصرى يحمل الصواريخ المضادة للدبابات من طراز مولوتكا، كما فوجئ بكتائب المدرعات الملحقة بفرق المشاة المصرية.

وأتذكر أنى زرت ساحة هذه المعارك فيما بعد مع الجنرال أندريه بوفر ونظر الجنرال بوفر إلى آثار المعركة من حوله، ثم قال بتأكيد خبير يعرف ما يقول:

«أستطيع أن أشهد بما أراه من حولى الآن، أنكم هنا حاربتم بأكفأ مستوى يعرفه العصر».

وربما كانت ملاحظة الجنرال بوفر فيما بعد هى نفس السبب الذى جعل الجنرال شارون - من قبل - يشعر بالعصبية فقد رأى نفسه يفقد فى هذه الساحة وحدها نصف لواء بأكمله من مدرعاته.

٦ - أحس شارون بمنطوق ما قاله بنفسه أن الخطة المصرية فى هذه المرحلة - وبعد إتمام العبور وظهور خمس فرق من الجيش المصرى فجأة على الضفة الشرقية لقناة السويس - تتلخص فى «أن المصريين يريدون أن يجرونا إلى مهاجمتهم بالدبابات وحين نقترب منهم فإنهم يصدموننا بصواريخهم المضادة للدبابات وبدباباتهم نفسها».

وأسرع الجنرال شارن إلى مقر قيادة الجنرال جونين ليعرض تقديره ويقول وبالحرف طبقًا لما ذكره هو فيما بعد:

ـ إذا استمر الوضع على هذا الحال فإننا سوف نخسر... إننا الآن نرقص على أنغام مصرية ولابد أن نتوقف عن ذلك فورًا».

وكان الجنرال جونين في حالة يرثى لها.

كان قد فقد سيطرته على نفسه وعلى الجبهة التى يقودها وكان ضباطه من حوله قد أحسوا بتآكله من الداخل منذ الساعات الأولى للهجوم، وبدا ذلك واضحًا من تصرفاته العادية حتى عندما مد يده إلى فم أحد معاونيه فانتزع منه سيجارة كان يدخنها وألقى بها على الأرض وراح يدوسها بقدمه حتى طحنها تقريبًا وهو يقول:

ـ «هل تدخن يوم السبت؟... هل نسيت أنك يهودى؟» كانت هذه هى حالة جونين عندما دخل عليه شارون، وأدرك شارون على الفور أنه أمام رجل تم انهياره داخليا أو هو بقرب الانهيار التام من داخله.

وكان سؤال جونين لشارون وهو يحاول السيطرة على أعصابه:

ـ ما هى توصياتك؟

وقال شارون على الفور:

ـ لابد أن نوقف الأسلوب الذى نقاتل به الآن.. لابد أن نأخذ نحن زمام الهجوم فى ظرف ملائم لنا».

ثم برقت الفكرة فى عينيه وقال على الفور:

ـ إننى أفكر فى «الغزالة»!

ورفض جونين الفكرة بشدة.

وتطورت المناقشة إلى مشادة بين الجنرالين وكانت هذه هى المشادة التى قال فيها شارون لجونين عبارته المشهورة.

ـ جونين.. لو كان لى رأى فيما يحدث لما كان لك مكان هنا فى هذه القيادة».

وتركه وخرج بدون استئذان وكان أول ما فعله الجنرال جونين بعد ذلك هو أنه طلب من مركز اتصالاته الرئيسى أن يضع شبكة اتصالات قيادة الجنرال شارون تحت الرقابة وأن يتسمع على كل الرسائل الصادرة منها للقيادة العامة أو لقواد الألوية المدرعة مع شارون!

٧ - ووصلت الصورة إلى القيادة العامة فى تل أبيب وتقرر إرسال الجنرال حاييم بارليف - وزير المواصلات وقتها ورئيس هيئة الأركان السابق - إلى سيناء لتنسيق القيادة بين الجنرالين المتخاصمين هناك، ودعا بارليف إلى اجتماع لبحث الموقف حضره شارون.

وعرض شارون وجهة نظره:

● لابد من تحويل «تيار الحرب» لتأخذ إسرائيل زمام الهجوم.

● الحل فى رأيه هو «الغزالة» مع تعزيزها بقوات أكبر وتوسيع نطاق مهمتها.

● إذا حدث اختراق إلى الغرب بخطة الغزالة فسوف يصاب التفكير المصرى بشلل وارتباك.

● إن الهجوم فى الغرب سيقوى الروح المعنوية بين القوات ووراء القوات هناك فى إسرائيل بعد كل ما وقع من صدمات.

● إن القتال فى الغرب قد يعطى الجيش الإسرائيلى فرصة للمناورة الواسعة بالدبابات ولحركات الاختراق والتطويق والإبادة.

● إن أى نجاح يحدث هناك مهما كان محفوفًا بالمخاطر يمكن احتماله لأن الدول الكبرى لن تسمح باستمرار الحرب طويلاً ولابد أن يتوقف إطلاق النار على الجبهة فى أيام ومن الملائم سياسيًا أن يكون للجيش الإسرائيلى فى تلك اللحظة قوات فى الغرب.

واستمع بارليف إلى بقية وجهات النظر، ثم كان رأيه:

- إن الوقت ما زال مبكرًا فى عملية «الغزالة» وأن هناك محظورات ما زالت عليها:

● إن القتال قد يستمر أيامًا أخرى قبل صدور قرار بوقف إطلاق النار يحمى قفزة «الغزالة» فى الغرب.

● إن الخسائر العالية فى معارك الدبابات لا تسمح ببعثرة الوية مدرعة قد تشتد الحاجة إليها إذا حاولت القيادة المصرية تطوير هجومها فى الشرق.

● إن هناك فرقة مصرية مدرعة موجودة كاحتياطى إستراتيجى فى الغرب وتدخلها يستطيع قتل «الغزالة» على الفور.

وكان قرار بارليف بعد ذلك هو أنه لا بأس من تخويل شارون بالاستعداد لتنفيذ عملية الغزالة شريطة أن ينتظر إشارة تصله فيما بعد وعندما ترى القيادة العامة أن الظروف أصبحت مهيأة.

وفى يوم ١٤ أكتوبر ونتيجة إلحاح مستمر من الجنرال شارون الذى بدأ يحصل فى ذلك الوقت على تأييد الجنرال ديان ـ الذى وجد نفسه مكشوفًا إلى أقصى حد أمام جميع أعدائه السياسيين، والذى كان يتحرق شوقًا إلى أى عملية براقة ـ صدرت الإشارة إلى شارون بأن يكون جاهزًا للعمل فى ظرف ست ساعات.

ولم يقف بارليف موقف المعارضة لأسباب شرحها:

● إن جهود وقف إطلاق النار على وشك أن تصل إلى نتيجة.

● إن المعونات الأمريكية سيلا متدفقًا على إسرائيل.

● إن الفرقة المدرعة المصرية التى كانت احتياطيًا إستراتيجيًا فى الغرب قد عبرت إلى سيناء لتطوير هجوم مصرى كان القصد منه التخفيف عن سوريا.

وكان تفكير «بارليف» فى عملية الغزالة محددًا بأهداف معينة:

● فتح ثغرة فى حائط الصواريخ المصرى تمكن الطيران الإسرائيلى من العمل بحرية فوق الجيوش المصرية.

● إحداث أثر نفسى عميق على التفكير العسكرى المصرى.

● الاحتفاظ بمواقع في الغرب يمكن أن يحميها وقف إطلاق النار ويمكن أن تكون المساومة عليها بعده.

٨ـ بدأت قفزة «الغزالة» في الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم الاثنين ١٥ أكتوبر وكانت العملية مغامرة بكل المصادفات التي يمكن أن تلقاها مغامرة.

ولست أريد الآن ـ ولا هو موضوع هذا الحديث ـ أن أدخل في تفاصيل عملية الغزالة وسير وقائعها، ولكنه في اليوم الذي تنشر فيه إشارات شارون من مقر قيادته المتحرك ـ وكان من خمس مصفحات تتوسطها عربة قيادته ـ سوف تظهر صورة غريبة.

إشارات تشتم قادة تشكيلات شارون أنفسهم لأنهم تعطلوا عن اللحاق به أمام هجمات مضادة قامت بها وحدات من الجيش الثاني.

إشارات تشتم سلاح المهندسين لتأخيره في مد الكباري التي تعبر عليها المدرعات لتعزيز الطلائع التي دخل بها شارون.

إشارات تشتم الجنرال أفراهام آدان قائد المدرعات الذي كان عليه أن يلحق شارون بلواءين من الدبابات ولكنه تأخر لأنه أراد أن يتأكد أن مداخل الثغرة مؤمنة وأن الجسور التي كانت تحت قصف مصري شديد قد أصبحت مفتوحة.

وسادت الفوضى شاملة لأيام على هذا القطاع من الجبهة في الغرب.

وكانت الفوضى هي التي ساعدت شارون من حيث لا يدري في حين أنها كان يجب أن تكون القاضية عليه!

ونزل قرار وقف إطلاق النار على الجبهة، ولم يلتزم به شارون، ولم يكن يستطيع ـ من وجهة نظر عسكرية بحتة ـ أن يلتزم به؛ لأن قواته في أوضاع ٢٢ أكتوبر كانت معرضة ومكشوفة إلى حد خطير، ثم أنه لم يكن قد وصل بعد إلى مواقع يحقق منها هدفًا إضافة إلى أهدافه وهو قطع طريق الجيش المصري الثالث.

هكذا واصل «شارون» تقدمه تحت وقف إطلاق النار، ونزل جنوبا فأحاط

بالسويس، واحتلّ تقاطع الطرق بينها وبين القاهرة، ومد خطوطه إلى الأدبية، وحاول الوصول إلى السخنة!

٩ ـ كان وضع قوات الثغرة ـ على حد تعبير الرئيس أنور السادات فى مؤتمره الصحفى الكبير بعد وقف إطلاق النار ـ هشًا.

وربما كانت أخطر نتيجة لهذه الثغرة هى الأثر السياسى والنفسى.

ومن وجهة نظر عسكرية فقد أصبح وضع قوات الثغرة فى نطاق مقدرة العمل المصرى فى اللحظة التى أمكن فيها حشد قوات جديدة من فرق المشاة ومن المدرعات والمدفعة تحكم من حولها حصارًا كاملاً.

وبهذه الطريقة أصبح وضع القوات الإسرائيلية على الجبهة المصرية كلها ـ وليس فى الثغرة فقط ـ وضعًا غريبًا:

عززت الثغرة خوفًا من الضغط المصرى المحتمل عليها أو اقتحامها فأصبحت قوتها سبعة ألوية.

ولحماية الطرق والمداخل إليها فقد وقفت على الغرب خمسة ألوية أخرى مهمتها حماية مواصلات الثغرة.

وهذا كله غير عشرة ألوية وزعت أمام الجيشين الثانى والثالث.

ووراء هذا كله احتياطى إستراتيجى متأهب للعمل.

أى أنه كان لإسرائيل ما بين خمسة وعشرين وثلاثين لواء فى سيناء تحت التعبئة العامة وتحت التوتر الشديد وأمام الخطر فى أى لحظة.

وتصبح المقارنة مهمة إذا تذكرنا أن القوات الإسرائيلية المعبأة على كل الجبهات العربية قبل حرب أكتوبر كانت سبعة ألوية فى حالة تعبئة كاملة وخمسة ألوية فى حالة تعبئة.

وكان الوفد العسكرى المصرى فى جنيف متنبهًا إلى خطورة وضع القوات الإسرائيلية على الثغرة وفى سيناء وقد قال رئيسه صراحة:

- إن أحدًا لا يمكن أن يخيفنا بهذه الثغرة، فنحن نعلم قيمتها العسكرية، فهى معرضة، ثم إن حمايتها تحتاج إلى تعبئة ضخمة وراءها فى سيناء».

وكان رد الجنرال جور رئيس الوفد الإسرائيلى مائعًا حين قال:

- إن قوادنا يرون أن هناك فوائد كثيرة تعود علينا من بقاء هذه الثغرة، وهم يرون إمكان استغلالها، وأما عن التعبئة فنحن نستطيع احتمالها سنة وسنين!»

وقال الوفد العسكرى المصرى:

- ليكن فلتبق الثغرة ولتعودوا إلى خطوط ٢٢ أكتوبر»

وكان رد جور وبسرعة «إن هذا مستحيل عسكريًا».

١٠ - كانت المناقشة ما زالت دائرة فى إسرائيل حول قيمة الثغرة.

كان الجنرال شارون وهو مغرم بالتعبيرات الملونة يقول فى اجتماعات القيادة العامة فى تل أبيب:

- إن الثغرة مسدس مصوب إلى قلب مصر... ثم هى حبل حول رقبة الجيش الثالث».

وكان رأى غيره:

- إن الثغرة قد أدت دورها النفسى والسياسى وهذا يكفى

أما عسكريا فالمسألة تختلف.

هل تستطيع أن تتقدم من هذه الثغرة لتهديد القاهرة مثلاً...؟

وأما عن الجيش الثالث فحصاره مرهون بوقف إطلاق النار، وإذا حدث تجدد لإطلاق النار فإن الجيش الثالث فقد يصبح فى مصيدة، ولكن قوات الثغرة هى الأخرى سوف تصبح فى مصيدة وهذا ما لا تستطيع إسرائيل تحمله».

وكان هؤلاء يضيفون:

- إن بقاء قوات الثغرة يعرضها لحرب استنزاف يومية وهو ما تخشاه إسرائيل حتى ولو كان ضحايا حرب الاستنزاف قتيلا واحدًا كل يوم.

ثم إن بقاء قوات الثغرة معناه بقاء حالة التعبئة العامة وهو ما لا تستطيع إسرائيل احتماله إلى وقت غير محدود».

وانتهت المناقشة.

وعرف شارون أنه خسر نظريته داخل الجيش الإسرائيلى

إن قيادة الجيش الإسرائيلى وافقت - ضمن اتفاقية الفصل بين القوات - على سحب قوات الثغرة والانسحاب إلى خط المضايق.

* * *

لقد وجد نفسه وحيدًا فى النهاية، عن كل الفكر السائد فى القيادة الإسرائيلية، مهزومًا داخل المؤسسة العسكرية التى ينتمى إليها.

كان يظن أن بيده مسدسًا موجهًا إلى قلب مصر، وحبلاً حول رقبة الجيش المصرى الثالث.

وبقرارهم النهائى فلقد قالوا له جميعًا وببساطة:

إنه ليس فى يده مسدس.. وليس فى يده حبل».

وتنتهى مغامرة شارن... وتنتهى معها خدمته العسكرية كلها!... وهذه هى القضية!

الظـــلال.. والبَريــق

أول فبراير ١٩٧٤

وسط الصخب العالى، وسحب الدخان الكثيف، مما تثيره الولايات المتحدة فى منطقة الشرق الأوسط الآن - يحق لنا أن نتساءل:

- هل يمكن أن نكون أمام تغيير كبير لحق بالسياسية الأمريكية فى المنطقة ولم نتنبه له بالرصد والتحليل فى الوقت الملائم وبالسرعة الواجبة؟».

إذا أردنا - أو حاولنا - أن نجيب على هذا التساؤل. فلقد يكون مناسبًا أن نتفق أولاً على ما يلى:

إن السياسة الخارجية لأى قوة دولية - خصوصًا إذا كانت إحدى القوتين الأعظم - هى: تعبير عن مصالح دائمة، واستجابة - أو استغلال - لظروف أو ملابسات متغيرة.

ومعنى ذلك أن السياسة الخارجية لأى قوة دولية فيها العنصران معًا.

● عنصر الاستمرار المستمد مع الإستراتيجية العليا لهذه القوة الدولية، ومن طبيعة علاقاتها على هذا الأساس مع أطراف متعددين.

● وعنصر طارئ يرجع إلى ظروف مؤقتة، أو يعود إلى أسباب متنوعة بينها اختلاف الشخصيات المشرفة على التوجيه وتباين أمزجتها.

وعلى سبيل المثال، فإن سياسة الولايات المتحدة إزاء النظام الثورى فى مصر سنة ١٩٥٦، كانت إسقاط هذا النظام أو إرغامه على الركوع، وكان سحب العرض الأمريكى بالإسهام فى بناء السد العالى فى يوليو سنة ١٩٥٦، والطريقة التى أعلن بها جون فوستر دالاس (وزير الخارجية الأمريكية فى ذلك الوقت) قرار سحب العرض الأمريكى - تطبيقًا عمليًا لهذه السياسة.

ومع ذلك، فإنه لم تكد تمضى أسابيع قليلة على هذا الإجراء العنيف، حتى كان جون فوستر دالاس بنفسه يقود حملة الإدانة ضد الغزو البريطانى - الفرنسى لمصر فى أكتوبر سنة ١٩٥٦.

لم تكن السياسة الأمريكية قد تغيرت إزاء النظام الثورى فى مصر.

ولكن طرأت ظروف وأسباب:

● منها أن حلفاء أمريكا - بريطانيا وفرنسا - أخفوا عن أيزنهاور - الرئيس الأمريكى وقتها - خططهم لغزو مصر.

● ومنها أنهم فى محاولتهم لغزو مصر نسوا أنهم يعتمدون فى حمايتهم على مظلة نووية أمريكية.

● ومنها أنهم اختاروا توقيتًا «سخيفًا» - فى رأى أيزنهاور - لأن الانتخابات الأمريكية كانت على وشك أن تجرى، وكان هو مرشحًا فيها مرة ثانية للعودة إلى البيت الأبيض، وكانت النقطة الرئيسية فى برنامجه الانتخابى وقتها هى: السلام.

والدليل على أن ذلك التغيير - أو ما بدا أنه تغيير - كان أمرًا طارئًا يعود إلى ظروف مؤقتة وأسباب متنوعة أن حرب السويس لم تكد تتوقف حتى كانت الولايات المتحدة الأمريكية - وليس أى طرف غيرها - تحاول تنفيذ أهداف العدوان الثلاثى - الغزو البريطانى الفرنسى والتواطؤ الإسرائيلى - بوسائل أخرى وصلت كما لعلنا نذكر إلى درجة حظر تصدير الدواء لمصر.

ولربما قيل، والقول يبدو منطقيًا، للوهلة الأولى.

ـ هل معنى ذلك أنه يوجد «مكتوب أبدى» فى السياسة الدولية؟

والرد هو أنه: لا يوجد «مكتوب أبدى» فى السياسة الدولية ولا فى غيرها من مجالات الطبائع والعلاقات الإنسانية وإنما كل شىء حركة وتحول لا يتوقفان.

ومعنى ذلك أن التغيير يحدث إذا تغيرت الطبائع وتغيرت معها العلاقات.

وعلى سبيل المثال، فإن الإمبراطورية البريطانية تغيرت فى طبيعتها وعلاقاتها عندما أرغمتها حركة الثورة الوطنية على أن تلزم حدودها وتتقلص من إمبراطورية لا تغرب الشمس عن ممتلكاتها إلى قوة من الدرجة الثانية تبحث لنفسها عن دور متواضع تجد فيه أمانها الاقتصادى والسياسى.

وتطبيقًا على ذلك فإننا نستطيع أن نقول إن السياسة الأمريكية سوف تتغير فى يوم من الأيام إذا واجهت القوى التى تفرض عليها تغيير طبيعتها وعلاقاتها.

وربما استطعنا أن نقول إن هناك قوى تواجه الولايات المتحدة وتتصدى لها وبينها التحدى الاشتراكى **عقائديًا** والتحدى السوفيتى والتحدى الصينى والتحدى الفيتنامى والتحدى العربى **سياسيًا**.

ولكننى ـ مع ذلك ـ واحد من الذين يقولون إن هذه التحديات حتى هذه اللحظة، لم تصل بعد إلى حد تغيير طبيعة وعلاقات السياسة الأمريكية!

إن هذه التحديات كلها فرضت عليها حدودًا معينة فى السلوك تتجنب بها محظورات خطرة وأرغمتها على التراجع فى بعض المواقع، ولكن هذه التحديات لم تصل بعد إلى حد ترويض القوة الأمريكية تمامًا أو تغيير طبيعتها وبالتالى علاقاتها!

وربما من هذا السبب، فإننى كنت واحدًا من الذين دعوا إلى «تحييد أمريكا»

ولم أكن ـ وغيرى ـ نطلب ذلك عن طريق الاسترضاء أو الاستخذاء أمام القوة الأمريكية ولا عن طريق التوسل أو التسول منها، وإنما كنا نطلب ذلك عن طريق الوعى بتناقضنا العميق معها والضغط عليها بالإرادة الوطنية وبالوحدة العربية

وبالصداقة مع الاتحاد السوفيتى وبتأثير الرأى العام العالمى ونفوذه السياسى والمعنوى.

وعندما كنا نفعل ذلك فإننا لم نكن ننادى بالكف عن الصراع مع الثور الأمريكى - فهذا الصراع حتمى - وإنما كنا نلفت النظر إلى أهمية تفادى قرونه كما يفعل مصارع الثيران، حتى لا يقتلنا فى هجمة مجنونة واحدة، ثم إننا كنا نعتقد أنه فى قضايا الحرب والسلام فى هذا العصر فإن تأثير القوتين الأعظم لا يمكن عزله أو تجاهله!

وإذا كانت طبيعة القوة الأمريكية، وبالتالى علاقاتها، لم تتغير بعد - إذن فما هو مثار الصخب العالى وسحب الدخان الكثيف الذى يملأ الآن آفاق الشرق الأوسط؟

... ربما كان علينا أولاً أن نتأكد من أن طبيعة القوة الأمريكية وعلاقاتها لم تتغير حتى يكون انتقالنا من هذه النقطة إلى ما بعدها انتقالاً سليمًا لا يترك وراءه فراغات أو فجوات.

ومن هنا فلعلنا نأخذ تصرفات الولايات المتحدة فى حرب الشرق الأوسط الأخيرة، ٦ أكتوبر وما تلاه، نموذجًا نقيس وندرس على أساسه.

ولقد قلت وما زلت أقول إن الولايات المتحدة الأمريكية لها فى الشرق الأوسط مجموعة من الأهداف الدائمة تتلخص فيما يلى:

١ - حماية أمن ومستقبل إسرائيل.

٢ - ضمان الحصول على البترول العربى واستمرار تدفقه بسعر معقول.

٣ - إخراج الاتحاد السوفيتى من المنطقة العربية.

٤ - استعادة النفوذ الأمريكى فى المنطقة وجعله النفوذ الأوحد فيها إذا أمكن.

٥ - الحيلولة دون قيام قوة عربية كبرى فى هذه المنطقة بما فى ذلك حجب الدور المصرى الطبيعى واعتراض طريق قيام الوحدة العربية بكل الوسائل.

ونأخذ تجربة حرب أكتوبر في كل هدف من هذه الأهداف الخمسة، ونقيس وندرس.

■■■ **أولا** : في حماية أمن ومستقبل إسرائيل : فإن الولايات المتحدة الأمريكية تصورت عندما نشبت معارك أكتوبر العظيمة أنها سوف تكون ساعات معدودة ثم ينقض الردع الإسرائيلي بكامل جبروته فإذا العبور المصرى يغرق في قناة السويس ويحيل مياهها الزرقاء إلى حمرة قانية بلون الدم.

ولكن الهجوم المصرى، المنسق مع هجوم سورى، نجح واستطاع في الأيام الأولى من القتال أن يحطم نصف القوة المدرعة الإسرائيلية وثلث القوة الجوية الإسرائيلية فضلاً عن خسائر بشرية لا تستطيع إسرائيل احتمالها.

ماذا كان رد الفعل الأمريكي؟

كان رد الفعل الأمريكي - تعبيرًا عن طبيعة القوة الأمريكية وعلاقاتها - هو قرار الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون باعتماد مبلغ ٢٣٠٠ مليون دولار ترصد لمعونات عسكرية لإسرائيل، ثم جسر جوى وبحرى ينقل هذه المعدات على وجه السرعة إلى إسرائيل وبدون انتظار لأى شيء.

لم ينتظر نيكسون موافقة الكونجرس الأمريكي.

ولم ينتظر نيكسون إذن دول في أوربا الغربية، وأمر بإرسال المعونات العسكرية إلى إسرائيل من قواعد أمريكية على أرض هذه الدول.

لعلي أقول أيضا إن المعونات العسكرية الأمريكية لإسرائيل في ذلك الوقت شملت كذلك إرسال مجموعات من الخبراء المتخصصين في استعمال أسلحة إليكترونية بذاتها، وتقدر بعض التقارير التي أشير إليها صراحة في بعض لجان الكونجرس الأمريكي هؤلاء الخبراء - ! -«بعدة مئات»، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الخبراء شاركوا عمليا في استعمال أسلحتهم ضد القوات المصرية، ولا يغطى ذلك طبعا أن يقال أن ذلك جرى بقصد التجربة وليس بقصد الاشتراك في القتال.

■ ■ ■ **ثانيا**: فى ضمان الحصول على البترول العربى واستمرار تدفقه بسعر معقول - فإن الولايات المتحدة تحركت فى أكثر من اتجاه يبدو فيها جميعا رد الفعل الأمريكى تعبيرا عن طبيعة القوة الأمريكية وعلاقاتها.

● حاولت الولايات المتحدة أن تلمح بطرف خفى إلى استعدادها لاستعمال القوة عند اللزوم. ولعلى أقول استنادا إلى معلومات لا يرقى إليها الشك فى اعتقادى أن الولايات المتحدة وضعت فى وقت من الأوقات خطة طوارئ لاحتلال «أبو ظبى»، ولست أعرف لماذا اختارت الولايات المتحدة أبو ظبى بالذات، ولكنى واثق مما أقول!

● حاولت الولايات المتحدة إبطال مفعول الحظر العربى على تصدير البترول إليها، ولعلى أقول إنها نجحت فيما حاولته وذلك متصور؛ لأن شركاتها هى التى تملك فى المنطقة معظم منابعه، ثم لأن أسلوب تطبيق الحظر العربى لم يتجاوز أخذ تعهدات مكتوبة من قباطنة الناقلات بأن لا يذهبوا ببترولهم الذى يحملونه من الموانئ العربية إلى موانئ أمريكية:

وتكشف الأرقام أن تدفق النفط على الولايات المتحدة لم يتوقف ولم يتأثر وأن ظل الغموض المقصود يحيط بالمصادر التى استمر منها تدفق النفط.

● حاولت الولايات المتحدة - إلى حد ما - تشجيع لعبة رفع الأسعار فهى الشريك الأكبر والأقوى فى عملية بترول الشرق الأوسط كلها.

وإذا أردنا دليلاً على أن الولايات المتحدة كانت طرفًا مستفيدًا من لعبة رفع الأسعار فلدينا الدليل وهو بسيط مقنع.

- أليس لافتًا للنظر أن الدولة التى طبقنا عليها أقصى وأقسى قرارات الحظر هى الدولة الوحيدة التى كانت قيمة نقدها - الدولار - ترتفع أمام عملات دول أخرى رفعنا عنها الحظر وخصصناها بالرعاية؟».

● حاولت الولايات المتحدة بكل اللغات واللهجات أن تضغط لرفع الحظر العربى، عنها، ليس لأنه أثر فيها ماديًا. ولكن لأنها اعتبرت استمراره ضدها إهانة سياسية - حتى وإن كانت شكلية - وهى ليست مستعدة لتحملها أكثر مما تحملتها.

■ ■ ■ **ثالثًا**: فى إخراج الاتحاد السوفيتى من المنطقة - فإن الولايات المتحدة تذرعت بأعذار واهية يوم ٢٥ أكتوبر. وإذا بالرئيس الأمريكى يعلن حالة التأهب القصوى للقوة النووية الأمريكية الرادعة.

وقال الرئيس الأمريكى أو قيل عنه بأن معلومات لديه أقنعته أن الاتحاد السوفيتى على وشك أن ينقل بعض قواتها المحاربة إلى الشرق الأوسط - وليس فى علمى أن ذلك كان صحيحًا أو واردًا فى أى لحظة من لحظات حرب أكتوبر.

وهكذا مشى الرئيس الأمريكى إلى حافة الهاوية وأعلن حالة التأهب القصوى للقوة النووية الأمريكية الرادعة.

كان قصده أن يعرف العالم كله أن الولايات المتحدة وحدها قادرة على تجاوز كل الحدود فى تصرفاتها وأما الآخرون فمهما بلغت درجة قوتهم فعليهم أن يعرفوا لأنفسهم حدودها.

وكان هذا التصرف أيضًا - بكل ما حواه - تعبيرًا عن طبيعة القوة الأمريكية وعلاقاتها.

■ ■ ■ **رابعًا**: ويتصل بذلك مباشرة هدف استعادة النفوذ الأمريكى فى المنطقة وفى شأنه فإنه يكفى أن نتتبع أسلوب الولايات المتحدة فى عملية واحدة وهى عملية الفصل بين القوات المتحاربة - لكى نرى ردود الفعل الأمريكى فى هذه النقطة تعبيرًا عن طبيعة القوة الأمريكية وعلاقاتها.

لقد وردت الإشارة إلى عملية الفصل بين القوات فى قرارات وقف إطلاق النار فى الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر سنة ١٩٧٣، وكانت هذه القرارات كلها مشروعات أمريكية وسوفييتية أقرها مجلس الأمن وصدرت عنه.

وفجأة قفزت الولايات المتحدة منفردة إلى النقط الست المشهورة التى قدمها الدكتور هنرى كيسنجر وبدأت على أساسها المرحلة الأولى من محادثات الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة السويس.

وكانت الأمم المتحدة بعيدة عن هذه النقط الست.. وكان الاتحاد السوفيتى بعيدًا أيضًا وتعثرت الأمور عند الكيلو ١٠١، وكانت الولايات المتحدة هى التى اقترحت الانتقال إلى جنيف لمواصلة المحادثات، وهناك تم استبعاد أوروبا الغربية من الاشتراك فى مؤتمر جنيف وبقى السكرتير العام للأمم المتحدة فى المؤتمر بصورة فخرية، وبقى الاتحاد السوفيتى مشاركًا بالاسم كما ظهر فيما بعد..

ومع ذلك فقد كانت الولايات المتحدة هى التى عادت فجأة إلى الكيلو ١٠١ ووصلت هناك فعلاً إلى التطبيق العملى لقرار الفصل بين القوات، وكان فالدهايم فى نيويورك، وكان فينوجرادوف فى جنيف.

وكانت هذه كلها إشارات واضحة موجهة إلى المنطقة العربية بالذات وكأنها تقول لها:

- إذا كنتم تريدون حلاً.. فلا حل إلا عن طريقنا وباشتراكنا... وحدنا!

■ ■ ■ **خامسًا**: وأما الحيلولة دون قيام قوة عربية كبرى فى هذه المنطقة - فإن الصورة هنا مكشوفة إلى أبعد حد تعبيرًا عن طبيعة القوة الأمريكية وعلاقاتها.

ولولا رحلة مرهقة مضنية وجهد خارق قام به الرئيس أنور السادات فى العالم العربى كله مشرقه ومغربه، لكان الفصل بين القوات المتحاربة على جانبى قناة السويس كفيلاً وحده بتفجير الموقف العربى كله إلى شظايا متناثرة ليس هناك ما يربطها أو يقربها.

فى هذه البنود الخمسة رأينا أهداف الولايات المتحدة فى المنطقة وقسنا ودرسنا على تجربة ٦ أكتوبر وما تلاه لنشهد تجربة عملية فى التطبيق، لنتأكد بوساطتها من أن طبيعة القوة الأمريكية وبالتالى علاقاتها لم تتغير.

ما زالت كما هى..

تعترضها التحديات ولكنها تتقدم دون مبالاة، أو تكلف خاطرها فى بعض الأحيان عناء اللف والدوران واصلة فى النهاية إلى هدفها.

وإذن مـا الذى تغيـر مما يثـير هذا الصـخب الـعالى وسـحب الدخـان الكثـيف فى أجواء الشرق الأوسط؟!

لقد قلنا إن السياسة الخارجية لأى قوة دولية فيها عنصران فى نفس الوقت:

● عنصـر الاسـتمرار المسـتمد من الإسـتراتيجية العليا لـهذه القوة الدولية ومن طبيعة علاقاتها على هذا الأساس مع أطراف متعددين.

● ثم عنصـر طـارئ يرجع إلى ظروف مؤقتة أو يعود إلى أسباب متنوعة بينها اختلاف الشخصيات المشرفة على التوجيه وتباين أمزجتها.

ولقد اختـرنا العنصـر الأول وهو عنصـر الاسـتمـرار وأكدت التـجربة العملية بالتطبيق على ٦ أكتوبر وما تلاه ـ صحة واستمرار سريانه.

وإذن فهل يكون التغيير فى العنصـر الثانى أو العنصر الطارئ الذى يرجع ـ كما قلنا ـ إلى ظروف مؤقتة أو يعود إلى أسباب متنوعة؟!

ربما!

ولو أننا حاولنا البحث فى هذا الاتجاه لوجدنا سببين:

● **أولهما**: الظلال التى تسقط الآن على الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون.

● **وثانيهما**: البريق الذى يتوهج الآن من حول وزير الخارجية الأمريكية هنرى كيسنجر.

ونأخذ الظلال على نيكسون أولاً فنجد أن الرئيس الأمريكى الحـالى فى وضع بالغ السوء فهو متّهم بما لم يسبق لأى رئيس أمريكى أن اتهم به:

التحايل على العدالة ـ التهرب من القانون ـ استغلال النفوذ ماديًا ـ الكذب على الكونجـرس وعلى الرأى العـام الأمـريكى ـ تزييف الأدلة والتـلاعب فى الأشـرطة المسجلة لمحادثاته فى البيت الأبيض، وهى فيما يبدو تدينه إدانة كاملة.

ولقد سقط كل رجاله المقربين تحت ركام الفضيحة التى تفجرت فى ووترجيت

وتشير كل المعلومات والتقارير إلى أن عملية عزل الرئيس الأمريكى قد تبدأ فى أى وقت من الآن، ولسوف يقاوم قدر استطاعته، ولكنه إذا عجز عن المقاومة فسوف يقدم استقالته متطوعًا... وإذا أرادوا أن يضعوه فى قفص المجرم فإنه سوف يسبقهم ليعلق نفسه على صليب الشهيد!

ومقاومة الرئيس الأمريكية كلها تقوم على أساس سجله فى السياسة الخارجية... ألم يفتح باب الصين؟.. ألم يكتب صفحة الوفاق مع الاتحاد السوفيتى؟.. ألم يضع نهاية لتورط أمريكا المؤلم فى حرب فيتنام؟

وهو الآن على وشك أن يصل إلى السلام فى الشرق الأوسط... أفلا يتركونه يتم مهمته ويحقق ما لم يحققه غيره... سلام فى الشرق الأوسط... سلام على الأماكن المقدسة؟!

وننتقل إلى البريق الذى يتوهج من حول هنرى كيسنجر.

النجاح يعزز النجاح. هكذا يعتقد هنرى كيسنجر، بل ويضيف أحيانًا:

- لقد اكتشفت أن النجاح حافز للنجاح.. حافز للجنس أيضًا!!»

ولقد كانت الولايات المتحدة فى حاجة إلى نجم يظهر فى سمائها، فقد خبت كل النجوم من أيام كيندى وعصره اللامع.

عصر جونسون بعده كان تجربة مع السخف، وعصر نيكسون خيمت عليه التفاهة حتى حلت الفضيحة محل التفاهة.

وعندما بدأ دور كيسنجر، فلقد ارتفع إلى الآفاق الشاهقة بسرعة؛ لأن الحاجة كانت ماسة إلى نجم.

وكانت فى كيسنجر كل مواصفات النجوم:

كان مفكرًا - لديه شىء يريد أن يقوله.

واكتشف بالتجربة - أنه يستطيع أن يمارس.

وكانت ممارسته بأسلوب له طعم خاص. سواء أعجب هذا الطعم كل الناس، أو أعجب بعضهم فقط... لكنه فى كل الأحيان رجل له طابع.

والقوة الأمريكية هائلة لمن يريد الإمساك بمفاتيحها أو يقدر على ذلك.

والرئيس الأمريكى عاجز، مشلول بالفضيحة، وإذن فإن كل المفاتيح فى يد كيسنجر، أو هكذا يبدو.

ولقد نجح فى موسكو... ونجح فى الصين... ونجح فى فيتنام وحصل على «نصف» جائزة نوبل وحصل فوقها على «كل» أسطورة نجاح.

وقد تفجرت أزمة الشرق الأوسط أمامه على غير انتظار بعد أسابيع قليلة من توليه منصب وزير الخارجية.

وكان من قبل ـ حين كان مستشارًا للرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى ـ يتحرج أمامها ويحاذر الاقتراب منها لصعوبتها من ناحية ولحساسيته الخاصة كيهودى من ناحية أخرى ولكنها وقد تفجرت أمامه وشكلت أول تحد عملى لدوره الجديد كوزير للخارجية تقدم منها يريد أن يمارس فيها براعة وسحر النجوم.

وهو يريد أن ينجح... وهو يقيس نجاحه بالطبع بأهدافه هو وليس بأهداف غيره.

ولو أنه نجح إذن لدخل التاريخ تمامًا باعتباره معجزة فى ممارسة القوة فى مجال السياسة الخارجية، ولو أنه نجح لاستطاع ـ ربما ـ أن يخفف الضغط عن الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون الذى أعطاه الفرصة ليصعد إلى آفاق النجوم، ولو أنه نجح لحقق إنجازًا حقيقيًا لا يقل عن إنجازه فى بكين وموسكو وهانوى.

وهكذا نجد ما يلى:

السياسة الأمريكية مستمرة كما قلنا تعبيرًا عن الاستراتيجية العليا للولايات المتحدة وهنا فإنه ليس هناك جديد.

والجديد الذى نعثر عليه الآن هو ذلك العنصر الطارئ الذى يرجع إلى ظروف

مؤقتة أو يعود إلى أسباب متنوعة بينها اختلاف الشخصيات المشرفة على التوجيه وتباين أمزجتها:

● نحن هنا أمام رئيس أمريكى تلفه ظلال الشبهات والاتهامات ويتصور أنه لو وصل إلى شىء فى أزمة الشرق الأوسط لاستطاع تغطية فضيحته.

● ثم نحن هنا أمام وزير للخارجية الأمريكية يحيطه بريق النجاح بوهج النجوم وهو يريد تعزيز نجاحه لأسباب عديدة.

والسؤال الذى يتبقى لدينا هو:

- هل تكفى الظلال التى تلف نيكسون أو هل يكفى البريق الذى يتوهج من حول كيسنجر لإحداث تغيير كبير يلحق بالسياسة الأمريكية فى المنطقة؟

ولو جازفت بإبداء رأى لقلت:

- يصعب علىّ كثيرًا أن أرى كيف يستطيع نيكسون أن يفلت من فضيحة ووترجيت ومضاعفاتها وأغلب الظن أن هذه الفضيحة سوف تزيحه من البيت الأبيض فى شهور قليلة تتراوح ما بين ثلاثة إلى ستة شهور.

إن الأدلة القاطعة باشتراكه فى جرائم متعددة تقرب منه شخصيًا بشكل مخيف وحتى إذا حاول أن يقاوم فلست أتصور كيف يستطيع حزبه - الحزب الجمهورى - أن يتركه فى مقعده إلى الانتخابات القادمة سنة ١٩٧٦... معنى ذلك أن الحزب كله سوف يسقط».

هذا فى موضوع الظلال.

وأما فى موضوع البريق فلعلّى أقول:

- إنه يصعب علىّ جدًا أن أرى كيف يستطيع هنرى كيسنجر أن يتصرف فى الولايات المتحدة الأمريكية خارج مؤسسات السلطة الشرعية وأحيانًا فوقها... فهو الآن أكبر من الرئيس الأمريكى، وهو الآن خارج ولاية الكونجرس، وهو يمارس لعبة خطرة بين القوى الاقتصادية والعسكرية وغيرها من القوى المؤثرة والحاكمة فى أمريكا.

والنجوم فى أى مجتمع زهور متألقة بالألوان متضوعة بالعطر، ولكن الزهور عمرها قصير.

وإذا سقط نيكسون أو استقال فسوف يخلفه بالتأكيد جيرالد فورد نائب الرئيس الجديد فى الولايات المتحدة، وأكبر الظن أن جيرالد فورد لن يستطيع الاستغناء عن بريق ووهج كيسنجر.

ولكن جيرالد فورد سوف يكون رئيسًا مقيدًا إذا أكمل مدة ولاية نيكسون؛ لأن عينه سوف تكون على انتخابات سنة ١٩٧٦».

ومع ذلك فليكن فى الولايات المتحدة ما يكون... المهم ما عندنا.

وهنا يطالعنا سؤال:

- هل تستطيع هذه الأوضاع فى الولايات المتحدة أن تصنع تغييرًا كبيرًا فى سياستها.

أقول بأمانة: لا أظن أنها تستطيع!

لا تستطيع ذلك ظلال تحيط برجل، وهو يريد تبديد بعضها بأى عمل فى الشرق الأوسط.

ولا يستطيع ذلك بريق يتوهج من حول رجل يريد أن يعزز نجاحه وأن يرتفع درجات أعلى فى مصاف النجوم.

باختصار:

لا الظلال كافية... ولا البريق كاف

... ومع ذلك فما أظننا ننتظر الظلال أو البريق إذا كانت معنا روح ٦ أكتوبر... والإرادة التى صنعت قرارها العظيم؟

كيسنجر.. ومَعْنى النجَاح؟!

٤ يناير ١٩٧٤

مع بداية سنة جديدة، تلقيت كثيرًا من الخطابات والبطاقات من أصدقاء بغير عدد فى كل أرجاء الدنيا. ومما أفعله أحيانًا فى هذا «الموسم»، أننى أخلو إلى نفسى مع هذا الكوم من الخطابات والبطاقات... أروح أقلبها وأقرأ سطورها وما بين سطورها، ثم أعود إلى أيام لى مع أصحابها، وذكريات وحكايات وتجارب متنوعة مع الأفكار والناس والظروف!

□

ولفت نظرى هذه السنة خطاب من صديق له مكانه المرموق فى واشنطن. وربما كان ما لفت نظرى إن اسم «هنرى كيسنجر» تكرر فى الخطاب أكثر من مرة، لمحته وعيناى تجريان على السطور بسرعة. بداية الخطاب طبيعية... كلمات رقيقة وحلوة مما يتبادله الأصدقاء فى هذه المناسبات. ولكن اسم هنرى كيسنجر أكثر من مرة فى وسط الخطاب، كان يستوقف ويستلفت.

كانت العبارة التى ورد فيها اسم هنرى كيسنجر أكثر من مرة فى وسط الخطاب كما يلى:

. . . .

. . . .

«إننى أستطيع أن أعرف أمانيك للعام الجديد، وربما سمحت لنفسى أن أقول لك أن أزمة الشرق الأوسط سوف تجد حلاً سنة ١٩٧٤».

لو أنك سألتنى عن أسباب عقلانية لهذا الذى أقوله لك، لكان جوابى:

«ليست هناك أسباب يدعونى إليها العقل، ولكن لدى أسباب يدعونى إليها الشعور».

لا أعرف كيف أسميها؟.. إنك لست متحمسًا لأحاديث التفاؤل والتشاؤم، ولكننا فى أيام الأعياد تتملكنا نزعة شبه غيبية، تجمع بنا كثيرًا، وتشرد مع خيالات المنى ومع الأحلام.

ومع ذلك فليس ما عندى خيالاً وحلمًا... وإنما هو شىء آخر... سمه إحساسًا أو شعورًا.

لقد رأيت هنرى (كيسنجر) بالأمس، وكان عائدًا من جنيف، وكان فى حالة معنوية عالية... كان عطر النجاح يفوح فى الجو من حوله... وهذا مما جعلنى أطمئن.

لقد كنت ـ كما تتذكر من أحاديثنا الطويلة ـ أريده أن يأخذ أزمة الشرق الأوسط فى يده، وهو يتردد دائمًا، وكان يقول كثيرًا: «إننى لا أقترب من أزمة إلا إذا ضمنت على الأقل أن خمسين فى المائة من عناصر نجاحها فى يدى... إننى أستطيع أن أقامر وفى يدى خمسون فى المائة، ولكنى لا أستطيع أن أقامر مبتدئًا من الصفر».

كان «هنرى كيسنجر» يردد ذلك دائمًا، يقوله كثيرًا، والآن فإن أزمة الشرق الأوسط فى يده، واعتقادى أنه سوف ينجح فيها... أنه رجل أصابه «إدمان النجاح» وسرى فى كل عرقه وخلاياه!

هو رجل لا يريد لنفسه شفاء مما أصابه وهو كأى مدمن لا يعرف لنفسه شفاء إلا جرعة أخرى من الداء الدواء!»

□

لفتت نظرى هذه العبارة ـ كما قلت ـ فى وسط خطاب من صديق له مكانه المرموق في واشنطن، لفتت نظرى بما فيها ثم أنها استعادت إلى ذاكرتى مرات سابقة تكرر فيها ذلك المعنىَ على سمعى.

كان آخر من أعاده علىّ سياسى عربى بارز قال لى بالحرف تقريبًا:

ـ هل يعقل يا أخى أن يقامر الرجل بكل ما حققه فى العالم حتى الآن ويرضى لنفسه بأن يفشل فى حل أزمة الشرق الأوسط... لابد فى رأيى من أن ينجح، وهو لا يريد هذا النجاح من أجل خاطرنا ولكن يريده من أجل خاطر نفسه... من أجل تاريخه... من أجل غروره حتى إذا هبطنا بحوافز الحركة لدى الإنسان إلى هذه الدرجة.

ألا ترى ذلك؟»

خطر لى أن أعالج هذا الموضوع فى هذا الحديث اليوم!

* * *

ولعلى أقول بداية:

إننى أوافق على أن الدكتور هنرى كيسنجر قد أصابه «إدمان النجاح» ـ وبالفعل فإن الرجل تعرض لعدد من أهم قضايا العصر ونجح فيها، وأحاطه النجاح بهالة ملونة لا أظن أن غيره من وزراء الخارجية فى العالم لهم مثلها؟

إننى أوافق على أن الدكتور هنرى كيسنجر سوف يحاول إلى أقصى جهد أن ينجح فى إيجاد حل لأزمة الشرق الأوسط، أو على الأقل فى المساعدة على إيجاد حل لها.

إننى أوافق على أن الدكتور هنرى كيسنجر لن يسمح مهما كان الثمن لأسطورة النجاح التى أصبح بطلاً لها أن تضيع أو تشحب أو حتى تتعرض للضياع أو للشحوب.

ذلك كله أوافق عليه فى البداية، وربما أضفت.

- إن السياسة الأمريكية تضع هذا العنصر من عناصر التأثير النفسى فى الميزان وهى تحاول إقناع العرب بتقبل دور رئيس الولايات المتحدة فى محاولات حل أزمة الشرق الأوسط».

وربما رويت للتدليل على ذلك طرفًا مما جرى فى مقابلة شهيرة بين الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» وبين أربعة من وزراء الخارجية العرب وقد تمت هذه المقابلة فى البيت الأبيض الأمريكى فى واشنطن، يوم ٧ أكتوبر الماضى وكانت الحرب فى الشرق الأوسط دائرة رحاها، وكانت الحرب ومضاعفاتها هى موضوع هذه المقابلة، وكانت أبرز هذه المضاعفات وقتها هو أن الولايات المتحدة بدأت جسرًا جويًا وبحريًا من المعونات العسكرية لإسرائيل كما أن الرئيس الأمريكى أعلن عن اعتمادات طارئة رصدها لهذه المعونات قيمتها ألفان وثلاثمائة مليون دولار!

□

كان وزراء الخارجية العرب - وكلهم فى نيويورك لمناقشات مجلس الأمن حول الحرب والأزمة - قد التقوا جميعًا، والجو متوتر والأحداث آخذة بنواصى بعضها متلاحقة متدافعة، ثم قرروا أن الموقف يحتاج إلى مواجهة مباشرة مع القمة الأمريكية.

واتفقوا على أن يبعثوا وفدًا يمثلهم فى نيويورك إلى واشنطن واختاروا لهذا الوفد أربعة منهم: وزير خارجية المملكة العربية السعودية السيد عمر السقاف - ووزير خارجية الجزائر السيد عبد العزيز بوتفليقة - ووزير خارجية الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح - ووزير خارجية المغرب السيد أحمد الطيب بن هيما».

وأتذكر أن السيد محمد المصمودى وزير خارجية تونس وكان بين وزراء الخارجية الذين حضروا جلسة اختيار أعضاء الوفد العربى الذاهب إلى واشنطن - قال لى:

- لقد اخترنا هؤلاء الأربعة ... ربما بالغريزة.

لم يكن هناك اقتراع بالطبع ولا جرت انتخابات.

ولكن الأمر كان اختيارًا يبدو عفويًا لأول وهلة، ولكننا عندما نتأمله أكثر ندرك أنه لم يكن عفويًا إلى هذا الحد.

لقد كان بينهم المعتدلون والمتشددون - وفق التصورات الأمريكية - وكان هناك من تربطه بالولايات المتحدة صداقات تقليدية أو عداوات حادة - وفق التصورات الأمريكية أيضًا - وربما أردنا - دون أن يكون ذلك معتمدًا بطريقة فجة - أن يكون بينهم من تفوح حوله رائحة البترول لكى يشمها الرئيس نيكسون!»

□

المهم... ذهب الوزراء العرب الأربعة إلى واشنطن، وحدد لهم الرئيس ريتشارد نيكسون موعدًا فى البيت الأبيض، وطلبوا أن يجيئوا معهم بمترجم لأن بينهم اثنين من اتجاه ثقافى فرنسى - بوتفليقه وبن هيما - وقيل لهم من البيت الأبيض أنه لا داعى لمترجم يجيء معهم، وأنهم عندما يجيئون سوف يجدون مترجمًا أمريكيًا مستعدًا، وعندما ذهبوا إلى موعدهم لم يجدوا مترجمًا.. وإنما وجدوا الرئيس ريتشارد نيكسون ومعه رجل واحد هو: هنرى كيسنجر وزير خارجيته.

وكما كان الاتفاق مسبقًا بين وزراء الخارجية فقد كان الذى تولى الحديث هو السيد عمر السقاف وزير خارجية المملكة العربية السعودية.

وعرض الوزير السعودى وجهة النظر العربية بسرعة وهدوء وبدأ الرئيس نيكسون يرد...

كان بين ما قاله الرئيس نيكسون:

- إن الولايات المتحدة على استعداد لبذل نفوذها من أجل حل للأزمة بعد أن يتم وقف إطلاق النار».

- ثم قال:

- إن الولايات المتحدة تساعد إسرائيل علنًا وبدون أى محاولة للتستر لأنها ملتزمة بضمان أمن إسرائيل»

ثم قال:

- إن أمريكا هذه المرة سوف تتخذ موقفًا مختلفًا عن موقفها سنة ١٩٦٧ ذلك «لأنكم سنة ١٩٦٧ أثرتم الدنيا ضدنا وقطعتم علاقاتكم معنا وأما هذه المرة فإنكم جئتم إلينا وطلبتم منا أن نمارس نفوذها فى حل الأزمة»

ثم قال وهذا هو الأهم فى موضوع هذا الحديث.

- لقد كلفت الدكتور كيسنجر بأن يقوم بدور رئيسى باسم الولايات المتحدة فى حل هذه الأزمة الخطيرة التى وصلت إلى درجة الحرب... وهى حرب قاتلتم فيها بشرف واستطعتم فيها تغيير موقفكم... ومن ثم فإنكم تقبلون على مواجهة الحل بغير مركبات نقص مما كان يصنعه عجزكم أمام إسرائيل بعد هزيمة سنة ١٩٦٧»

ثم التفت إلى هنرى كيسنجر وأشار إليه كأنه يقدمه للوزراء الأربعة العرب، واستطرد يقول:

- هذا هو أمامكم.. هنرى كيسنجر.

قد يقول بعض الناس إنه يهودى ولكنى أقول إن ولاءه للولايات المتحدة الأمريكية، ثم إنه ينفذ سياستى.

لقد استطاع من قبل أن يحل مشاكلنا مع الاتحاد السوفيتى، واستطاع أن يحل مشاكلنا مع الصين، واستطاع أن يحل مشكلة فيتنام.

وقد نجح فى هذا كله، هو حريص على رصيده من النجاح

إنه حصل على نصف جائزة نوبل للسلام، وهو لا يريد أن يفقد استحقاقه لهذه الجائزة.

وأريدكم أن تتعاملوا معه»

واستمر الحديث بعد ذلك وبعض ما فيه خارج عن موضوعى اليوم، وعاد الوزراء العرب إلى نيويورك لجلسة عقدوها مع بقية زملائهم من وزراء الخارجية

العرب، وراحوا يحاولون تقييم ما سمعوه وكان تقديرهم فى النهاية وفق تقرير كتبه السيد محمود رياض الأمين العام لجامعة الدول العربية وكان يتولى تنسيق الجهود العربية فى نيويورك ـ كما يلى:

إن الموقف الأمريكي مثقل بالالتزامات تجاه إسرائيل.

إن الولايات المتحدة وعدت بجهد نشيط فى حل الأزمة يتولاه الدكتور هنرى كيسنجر.

إن النصيحة التى يقدمونها لدولهم هى: التمس بوحدة العمل العربى ومواصلة النضال بكل الوسائل، والضغط إلى أقصى حد ممكن بالسلاح وبالبترول وبالنفوذ السياسى حتى يمكن إحداث تأثير أكبر وأعمق على الموقف الأمريكى»

كان ذلك يوم ١٨ أكتوبر، وفى اليوم الثانى ـ ١٩ أكتوبر ـ طار الدكتور هنرى كيسنجر إلى موسكو لمحادثات مع ليونيد بريجنيف، وبدت حركة القوتين الأعظم على القمة الدولية ظاهرة ومؤثرة، ومساء ٢٠ أكتوبر دعى مجلس الأمن فجأة إلى الاجتماع وجيء بأعضائه جميعًا من حيث كانوا فى عطلة نهاية الأسبوع، وصدر قرار وقف إطلاق النار فى الساعة الأولى من يوم ٢١ أكتوبر لكى يكون نافذ المفعول فى الساعة السادسة مساء اليوم التالى ٢٢ أكتوبر.

ومن لحظتها بدأ دور الدكتور هنرى كيسنجر فى المقدمة من محاولات حل الأزمة.

رجل وراءه «رصيد ضخم من النجاح»...

رجل «مصمم على النجاح» يريد أن يحتفظ بحقه فى نصف جائزة نوبل للسلام.

هناك نقطة أساسية فى هذه القضية، قضية «النجاح» ولابد أن نتوقف عندها وبتركيز شديد لأنها نقطة العصب أو القلب أو الصميم فى المسألة كلها.

هذه النقطة هى «تعريف النجاح»

«ماهو معنى أن ينجح أحد ـ هنرى كيسنجر وغيره ـ أو لا ينجح فى مهمة حمل نفسه بها أو حمله لها آخرون؟

إن النجاح ليس معنى مطلقًا وإنما النجاح لابد أن يكون قيمة منسوبة بالقياس إلى معيار معين.

□

إن الهدف المحدد لشخص ما، هو المعيار الوحيد الذى يمكن أن نقيس عليه نجاح أو عدم نجاح أى جهد يقوم هو به.

أليس كذلك؟

... على أساس الهدف المحدد لأى شخص فإننا نستطيع أن نقيس جهده، وهل نجح فيه أو لم ينجح؟

إن النجاح يختلف من شخص لآخر مع اختلاف الهدف بين الاثنين، بل إننا نكاد نصل إلى تعارض تام فى قياس النجاح مع اختلاف الأهداف بالنسبة لموضوع واحد.

بمعنى أن ما يعتبر نجاحًا ـ فى موضوع معين ـ بالنسبة لأنور السادات مثلاً، يعتبر فشلاً بالنسبة لجولدا مائير.

ما يعتبر نجاحًا بالنسبة لليونيد بريجنيف مثلاً، يعتبر فشلاً بالنسبة لماوتسى تونج.

أى أن نتيجة واحدة محددة قد تعنى شيئًا، وقد تعنى هى نفسها نقيض الشىء ـ بالنسبة لطرفين تختلف أهدافهما.

وإذا طبقنا ذلك عمليًا على هنرى كيسنجر، وهذا هو موضوع حديث اليوم فإننا لابد أن نقول:

صحيح...

نحن أمام رجل أصابه «إدمان النجاح».

نحن أمام رجل لديه «رصيد ضخم من النجاح».

نحن أمام رجل «مصمم على النجاح» يريد أن يحتفظ بحقه فى نصف جائزة نوبل للسلام.

صحيح

ولكنا يجب أن نسأل أنفسنا ـ ما هو النجاح بالنسبة لهنرى كيسنجر فى أزمة الشرق الأوسط؟»

وإذن فإن هذا السؤال لابد أن يقودنا إلى سؤال بعده:

ـ ما هى أهداف هنرى كيسنجر فى أزمة الشرق الأوسط؟

إن الرجل بالطبع يريد أن ينجح فى هدفه وهذا هو المعيار الوحيد ـ كما اتفقنا ـ لقياس النجاح أو عدم النجاح.

الهدف هو المعيار.

الهدف الذى يريده أى إنسان هو مأمونه للنجاح، وإلا فنحن نخلط فى قوانين اللعبة السياسية وهى قوانين تربط النتيجة بالهدف.

* * *

لعلّى أضيف، ولكى لا يكون هناك مجال للخطأ فى فهم ما أقول إننى واحد من المعجبين بمواهب هنرى كيسنجر... أعجبت به بصفة عامة ومن نتيجة متابعة دقيقة لفكره السياسى وتجربته العملية على أساسه، ثم أعجبت به بصفة خاصة من نتيجة لقاء بيننا دام حوالى ثلاث ساعات أثناء زيارته الأولى للقاهرة فى شهر نوفمبر الماضى.

ولكنى عادة أحب أن أفرق وأفصل بين الإعجاب العام أو الشخصى، وبين المصلحة الوطنية والقومية.

وعلى سبيل المثال: فلقد كنت معجبًا بدافيد بن جوريون كرجل له إرادة استطاعت

تحويل الأسطورة والموعد إلى حقيقة وواقع، حتى إذا كانت الحقيقة مؤقتة والواقع محكومًا عليه بالتاريخ.

ومع ذلك فإن جيلى ـ وكنت قطرة فى البحر ـ قضى عمره كله فى صراع عنيف ودام مع دافيد بن جوريون.

□

أردت أن أقول وبغير تحرج إننى واحد من المعجبين بهنرى كيسنجر ولكن هذه ليست القضية.

لعلّى أقول ما هو أكثر من ذلك: ـ إننى أخشى أن ينجح هنرى كيسنجر فى حل أزمة الشرق الأوسط.

ومبعث خشيتى هو أن نجاحه سوف يكون ـ وهذا هو المعيار الوحيد ـ وفق قانونه هو وليس وفق أى قانون آخر.

أى أنه قد ينجح ولكن السؤال الحيوى هو:

ـ ماذا يعنى نجاحه؟

ما قد يكون نجاحًا وفق قانونه هو، قد لا يكون نجاحًا وفق قانون غيره.

وهذا هو اختلاف الأهداف... والهدف كما اتفقنا هو المقياس الذى نستطيع أن ننسب إليه.

وهكذا نجد أنفسنا أمام السؤال النهائى:

ـ ما هى أهداف هنرى كيسنجر فى أزمة الشرق الأوسط وفى محاولته الآن لحلها؟»

قد أكون مخطئًا وقد أكون مصيبًا، ولكن كل إنسان يصف ما يراه بحدود بصره وحدود بصيرته فهذا هو الأفق لأى واحد منا.

وهكذا فإن حدود ما أراه فيما يتعلق بأهداف هنرى كيسنجر فى أزمة الشرق الأوسط وفى حلها هو كما يلى:

١ ـ الهدف الأول لهنرى كيسنجر ـ وللسياسة الأمريكية عمومًا ـ فى منطقة الشرق الأوسط هو حماية وضمان أمن إسرائيل.

ولم يفصح هنرى كيسنجر فى أحاديثه العامة ولا فى حديثه الخاص معى عن تصوره للحدود التى يتعهد فيها ـ وتتعهد أمريكا معه ـ بحماية وضمان أمن إسرائيل.

وإذا جاز لى أن أجازف برأى فإنى أقول:

هو لا يوافق على توسع إسرائيلى إلى خط ٥ أكتوبر ١٩٧٣.

ولكنه لا يوافق على عودة إسرائيل إلى خط ٤ يونيه ١٩٦٧... فى نقطة ما بين هذين الخطين يجد كيسنجر ـ ونجد أمريكا ـ تعهدها بحماية وضمان أمن إسرائيل.

أين هذه النقطة بالضبط على الخريطة فيما يتعلق بمصر وفيما يتعلق بفلسطين وفيما يتعلق بسوريا؟ ـ لا أعرف، ولا أظن أن غيرى يعرف... بل أكاد أقول أنه هو ـ هنرى كيسنجر نفسه ـ حتى الآن لم يقرر!

٢ ـ الهدف الثانى لهنرى كيسنجر ـ وللسياسة الأمريكية عمومًا ـ فى منطقة الشرق الأوسط هو استمرار تدفق البترول العربى بدون انقطاع وبأسعار مقبولة.

والبترول العربى كمصدر للطاقة ليس مسألة حياة أو موت للولايات المتحدة فى هذه الفترة، ولكنه مصدر للقوة الإستراتيجية وللقوة الاقتصادية.

لعلّى أكرر القول ـ مرة أخرى ـ إن الطريقة التى استعملنا بها سلاح البترول حتى الآن لم تلحق ضررًا كبيرًا بالولايات المتحدة، ولعلّى أتجاوز وأقول إنها حتى الآن مستفيدة من هذه الطريقة، فلعبة الأسعار تناسبها وهى الشريك الأعظم فى كل موارد البترول العربى وارتفاع أسعاره مكسبٌ لها، ثم إن هذا الارتفاع أداة لها فى إخضاع أوروبا الغربية واليابان لسيطرة السياسة الأمريكية بغير تجاوز تحس به أمريكا من

أوروبا الغربية - وفرنسا بالذات - وبغير منافسة قاتلة تستشعرها أمريكا من قوة النمو الياباني المعجزة أو الذى كان معجزة.. أى أن لعبة الأسعار فى النهاية تقوى الدولار الأمريكى وتضعف أمامه الين اليابانى كما تضعف أمامه بقية العملات الأوروبية!

٣ - الهدف الثالث لهنرى كيسنجر - وللسياسة الأمريكية عمومًا - فى منطقة الشرق الأوسط هو المحافظة على سريان الوفاق فى هذه المنطقة الحساسة، ذلك لأن المنطقة بكل ما فيها وبكل ما تمثله، واحدة من المناطق التى يمكن أن تتحول فيها المنافسة فى ظل الوفاق إلى احتكاك ساخن بين القوتين الأعظم يفتح أبواب الخطر على مصراعيها.

ونلاحظ أن هنرى كيسنجر بدأ محاولته النشيطة فى الشرق الأوسط بعد اجتماع مع ليونيد بريجنيف.

ونلاحظ أن هنرى كيسنجر لم يذهب إلى بلد خلال اهتمامه بأزمة الشرق الأوسط إلا وكان السفير السوفيتى فى هذا البلد على موعد معه.

ونلاحظ أن رسائل هنرى كيسنجر إلى زميله فى موسكو أندريه جروميكو تكاد تكون يومية.

٤ - الهدف الرابع لهنرى كيسنجر - وللسياسة الأمريكية عمومًا - فى منطقة الشرق الأسط هو إعادة تثبيت النفوذ الأمريكى فيها كاملاً، ومنفردًا.

إن مفهوم الوفاق هو تجنب الصدام بين القوتين الأعظم.

ولكن تجنب الصدام - أى الوفاق - لا يعنى توافق المصالح بين القوتين الأعظم، ذلك لأن المنافسة بينهما عقائديًا وسياسيًا وثقافيًا سوف تظل مستمرة.

ومؤدى ذلك أن كيسنجر لا يعتبر نفسه على طريق صدام مع الاتحاد السوفيتى فى المنطقة وهو لا يريد ذلك، وإنما هو يعتبر نفسه طرفًا فى منافسة فى المنطقة مع الاتحاد السوفيتى وهو يريد ذلك.

ومطالبه من هذه المنافسة يمكن تحديدها منطقيًا وعمليًا كما يلى:

إخراج السلاح السوفيتي - باعتباره الرمز الأكبر والأفعل لوجود الاتحاد السوفيتي في المنطقة - وأبعاده عنها.

تقليص النفوذ السياسي السوفيتي بكل الوسائل.

إن يحدث ذلك - إذا حدث - بواسطة القوى المحلية في المنطقة نفسها وبدون تدخل أو ضغط مباشر من الولايات المتحدة - وذلك لكي لا يؤدي ذلك إلى احتمال احتكاك مباشر بين القوتين.

والهدف الخامس لهنري كيسنجر - والسياسة الأمريكية عمومًا - في منطقة الشرق الأوسط هي محاولة كسب صداقة النظم الحاكمة فيها، ثم الشعوب التي تعيش على أرضها إذا أمكن:

وبالنسبة للنظم الحاكمة فإن الأولوية الأولى بالطبع موجهة إلى الصداقات التقليدية وخصوصًا حيث يكون البترول... ولا بأس بعد ذلك من نظم أخرى قد لا تكون صداقتها مع الولايات المتحدة تقليدية، وقد لا يكون باطن الأرض فيها معبأ بمخزون البترول.

وبالنسبة للشعوب فإن الأفضلية بغير جدال هي للتعامل معها فرادى... كيانات منفصلة، بدلاً من التعامل معها كتلة واحدة... مرتبطة بإستراتيجية موحدة... ولا بأس هنا أيضًا من تركيز إضافي على دول لها مكانتها في المنطقة ولها وزنها شريطة أن تكون مستعدة للتجاوب!

هذه حدود ما أراه!

ولا أريد أن أكون ظالمًا للدكتور هنري كيسنجر... ولكني لا أريد أن نظلم أنفسنا.

ثم إننا أيضًا لسنا أصحاب حق في أن نظلم نجاحه.

نجاحه وفق قانونه هو وليس وفق قانوننا نحن.

النتيجة في النجاح أو عدم النجاح لا تقاس - كما قلت - إلا على الهدف.

كان هدف هنري كيسنجر في الوفاق هو وضع أساس يضمن تجنب الصدام بين القوتين الأعظم بعد تعادل قوة القتل الرهيبة بينهما - وقد نجح في وضع هذا الأساس.

وكان هدف هنرى كيسنجر فى الصين هو فتح أبواب بكين لعلاقات طبيعية مع الولايات المتحدة بعد أن أصبح مستحيلاً إنكار وجود ونمو وتعاظم قوة الصين الشعبية ـ وقد نجح فى فتح هذا الباب.

وكان هدف هنرى كيسنجر فى فيتنام هو سحب القوات الأمريكية منها بدون هزيمة وكسب فترة من الوقت بعد الانسحاب لا ينهار خلالها النظام فى فيتنام الجنوبية.

ـ وقد نجح فى سحب القوات الأمريكية، ثم إن النظام الحاكم فى سايجون لا زال حتى هذه الساعة على قيد الحياة.

□

ولقد شرحت هدفه كما أراه فى أزمة الشرق الأوسط.

لعلّى أقول:

ـ إننى لا أريد لهنرى كيسنجر أن ينجح فى الشرق الأوسط وفق قانونه»

لعلّى أقول أيضًا.

ـ إننى أريد لهنرى كيسنجر أن ينجح فى الشرق الأوسط وفق قانون آخر يتعين علينا أن نفرضه، وقد فعلنا شيئًا من ذلك يوم ٦ أكتوبر، ولكن القانون لا يفرضه يوم واحد.. وإنما يفرضه أن يتأكد مفعوله كل يوم... وليس ضروريًا أن يتأكد القانون بالسلاح وحده وإن كان علينا أن نتذكر أن السند النهائى لأى قانون هو قوة الإجبار الظاهرة ـ أو الكامنة ـ وراءه.

حتى داخل المجتمع الواحد فإن السلطة فى النهاية سند القانون وفى مجتمع الدول تحل القوة محل السلطة ـ سندًا نهائيًا للقانون.

أليس كذلك؟!»

ماذا يريد «ديَّان» ؟

١١ يناير ١٩٧٤

ربما كان علينا اليوم، وأكثر من أى وقت مضى، أن ندقق فى كل صياغة تقدم إلينا من خلال محاولات الوصول إلى تسوية لأزمة - أو لحرب - الشرق الأوسط...

وربما كان الأهم من التدقيق فى الصياغات، هو التدقيق فى النوايا الكامنة وراء هذه الصياغات، بصرف النظر عما تقول به الكلمات، ذلك أن بعض الكلمات قد تكون وردية وحلوة، ولكن الدم فى خدود الورد أحيانا، كما أن السم فى العسل كما يقولون!

ولست من أنصار الرفض المطلق والأعمى لكل اقتراح يقدم إلينا، ولعلى من الذين يوافقون على قول الرئيس الجزائرى هوارى بومدين الذى ذكر لأحد زواره هذا الأسبوع، وهو «كريستوفر مايهيو» العضو العمالى البارز فى مجلس العموم البريطانى ووزير الحربية السابق فى بريطانيا:

- إن الدنيا قد سمعت منا كثيرا كلمة «لا» وربما جاء الوقت لكى تسمع الدنيا منا كلمة «نعم»، شريطة أن نقولها فى موضعها المناسب مكانا وزمانا».

□

ومن أهم الصياغات المطروحة علينا الآن، لمسألة من أخطر المسائل التى تواجهنا الآن، صيغة تم التوصل إليها فى واشنطن بين «الجنرال موشى ديان» وزير الدفاع الإسرائيلى و«الدكتور هنرى كيسنجر» وزير الخارجية الأمريكية، وهى تنصب على

مسألة الفصل بين القوات المتحاربة على الجبهة المصرية الإسرائيلية، تطبيقا للبند الثانى من البنود الستة المشهورة التى قدمها كيسنجر لضبط وتثبيت وقف إطلاق النار فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٧٣.

ولقد ذهب الجنرال ديان غداة إعلان نتيجة الإنتخابات العامة فى إسرائيل إلى واشنطن يحمل فى حقيبته، كما قال هو بالحرف: «مجموعة من الخيارات لتنفيذ الفصل بين القوات المتحاربة»، ثم عرض بضاعته صنفا ـ صنفا ـ صياغة بعد صياغة ـ على الدكتور هنرى كيسنجر ثم استقر الرأى بينهما ـ أو هكذا يقال ـ على واحدة اعتبرها الدكتور كيسنجر قابلة للعرض على مصر، ولا أعرف إذا كانت هذه الصيغة قد وصلت إلى القاهرة أم أنها لم تصل بعد؟

* * *

وإذا أردنا أن ندقق فى صياغة من الصياغات، نزن كلماتها ونفحص نواياها ـ فإن علينا أن نفعل ذلك مسترشدين بمنهج فى التحليل أمين يسائل نفسه بوضوح، ويرد على نفسه بصدق، لكى يصل إلى نتيجة يستطيع عندها مطمئنا أن يقول: الـ«لا» أو يقول الـ«نعم»، أو يضيف هنا ويحذف هناك، عارفا طول الوقت بما يريد، راسما طريقا إلى ما يريد!

وإذن فلنا أن نتساءل إزاء أى صياغة تعرض علينا بما يلى:

١ ـ ماهو مصدر هذه الصياغة؟

٢ ـ ما هو مطلبه القريب؟

٣ ـ كيف كانت تصرفاته قبل الوصول إلى هذه الصياغة؟

٤ ـ ما هى أهدافه وراء ذلك؟

٥ ـ ما الذى يريد الوصول إليه فى النهاية؟

□

وضمن هذه التساؤلات الخمسة - فإن هناك اثنين منها لا يحتاجان إلى عناء كبير، ذلك أن الإجابة عنهما توحى فى نفسها بنفسها وبدون حاجة إلى مصادر إضافية للإلهام.

● وحينما نتساءل مثلا:

- ما هو مصدر هذه الصياغة الجديدة لمسألة الفصل بين القوات على الجبهة المصرية الإسرائيلية ؟».

فإن الجواب يكون:

- مصدرها هو الجنرال موشى ديان.

عندما نقول: «موشى ديان» فإننا نعرف على الفور أننا نتكلم عن المؤسسة العسكرية فى إسرائيل».

● وحينما نتساءل مثلا:

- ما هو المطلب القريب للجنرال موشى ديان وللمؤسسة العسكرية الإسرائيلية ؟».

- فإن الجواب يكون:

- أن يكون ٦ أكتوبر كان لهؤلاء جميعا - ديان وكل جنرالات المؤسسة العسكرية الإسرائيلية - صدمة مزعجة هزت بعنف نظرياتهم فى الأمن الإسرائيلى كما هزت بعنف مكانة خاصة لهم فى الدولة الإسرائيلية.

ومن الطبيعى إذن أن يكون مطلبهم الأول فى هذه المرحلة:

إما ضرب ما حدث يوم ٦ أكتوبر... بالقوة إذا تمكنوا...

وإما تضييع قيمة ما حدث يوم ٦ أكتوبر... بالخديعة إذا واتتهم الفرصة!

وهكذا نفرغ من التساؤل رقم [١] والتساؤل رقم [٢] - وكانت الإجابة عنهما توحى نفسها بنفسها وبدون حاجة إلى مصادر إضافية للإلهام!

* * *

نجيء إلى التساؤل رقم [٣] وهو الذى يقول:

- كيف كانت تصرفات مصدر هذه الصياغة الجديدة - قبل الوصول إليها؟

ونجد أنفسنا أمام وقائع معقدة ومتشابكة وعلينا أن نحاول تبسيطها قدر مانستطيع، وربما نكتفى بالسياق التالى:

■ لقد توقف القتال على الجبهة المصرية وأوضاع القوات على الجانبين غريبة: جيشان لمصر عبرا بالقوة إلى الشرق من قناة السويس: الجيش الثانى فى القطاع الشمالى والجيش الثالث فى القطاع الجنوبى، مع احتفاظ كل جيش منهما بمؤخرة له فى الغرب من قناة السويس.

القوة الرئيسية للجيش الإسرائيلى: تواجه الجيشين المصريين، الثانى والثالث مرتكزة على مضايق سيناء الحاكمة، ولكن هناك قوة عمل إسرائيلية من سبعة ألوية مدرعة وميكانيكية تمكنت من فتح ثغرة فى منطقة الدفرسوار وتدفقت منها إلى غرب قناة السويس تحاول العمل فى مؤخرة الجيش المصرى الثالث.

أى أن القوات كانت متشابكة ومتداخلة وأوضاعها على الناحيتين دقيقة، خصوصا بالنسبة لقوات الثغرة الإسرائيلية ولقوات الجيش المصرى الثالث فى الشرق.

■ ولقد توقف القتال دون أن يكون هناك جهاز وقف إطلاق النار، ويمسك بالمواقع التى كان عليها الطرفان لحظة سريانه فى الساعة السادسة بعد ظهر يوم ٢٢ أكتوبر، والنتيجة أن إسرائيل - كالعادة! - استغلت الفرصة وزحفت فى حماية قرار إطلاق النار ودفع الجنرال شارون قائد قوات الثغرة الإسرائيلية بمفارز من دباباته وصلت جنوبا إلى ميناء الأدبية متجاوزة المقاومة العنيدة لمدينة السويس ثم وصلت بعض هذه المفارز إلى طريق القاهرة السويس وتمركزت عند نقطة الكيلو ١٠١ - وكان هدفها الواضح من ذلك هو عزل مدينة السويس نفسها وعزل الجيش المصرى الثالث فى الشرق.

■ ولقد جاء الدكتور هنرى كيسنجر فى زيارته الأولى للقاهرة وكان الموضوع

الأول في زيارته هو تثبيت وقف إطلاق النار، كانت مقترحاته لذلك هي البنود الستة المشهورة، وكان أهم ما فيها بالنسبة لمصر هو البند الثاني الذي يتحدث عن فصل القوات المتحاربة بالعودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر.

وفي حين أن مصر نفذت من البنود الستة ما يخصها، فإن إسرائيل لم تنفذ بندًا وحيدًا كان يخصها وهو العودة إلي خطوط ٢٢ أكتوبر.

واقترح كيسنجر محادثات بين العسكريين من الطرفين تحت علم الأمم المتحدة لتحديد خطوط يوم ٢٢ أكتوبر وبدأت محادثات الكيلو ١٠١.

■ ولقد كانت محادثات الكيلو ١٠١ ـ كما قلت من قبل ـ تجربة في الفراغ، ذلك لأن إسرائيل استحكمت وراء عناد غير مقبول مدعية أنها لا تعرف ـ ولا أحد غيرها يعرف ـ أين هي مواقع ٢٢ أكتوبر؟

وفي الحقيقة فإن مواقع ٢٢ أكتوبر لم تكن لغزا ولا كان فيها سر.

لم تكن لغزا: لأن القوات الإسرائيلية لم تكن يوم ٢٢ أكتوبر قد اقتربت من مدينة السويس ولفت حولها ولا اندفعت إلى الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة السويس.

ولم تكن سرا لأن الدولتين الأعظم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كانتا لديهما على وجه التأكيد صور بالأقمار الصناعية التي كانت تمسح جبهة القتال مسحا كل ساعة، وهذه الصور تبين على وجه الدقة وبما لا يقبل مجالا للشك: أين هي بالضبط مواقع ٢٢ أكتوبر.

■ قد كان هناك من يرون أن إسرائيل لن تقبل بالعودة إلى مواقع ٢٢ أكتوبر حتى لو وضعوا أمامها على المائدة صور الأقمار الصناعية تقطع وتحسم، لأن معنى قبولها بالعودة إلى هذه المواقع أنها تتخلى عن ثلثي الأراضي التي تحتلها في الغرب وهذا بدوره يعني أن قواتها في الثغرة هي المحاصرة وليس الجيش المصري الثالث هو المحاصر، وقد قال الجنرال ديان شيئا في هذا المعنى بالفعل للجنرال سيلاسفو قائد قوات الأمم المتحدة.

ويلفت النظر وهذه نقطة من أهم النقط فى الموضوع كله أن الجنرال ديان كان هو بنفسه الذى اقترح فصلا أوسع بين القوات وكان اقتراحه

ـ لماذا نتوقف ونضيع وقتا كثيرًا فى تحديد مواقع يوم ٢٢ أكتوبر... إننا على استعداد لسحب قوات الثغرة كلها من الغرب إذا كانت مصر على استعداد لخطوة مقابلة».

وكانت «الخطوة المقابلة» التى اقترحها ديان فى البداية هى أن تقوم مصر بسحب قواتها من شرق القناة كأنّ شيئا لم يحدث يوم ٦ أكتوبر!!

■ ولقد تعثرت محادثات الكيلو ١٠١ رغم أن الجنرال ديان عدل بعد ذلك بعض مقترحاته بالنسبة «للمقابل» الذى يتعين على مصر أن تقدمه كثمن لانسحاب قوات الثغرة الإسرائيلية فى الغرب، فاقترح أن تحل قوات الأمم المتحدة محل قوات الجيشين المصريين الثانى والثالث فى شرق القناة، ثم عاد وقدم مقترحات أخرى كان الرفض هو الجواب المصرى عليها عند الكيلو ١٠١ ـ ثم جاء اقتراح نقل موضوع الفصل ما بين القوات المتحاربة بأكمله إلى مؤتمر جنيف، وقيل إن ذلك كان بإشارة من الدكتور كيسنجر الذى رأى أن هذه المسألة يمكن حلها بسهولة فى جنيف، ومن ثم فإنها تكون بداية مشجعة للمؤتمر تقنع الناس هنا وهناك وفى كل مكان بأن تقدمًا محسوسا قد جرى إحرازه فى جنيف.

■ لقد كانت المرحلة الأولى من مؤتمر جنيف محكوما عليها من اللحظة الأولى ذلك أن الانتخابات الإسرائيلية كانت على الأبواب وكانت حجة الوفد الإسرائيلى برئاسة أبا إيبان وزير الخارجية أنه لا يستطيع أن يرتبط بشىء لأن حكومته لا تعرف إذا كان يوم أول يناير سيجىء ليجدها فى الحكم أو فى المعارضة.

وأصرت مصر على استمرار المحادثات العسكرية فى جنيف للفصل بين القوات المتحاربة حتى إذا كانت المناقشات السياسية الأوسع سوف تتوقف فى انتظار نتيجة الانتخابات الإسرائيلية وتظاهر الجانب الإسرائيلى بأن ذلك سوف يكون محرجا له، ثم تظاهر بالقبول!

واستمرت الاجتماعات فى جنيف ولكننا نستطيع القول إن المحادثات العسكرية فى جنيف كانت كالمحادثات العسكرية التى سبقتها عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة السويس ـ تجربة أخرى فى الفراغ. ذلك أن الوفد الإسرائيلى برئاسة الجنرال جور اتبع فى جنيف نفس أساليب الوفد الإسرائيلى برئاسة الجنرال ياريف عند الكيلو ١٠١ وأضاع الجلسات كلها طبقا لما تقول به مصادر الأمم المتحدة فى قضايا فرعية: كالمطالبة بالبحث عن جثث ضائعة لبعض القتلى الإسرائيليين والمطالبة بالإفراج عن جاسوس إسرائيلى وإلا فإن طريق الإمداد بالمؤن لمدينة السويس وللجيش المصرى الثالث فى الشرق سوف ينقطع... إلى آخره!

■ ولقد توقفت ـ فى الواقع ـ محادثات جنيف وإن بقيت مستمرة فى الشكل ـ تعطى العالم كله انطباعا خاطئا بأن شيئا ما يجرى فى المقر الأوربى للأمم المتحدة.

ولكن الحركة الفعلية بدأت فى ذلك الوقت فى واشنطن حين طار إليها الجنرال ديان لاجتماعات مع الدكتور هنرى كيسنجر لبحث موضوع الفصل بين القوات، ولاجتماعات مع شليزنجر وزير الدفاع الأمريكى للبحث فى شحنات الأسلحة الأمريكية الجديدة لإسرائيل.

وفى واشنطن قدم الجنرال ديان إلى الدكتور كيسنجر ما حمله فى حقائبه من خيارات مختلفة لتنفيذ الفصل ما بين القوات المتحابة على الجبهة المصرية الإسرائيلية، واستقر كيسنجر ـ بعد مناقشات مع ديان ـ على صيغة منها وجدها صالحة للعرض على مصر!

* * *

ونصل الآن إلى التساؤل رقم[٤] وهو التساؤل الذى يقول:

ـ ما هى أهداف ديان كما تبدو من خلال صيغته المعروضة؟».

من الصعب أن يقول أحد ـ أو يدّعى ـ إنه حتى هذه اللحظة يعرف تفاصيل هذه الصيغة المعروضة من ديان على كيسنجر والمعروضة من كيسنجر على مصر.

أو لعلى أتحفظ وأقول إننى شخصيا لا أعرف ولا أدّعى أننى أعرف تفاصيل هذه الصيغة وكل ما لدى بشأنها هو ما نقلته وكالات الأنباء وما تقول به التقارير الصحفية من واشنطن ومن القدس المحتلة وأظنها صحيحة - وهذا مجرد تقدير يقوم على التجربة فى متابعة التطورات.

ومهما يكن فإنه طبقا لوكالات الأنباء وللتقارير الصحفية فإن الصيغة المطروحة الآن هى على النحو التالى:

١ - تسحب إسرائيل قوات الثغرة من غرب قناة السويس.

٢ - تعود القوات الإسرائيلية إلى الوراء فترتكز على خط المضايق الحاكمة فى سيناء: ممر الجدى وممر متلا.

٣ - تظل القوات المصرية على شريط فى الشرق من قناة السويس على أن يجرى سحب الأسلحة الهجومية من هذه القوات، وبالذات يجرى سحب القوات المدرعة والمدفعية الثقيلة وبطاريات الصواريخ المضادة للطائرات والدبابات.

٥ - تتعهد مصر بالبدء فى فتح قناة السويس وتعمير مدن القناة الثلاث: السويس والإسماعيلية وبور سعيد!!

□

وإذا كانت هذه الصيغة صحيحة أو قريبة من أن تكون صحيحة، فإننا نصل إلى صلب التساؤل رقم [٤] - ما هى أهداف ديان من هذه الصيغة؟

وقد أجاذف فى هذا الصدد وأقول ما يلى:

■ يريد الجنرال ديان سياسيا أن يظهر وأن يؤكد أنه يتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية، ويتعامل معها وحدها.

ليس مع الأمم المتحدة التى تجرى اجتماعات جنيف تحت سقفها.

وليس مع الاتحاد السوفيتى الذى يشترك فى رئاسة اجتماعات جنيف.

وليس مع مؤتمر جنيف من أوله إلى آخره بدليل أن ما فيه كله شكل، وأما الفعل - مهما كانت نتيجته - فهو في واشنطن ثم إنه فعل مباشر بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

وهدف التعامل الإسرائيلي على هذا النحو واضح شديد الوضوح كأنه يقول ببساطة: اعطونا أسلحة وضمانات ونحن نعطيكم صيغا تختارون منها ما تشاءون.

■ يريد الجنرال ديان أن يسحب قوات الثغرة الإسرائيلية خلال أسابيع لأسباب متعددة:

● قوات الثغرة في وضع غير متوازن ذلك لأن مدخلها إلى الغرب محاط بالجيش المصرى الثاني من الشمال والجيش المصرى الثالث من الجنوب، ثم إن هناك نطاقا حولها من القوات المصرية في الغرب.

● وهذا وضع يجعل هذه القوات - إذا تحركت الجبهة - في شبه حصار.

ثم إنه وضع يجعل هذه القوات عرضة - حتى في حالة استمرار وقف إطلاق النار - لعمليات من الاستنزاف البطيء

● وهذه القوات كبيرة: سبعة ألوية مدرعة وميكانيكية وحصارها - إذا وقع - كارثة.

ثم إن هذه القوات بعيدة جدا بخطوط مواصلاتها عن قواعد إمدادها وتموينها واستنزافها - إذن - ممكن وسهل.

وقوات الثغرة نفسها تحس بهذه الأوضاع.

■ يريد الجنرال ديان أن يتجنب هذه المخاطر على قوات الثغرة الإسرائيلية وهو يعرف أن هذه المخاطر يمكن احتمالها إذا كانت الجبهة السورية سوف تظل هادئة والجبهة السورية سوف تظل هادئة بالضرورة إلى شهر مارس، ذلك لأن المنطقة هناك الآن شتاء. ثلوج وأمطار تعوق حركة المدرعات ونشاط الطيران.

لكن الظروف يمكن أن تتغير إذا انقطعت الأمطار وذابت الثلوج وأصبحت الحركة على الجبهة السورية احتمالا مطروحا ،ذلك لأنه ليس هناك من يتصور أنه في

مقدور إسرائيل أن تخوض معركة أخرى على جبهتين تمتد خطوطهما هذه المرة ما بين الأدبية جنوب السويس إلى سعسع جنوب دمشق!

■ يريد الجنرال ديان أن يرتكز بالقوات الإسرائيلية فى سيناء على خط طبيعى وخطه الطبيعى فى هذه الحالة هو مضايق سيناء الحاكمة، ويناسبه أكثر أن تكون قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة أمامه، ويناسبه أكثر وأكثر أن تكون القوات المصرية على شرق القناة بغير مدرعاتها ومدفعيتها وصواريخها.

ذلك يعطيه تعويضا دفاعيا عن خط قناة السويس نفسه وعن خط بارليف على شاطئ القناة قبل ٦ أكتوبر.

قوات مصرية خفضت سلاحها.. وقوات أمم متحدة بينه وبينها.

خط طبيعى - من جبال المضايق - يرتكز هو عليه.

■ يريد الجنرال ديان بهذه الصورة الجديدة أن يتمكن من رفع عبء التعبئة العامة بأسرع ما يمكن عن كاهل الاقتصاد الإسرائيلى بما يعنيه ذلك من تقليل النفقات العسكرية وتحرير الأيدى العاملة التى تحمل السلاح الآن على حساب المصانع والحقول والجامعات فى إسرائيل.

ولقد بقيت إسرائيل فى حالة تعبئة عامة منذ صباح ٦ أكتوبر حتى الآن، ذلك لأنها تحتفظ تقريبا بعدة جبهات.

جبهة الثغرة فى الغرب من قناة السويس.

جبهة الشرق أمام الجيشين المصريين الثانى والثالث.

جبهة سوريا.

جبهة العمق إذا فرض وحدث شيء من اتجاه الاردن، أو استطاعت المقاومة الفلسطينية أن تجد منفذا ودخلت.

■ يريد الجنرال ديان - أو لعله يتصور - أن يكون انسحاب قوات الثغرة الإسرائيلية من الغرب عنصرا مريحا لمصر ولو بالتخدير.

تستريح مصر بهذه الخطوة وتنتظر.

وتستريح إسرائيل أيضا فى مواقعها الجديدة وترتب نفسها.

وتبدأ مرحلة أخرى من المحادثات والاتصالات والضغوط وتمر شهور، وربما تمر سنوات، وقد يحدث فيها مالا يتوقعه أحد، والقمار دائما على المجهول.

■ يريد الجنرال ديان - أو لعله يتمنى - أن تكون صيغته الجديدة بمثابة بعث لاقتراحه المشهور عن الحل الجزئى. وهى فكرة طرحها أثناء حرب الاستنزاف سنة ١٩٧٠، حل جزئى لا يرتبط بحل شامل يكفل الانسحاب إلى خطوط ٤ يونيو سنة ١٩٦٧، ولا يرتبط بحل لقضية شعب فلسطين وحقوقه المهدرة منذ سنة ١٩٤٨.

■ يريد الجنرال ديان - بعد هذا كله - أن يكون إعادة فتح قناة السويس وإعادة تعمير مدن القناة رادعا لمصر يجعلها تفكر مرة ومرتين وثلاثا قبل أن تعود إلى الضغط بالقوة إذا وجدت أن الموقف سوف يتجمد مرة أخرى عند حالة اللاسلم واللاحرب، وذلك هو التفسير الوحيد الذى يمكن العثور عليه حينما نجد أن أحد شروط ديان فى صيغته المقترحة: إعادة فتح القناة وإعادة تعمير مدنها.

ذلك هو التفسير الوحيد، ولا يمكن أن يكون التفسير حرص ديان على فتح القناة وحرصه على المهجرين من مدنها الثلاث الباسلة!

* * *

أخيرا... أخيرا نجىء إلى التساؤل رقم [٥] وهو التساؤل الذى يقول: ما الذى يريد الجنرال ديان أن يصل إليه فى النهاية؟

لقد عدنا مرة أخرى إلى التساؤلات السهلة ذلك لأن الإجابة عن هذا التساؤل الخامس تعود بنا إلى الخطوط الرئيسية فى الإستراتيجية الإسرائيلية:

■ بينها: إضعاف ثقة مصر بنفسها وبما تستطيع بقوتها تحقيقه - لقد حاربت.. ألم تحارب؟ ثم هى فى النهاية قبلت بحل جزئى كان معروضا عليها بغير حرب!

■ بينها: فك الجبهة العربية المتحدة على عمل منسق خصوصا وقد جربت إسرائيل محاذير الحرب على جبهتين.

وماذا تقول سوريا مثلا إذا انفردت مصر بحل أو بنصف حل؟

ماذا يقول الشعب الفلسطينى؟

وماذا تقول الأمة العربية كلها؟

وربما تظن إسرائيل أن تجربة مؤتمر جنيف بداية مشجعة لها:

ـ لقد تفرقت فى المؤتمر على جبهات توحدت بالقتال.

مصر موجودة فى المؤتمر على مستوى الاجتماعات السياسية والعسكرية.

الأردن موجود فى المؤتمر على مستوى الاجتماعات السياسية ولكنه ليس موجودا على مستوى الاجتماعات العسكرية:

وسوريا فى المؤتمر صفان من المقاعد الخالية

والعالم العربى كله لا يعرف بالضبط أين هو... لقد جمعه نفير الحرب، وبعثره ناى السلام... بغير سلام!

ثم إن بتروله انتقل من ميدان المعركة إلى بورصة المزايدات على الأسعار!

■ بينها زرع الشكوك بين العرب وبين الاتحاد السوفيتى.

ألم يتقدموا إلى الحرب بسلاحه... ثم جروا بعد المعارك إلى حل أمريكى؟

ألم تنجح إسرائيل ـ والولايات المتحدة تساندها ـ فى إبعاده عن حضور اجتماعات اللجنة العسكرية فى مؤتمر جنيف، وكان هو مصرا على حضورها ولكن إصراره اصطدم بباب مقفول عليه عوارض من الفولاذ؟

ألم تجر المحاولات لإقناعه ـ أو لإيهامه ـ بأن أشياء تجرى من وراء ظهر؟!

■ بينها: وهذه محصلة أخيرة لإستراتيجية إسرائيل: أن يتم عزل مصر بالكامل

لتنكفئ على نفسها تلعق جراحها وتجتر مشاكلها وتمد يدها فى طلب العطف والإحسان!

أوليست هذه هى إستراتيجية إسرائيل من البداية إلى النهاية!

* * *

هى إستراتيجية إسرائيل لم تتغير... وإن كانت الآن فى صياغة جديدة...

....

....

ولكن مصر العظيمة يقظى وهى واعية بمغزى الحكمة المأثورة التى تقول:

-إذا كنت لا تعرف لنفسك هدفا فإن أى طريق يستطيع أن يصل بك إلى هناك... وإذا كنت تعرف لنفسك هدفا فلا بد لك من طريق محدد!»

كذلك تعلمنا روح ٦ أكتوبر المجيد... شهودنا عليها شهداؤنا.. على المعابر والجسور وفوق كثبان الرمل وعلى قمم الجبال المقدسة فى سيناء.

أسلوب التفاوض الإسرائيلى

١٨ يناير ١٩٧٤

لم تتضح أمامنا بعد - وحتى الآن - القيمة الحقيقية لنتائج هذه الجهود الدبلوماسية المكثفة التى نراها من حولنا للاتفاق على ما يسمونه « الفصل بين القوات المتحاربة على جبهة السويس»، وحتى هذه النتائج وقيمتها الحقيقية - فلعلى أقترح وقفة قصيرة أمام أسلوب «التفاوض» الإسرائيلى، وقد رأيناه هذا الأسبوع فى حالة استعداد قصوى يمارس أمام الدكتور هنرى كيسنجر أو يمارس معه - بما يستحق الدراسة فعلا ويستدعى التدقيق.

ولقد كان «التفاوض» دائما فنا من فنون الدبلوماسية، ولكنه الآن يوشك أن يستقل ليصبح علما قائما بذاته حتى أن بعض الجامعات الكبرى المهتمة بالدراسات السياسية تخصص الآن كرسى أستاذية لمادة «التفاوض».

ولقد استفدنا كثيرا من مواجهة أسلوب الحرب الإسرائيلى، بل واستطعنا أن نتعلم منه: كيف نتحداه!.

وربما كان مفيدا أن ندرس أسلوب التفاوض الإسرائيلي، فلقد نستطيع أن نتعلم منه هو الآخر: كيف نتحداه!

ولكى لا يكون هناك مجال لسوء فهم فإنى أحدد أن ما أتحدث عنه ليس المفاوضات مع إسرائيل وإنما حديثى هو عن: أسلوب التفاوض الإسرائيلى، متخذا

مما يجرى حولنا الآن نموذجا عمليا للدرس والتحليل، ولهذا فإن المجال الذى اقتصر عليه اليوم هو: «أسلوب التفاوض الإسرائيلى» ضمن العملية الدبلوماسية الإسرائيلية الشاملة فيما أعقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣.

إن إسرائيل أدركت بنتيجة حرب أكتوبر وملابسات ما بعدها أنها مقبلة على مرحلة من «التفاوض».

... حتى إذا كانت تريد العودة إلى ميدان القتال مرة أخرى فإنها مضطرة قبل ذلك إلى مرحلة من التفاوض.

... حتى إذا كانت تريد تجميد الموقف عند درجة معينة فإنها لا تستطيع الوصول إلى هذه الدرجة قبل مرحلة من التفاوض وربما عن طريق هذه المرحلة من التفاوض.

وهكذا فإن إسرائيل بدأت تعد المسرح للتفاوض الذى تريده.

وكان أول سؤال طرحته على نفسها هو:

«مع من تتفاوض.. مهما كان الهدف من التفاوض»؟

وتوصلت إسرائيل إلى إجابة. ويعيننا على استنتاج الإجابة التى توصلت إليها إسرائيل - أن ندرس خطواتها التمهيدية نحو ما توصلت إليه وسوف نجد أمامنا ما يلى:

١ - سوف نجد - بداية - أن وقف إطلاق النار كان بمشروع قرار تقدمت به القوتان الأعظم - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى - وأصدره مجلس الأمن بالإجماع مع تغيب الصين لحظة التصويت، أى أن القرار كان للقوتين الأعظم وللقوى الكبرى ولبقية دول العالم الممثلة فى مجمع الدول الذى هو ملتقى مجتمع الدول.

٢ - عندما جاء دور الحديث عن تثبيت وقف إطلاق النار فإننا نلاحظ أن دور الأمم المتحدة قد تراجع إلى الخلف، كما أن دور الاتحاد السوفيتى قد توارى فى

الظل، وكان طرح النقط الست المشهورة لتثبيت وقف إطلاق النار محاولة أمريكية منفردة جرت على أساسها محادثات الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة ـ السويس.

بل إن الدكتور هنرى كيسنجر استهل خطابه إلى الدكتور كورت فالدهايم السكرتير العام للأمم المتحدة يعلنه بالاتفاق على النقط الست قائلا بالحرف:

«عزيزى السكرتير العام» «تحت رعاية الولايات المتحدة» وبإرشادها تم الاتفاق على ».. كذا وكذا إلى آخره...

ثم طلب إليه فى خطابه أن يرتب لعقد مؤتمر بين الأطراف فى جنيف يبحث فيما يلى ذلك من خطوات.

٣ ـ قبل مؤتمر جنيف كان الدكتور كورت فالدهايم لا يعرف لنفسه ولا للأمم المتحدة دورا محددا، ولكن الرجل اضطر إلى المسايرة على أمل الوصول إلى نتيجة...

ثم حدث قبل أن يبدأ المؤتمر أن أصرت إسرائيل على استبعاد فرنسا وبريطانيا وكان اشتراكهما فى المؤتمر واردا.. كذلك أصرت إسرائيل على استبعاد اشتراك أى طرف دولى آخر يمثل مجتمع الدول المهتمة بالأزمة والمطالبة بتسويتها تسوية عادلة.

واستقر المؤتمر فى النهاية على رئاسة شرفية فى جلسة الافتتاح الأولى لكورت فالدهايم ثم رئاسة مشتركة عملية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

٤ ـ ولقد سارت الأمور بعد ذلك بحيث تعذر اشتراك سوريا وهى طرف رئيسى فى الحرب فى أعمال المؤتمر واقتصر الاشتراك فيه من أطراف الحرب الرئيسيين على مصر وإسرائيل وحدهما. ولم يكن للأردن دور رئيسى فى الحرب، ومع ذلك فإن وجوده فى جنيف كان مقصورا على حضور جلسة الافتتاح الأولى.

وانتهت المرحلة الأولى من مؤتمر جنيف بلجنة عسكرية مصرية إسرائيلية تبحث موضوع الفصل بين القوات المتحاربة على جبهة السويس، وهو موضوع

كان المفروض أن يكون بحثه قد تم تنفيذه قد جرى عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة ـ السويس.

وعارضت إسرائيل بشدة اشتراك الاتحاد السوفيتى فى اللجنة العسكرية فى جنيف وكان غضب الاتحاد السوفيتى شديدا لدرجة أن المندوب السوفيتى المناوب وهو فلاديمير فينوجرادوف السفير السوفيتى السابق فى القاهرة هدد بأنه «سوف يبعث بضابط روسى كبير إلى قاعة اجتماع اللجنة العسكرية، وبأن هذا الضابط الروسى سوف يقتحم طريقه إلى القاعة ولو بالقوة، وسوف نرى من الذى يستطيع أن يمنعه»؟

ولم يحدث ذلك بالطبع لأن المحاولات الدبلوماسية جرت لتهدئة خاطر الاتحاد السوفيتى فقبل بعدم الاشتراك فى أعمال اللجنة العسكرية على أساس أن يقوم الجنرال سيلاسفو بإعطاء معلومات يومية إلى ممثلين عسكريين للاتحاد السوفيتى وللولايات المتحدة عن مناقشات اللجنة العسكرية التى كانت تنعقد تحت رئاسته!.

٥ ـ ووصلت محادثات اللجنة العسكرية فى جنيف إلى طريق مسدود بسبب تعنت الوفد الإسرائيلى برئاسة الجنرال جور: قوله يوما: «إنه غير مفوض بالبحث خارج دائرة معينة..» وقوله يوما: إنه مضطر لانتظار نتيجة الانتخابات الإسرائيلية..» وقوله يوما: «إذا كان لدى الطرف المصرى مشروع جاهز للبحث فنحن على استعداد لسماعه..» وغير ذلك مما قال ووصل بأعمال اللجنة العسكرية فى جنيف إلى طريق مسدود...

عند هذا الحد ـ وكانت الانتخابات الإسرائيلية قد انتهت وأعلنت نتائجها ـ ظهر الدكتور هنرى كيسنجر مرة أخرى وبشكل درامى على مسرح الشرق الأوسط متنقلا بين أسوان والقدس ذهابا وإيابا...

كان معنى ذلك أن السامر كله قد انفض ولو مؤقتا.. لم يبق منه إلا الدكتور كيسنجر طائرا طول الوقت بين أسوان والقدس..

أى أن السؤال الذى طرحته إسرائيل على نفسها وهو:

ـ مع من نتفاوض.. مهما كان الهدف من التفاوض»!... وصل فى النهاية إلى جواب مؤداه:

ـ مع مصر وحدها عن طريق الدكتور هنرى كيسنجر.. أو مع الدكتور هنرى كيسنجر وحده طريقا إلى مصر!»

الأمم المتحدة جرت المحاولة لتنحيتها.. الدول الكبرى جرت المحاولة لعزلها.. الاتحاد السوفيتى جرت المحاولة لإبعاده.. بل إن مؤتمر جنيف من أوله إلى آخره جرت المحاولة لتركه فى العراء أو فى البرد كما يقولون.

أكثر من ذلك:

جرت المحاولة لعزل أزمة الطاقة عن أزمة الشرق الأوسط فأصبحت أزمة الطاقة مشكلة أسعار، وأصبحت أزمة الشرق الأوسط مشكلة أخرى.

ثم جرت المحاولة بالإيحاءات والإيماءات لتصوير موقف مصر وكأنه موقف منفرد برأى أو متفرد بتجربة، وبقية العالم العربى ينتظر ليرى على أحسن الفروض.

ولا نستطيع أن نضع هاتين المحاولتين لحساب المتفاوض الإسرائيلى ولجهده، فهذا بالتأكيد حساب وجهد قوى أخرى، وإن كان المتفاوض الإسرائيلى على أى حال قد استفاد ـ كالعادة ـ من حساب وجهد غيره!

وفى الخلاصة: فإن إسرائيل توصلت إلى نتيجة قريبة ـ ولو فى الشكل ـ مما أرادته.

مصر وحدها، وإسرائيل وحدها، وكيسنجر بين الاثنتين، وهو فى كل الأحوال ـ وهذا ما يجب ألا ننساه ـ يمثل سياسة الولايات المتحدة الأمريكية!

نتابع «أسلوب التفاوض» الإسرائيلى خطوة أخرى بعد ذلك.

□

إن الخطوة الأولى انتهت بأن أصبح «المتفاوض» أمام إسرائيل هو الدكتور هنرى كيسنجر وكان «أسلوب التفاوض» الإسرائيلي لا يكف عن الحركة، وفى الولايات المتحدة نفسها قبل أى مكان آخر.

إن أسلوب «التفاوض الإسرائيلى» وما لديه من أوراق جعل الدكتور هنرى كيسنجر - ولا أقول فرض عليه - «يتفاوض» مع أطراف متعددة فى الولايات المتحدة ذاتها قبل أن يجىء لممارسة التفاوض مع إسرائيل:

١ - كان على الدكتور هنرى كيسنجر أن «يتفاوض» مع الجالية اليهودية فى الولايات المتحدة وهى قوة سياسية قادرة على ممارسة ضغوط رهيبة خصوصا إزاء رئيس أمريكى عرته تماما فضيحة ووترجيت، ويقول الدكتور هنرى كيسنجر بنفسه: إننى قضيت ليالى طويلة مع زعماء الجالية اليهودية خصوصا فى نيويورك أقنعهم أننى لا يمكن أن أقوم بجهد يؤدى إلى تعريض أمن ومستقبل إسرائيل لأى خطر».

٢ - كان على الدكتور هنرى كيسنجر أن «يتفاوض» مع مجموعات من الشيوخ والنواب فى الكونجرس الأمريكى عرفوا بموالاتهم لإسرائيل.

وصحيح أن قرار السياسة الخارجية فى الولايات المتحدة من سلطة الرئيس الأمريكى فى البيت الأبيض ولكن المسائل كلها متداخلة خصوصا مع ضعف موقف الرئيس الأمريكى إزاء الكونجرس بسبب فضيحة ووترجيت مرة أخرى.

٣ - كان على الدكتور هنرى كيسنجر أن يتفاوض» مع عناصر فى البنتاجون - قيادة الجيش الأمريكى - ذلك أن جماعات من العسكريين فى الولايات المتحدة أصبح لديهم اقتناع راسخ بأن إسرائيل هى القاعدة الوطيدة لحماية المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، وأنها النقطة الرئيسية لنظام الدفاع الذى يقبلونه فى هذه المنطقة ضد «محاولات التغلغل السوفيتى» على حد تعبيرهم وضد «قوى الثورة الوطنية» وهى الشبح الذى يهدد أحلامهم ويؤرقها.

٤ - كان على الدكتور هنرى كيسنجر أن «يتفاوض» مع كثيرين ممن يملكون

زمام توجيه الرأى العام الأمريكى وبالذات حملة الأقلام والميكروفونات والعدسات فى وسائل الإعلام الأمريكية ومعظمها - إن لم نقل كلها - منحاز لإسرائيل.

كان هؤلاء جميعا قد أسهموا - أمام عجز عربى إعلامى كامل - فى أن يجعلوا الرأى العام الأمريكى يرى فى إسرائيل واحة من الديمقراطية والتقدم وسط صحراء شاسعة من الهمجية العربية والتخلف.

٥ - بل لقد كان على الدكتور هنرى كيسنجر أن «يتفاوض» مع بعض مرافقيه من الدبلوماسيين والصحفيين الذين صاحبوه فى رحلاته وركبوا معه طائرته وقطعوا معه وسط السحب ذهابا وإيابا طريق أسوان - القدس..

وتحولت بعض المؤتمرات الصحفية فى الطائرة إلى محاكمات على حد وصف الدكتور هنرى كيسنجر نفسه وكان هو يدافع بما يردده دائما من أنه «لا يفعل إلا ما يصون ويحفظ أمن ومستقبل إسرائيل»!

. . . .

. . . .

كان معنى ذلك أن الدكتور هنرى كيسنجر يتفاوض على مستقبله هو شخصيا.

أى أنه - أراد أو لم يرد - أصبح فى وضع يمكن أن تختلط فيه الاعتبارات بين «أمنه ومستقبله الشخصى» وبين «أمن ومستقبل إسرائيل».

وكانت هذه هى الخطوة الثانية فى أسلوب التفاوض الإسرائيلى.

□

نتابع «أسلوب التفاوض الإسرائيلى» خطوة ثالثة بعد ذلك.

لقد وصل الدكتور هنرى كيسنجر إلى القدس المحتلة فإذا عليه أن يتفاوض مع مستويات متعددة ومختلفة وأحيانا متصارعة.

١ - ليس هناك رجل واحد أو امرءة واحدة يستطيع الدكتور هنرى كيسنجر

ـ بالتفاوض ـ أن يحل ويربط معه أو معها وإنما هناك تنظيمات وقوى وجماعات وأحيانا أفراد يتعين عليه أن يتحدث إليهم وأن يسمع منهم.. فرئيسة الوزراء السيدة جولدا مائير مريضة فى المستشفى، وهى لا تستطيع أن تقابله أكثر من نصف ساعة يجلس فيها بجوار فراشها ويحاول أن يلتقط كلماتها المتقطعة!

وحتى فى أبسط المسائل فإنها تقول له وقد قالت ذلك له فعلا:

ـ لقد حصل حزب العمل ـ الذى تتزعمه ـ على أغلبية ضئيلة وهكذا فإننى لا أستطيع أن أتحرك إلى بعيد.

ثم إننى لم أستطع بعد تشكيل وزارتى الجديدة بعد الانتخابات العامة وسوف أكون مضطرة إلى أن آخذ فى الاعتبار آراء كتل حزبية متعددة لا بد لها أن تدخل معى فى وزارة ائتلافية: إذا كنا نستطيع أن نذهب إلى أى مكان»!

وإذا وجدت نفسى أمام قرارات كبيرة فقد أفكر فى الدعوة لانتخابات عامة أخرى فى إسرائيل على أمل أن يعطينى الناس أغلبية أكبر أستطيع على أساسها أن أتصرف بحرية أكثر..»

ثم تضيف جولدا مائير:

ـ إننى تجاوزت الخامسة والسبعين ولست مستعدة أن آخذ مع تاريخى عملية تقليص حدود إسرائيل.. إلى درجة لا تكفل أمنها!»

٢ ـ و«يتفاوض» الدكتور هنرى كيسنجر مع مجلس وزراء جولدا مائير، وهو مجلس وزراء انتهت ولايته ولا بد على أساس نتائج الانتخابات العامة أن يعاد تشكيله.

والأقطاب فى هذا المجلس كل منهم برأى.

آلون له رأى، وجاليلى له رأى، وإيبان له رأي، وسابير له رأي، وديان له رأى.

٣ ـ ويتفاوض» هنرى كيسنجر مع زعماء كتل وأحزاب.. وقد لا تكون لأى من هؤلاء فرصة لدخول الوزارة الجديدة ولكن كلا منهم يستطيع أن يعل الكنيست

ـ البرلمان ـ الإسرائيلى ساحة صراع رهيب حتى إزاء أى مسألة إجرائية، ويضاعف من هذا الخطر تباين المشاعر لدى الرأى العام العادى فى إسرائيل خصوصا بعد تجربة حرب أكتوبر، وقد أظهرت ثغرات كثيرة فى نظام الأمن والاستعداد للحرب.

٤ ـ ثم «يتفاوض» الدكتور هنرى كيسنجر مع المؤسسة العسكرية فى إسرائيل فدورها هناك ما زال كما كان بصرف النظر عما اصابها من رذاذ الوحل فى أكتوبر ١٩٧٣:

ولقد التقى كيسنجر فى واشنطن قبل أسابيع برأس هذه المؤسسة حاليا وهو الجنرال موشى ديان، ولكن هناك جنرالات وجنرالات يتحتم إقناعهم وعلى الدكتور هنرى كيسنجر أن يتفاوض معهم إذا أراد.

٥ ـ ثم «يتفاوض» الدكتور هنرى كيسنجر مع الرأى العام الإسرائيلى وهو طرف رئيسى فى مشكلة الأمن، لأن مشكلة الأمن فى إسرائيل هى مشكلة الحياة فى إسرائيل، ثم إن أصحاب الأصوات فى إسرائيل هم بحكم حجم السكان حملة السلاح فى إسرائيل والتفاوض هنا علنا..

وهكذا فإن الدكتور هنرى كيسنجر يدلى بتصريحات ويقطع على نفسه وعودا ويربط نفسه بالتزامات فى كل مرة يدخل ـ أو يخرج ـ فيها من إسرائيل.

. . . .

. . . .

معنى ذلك أن الدكتور هنرى كيسنجر لا يتفاوض فى إسرائيل على مستوى واحد، وإنما يتفاوض على مستويات متعددة وكل مستوى منها يطلب لنفسه ما يطلب ويأخذ لنفسه ما يأخذ، وهذه هى الخطوة الثالثة فى أسلوب التفاوض الإسرائيلى.

□

نتابع «أسلوب التفاوض الإسرائيلى» خطوة رابعة بعد ذلك، ولسوف نجد أن

إسرائيل سبقت إلى علم «التفاوض» الحديث واستوعبت قواعده ووضعتها فى التطبيق العملى.

وتقول أبرز القواعد فى علم التفاوض الحديث بما يلى:

١ ـ لا بد أن تكون هناك آراء متعددة مطروحة فى نفس الوقت ذلك الآن تعدد الآراء بين الاعتدال والتطرف يوحى للأطراف الأخرى بنوع من صدق المواقف لأن هذه الأطراف ترى وتسمع كل الاجتهادات تعبر عن نفسها بحرية.

ومع تعدد الآراء والاجتهادات فإن الأجهزة التى تقوم بالتفاوض تجد أمامها مجالا واسعا تتحرك فيه.

وهذه العملية فى حد ذاتها تجعل الرأى أو الاجتهاد النهائى الذى يتم الوصول إليه مقبولا لدى أوسع القطاعات لأن كلا منها يشعر أن له نصيبا فيما استقر الاختيار عليه.

٢ ـ البدء باستمرار بأقصى مواقف التصلب والتعنت، سواء فى الإستراتيجية أو التكتيك وربما تعلمت إسرائيل من الدكتور هنرى كيسنجر نفسه قوله فى كتابه عن «ضرورة الاختيار» ما نصه:

«إن نجاح أى طرف على مائدة المفاوضات يعتمد على قدرة هذا الطرف على المبالغة فى وصف طلباته وأهميتها الحيوية بالنسبة له.

إن السذج فقط هم الذين يبدءون على مائدة المفاوضات بعرض طلباتهم الحقيقية أى الحد الأدنى الذى يقبلون به... إنهم إذا فعلوا ذلك لا يستطيعون التراجع عن آخر كلمة قالوها.. وهذا يظهرهم بمظهر المتشددين المتصلين الذين لا يفاوضون وإنما يملون شروطهم!!».

٣ ـ من القواعد العلمية للتفاوض أن لا يتعرض للتفاصيل ـ وليس للقرار النهائى فيه ـ شخص يملك سلطة واسعة ذلك لأن هذا الشخص سوف يكون دائما مطالبا بتنازلات يعرف الذين يفاوضونه أن أمرها على الأرجح فى يده، ومن ثم فإن الإلحاح عليه يكون مركزا ومكثفا.

ويرتبط بذلك أن تكون هناك مساحة محددة للحركة أمام أى مفاوض، ولا يكون فى سلطته أن يخرج عنها ولا يعيبه فى هذه الحالة أن يقول «إن القرار عند هذه النقطة يتجاوز صلاحياتى، ولا بد لى أن أعود به إلى سلطة أعلى أتلقى توجيهها».

٤ ـ إن عملية التفاوض يجب أن تكون جهدا مشتركا لمؤسسات عديدة يستطيع الحوار بينها أن يقدم مشروعات متعددة لحل أى جزئية من جزئيات المشكلة المطروحة للتفاوض، وأن يعطى لهذه المشروعات عقلانية بعيدة عن العواطف والمشاعر.

وفى جنيف مثلا فإن الوفد العسكرى الإسرائيلى قدم فى إحدى الجلسات ثلاثة نماذج كاملة على الأقل عن تصوره لعملية الفصل بين القوات وبعد قليل تاهت المناقشة فى البند (أ) أو (ب) أو (ج) من النموذج الأول أو الثانى أو الثالث.

ولولا أن الوفد المصرى هناك كان متنبها لغرقت المناقشة فى حروف البنود وأرقام النماذج !

ثم إن صدور المشروعات عن مؤسسات عديدة يتلافى محاذير الانفعال النفسى أو العاطفى لدى أى فرد. من المبادئ القديمة فى دبلوماسية أوربا فى القرن الثامن عشر ذلك القول المأثور:

«إن مشاعر الأمراء والوزراء تغلب مصالحهم أحيانا.. إن البشر لا يتصرفون وفق قواعد للسلوك ثابتة وحازمة، ولكنهم كثيرا ما يتأثرون فى أحكامهم بعواطف الساعة ومزاجها».

وهكذا فإن البدائل فى إسرائيل لا تضعها جولدا مائير ولا إيبان وإنما تضعها أجهزة مشتركة من رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية والمخابرات العامة والمخابرات العسكرية ولجان الأمن والدفاع فى الكنيست الإسرائيلى وعدد من مراكز الدراسات الإستراتيجية فى الجامعات أو خارج الجامعات، وهذه الأجهزة المشتركة مزودة بعشرات الخبراء المتخصصين فى علم السياسة والصراع والتفاوض.

٥ ـ إن الرأى العام فى أى وطن يجب أن يكون شريكا ولو بالمتابعة فى أى عملية

تفاوض تؤثر على مستقبله وأمنه وصحيح كما يقول «مورجنتاو» ـ وكان من أكبر أساتذة العلوم السياسية المحدثين فى أمريكا ـ من أن الرأى العام فى النظم الديمقراطية يجعل مهمة المتفاوض أصعب لأن «الرأى العام يطلب أن يكون دبلوماسيوه أبطالا لا يسلمون للعدو ولو أمام خطر الحرب كما أنه يدمغ بالضعف كل من يساومون ولو حتى من أجل السلام» ـ مع ذلك فإن اشتراك الرأى العام ولو بالمتابعة فى عملية التفاوض يعطى المتفاوض قوة تصميم حقيقية فى الخارج كما أنه يعطيه قوة إقناع حقيقية فى الداخل.

. . . .

. . . .

معنى ذلك أن الدكتور هنرى كيسنجر سوف يجد وهو يتفاوض مع إسرائيل أنه أمام الاعتدال والتطرف فى نفس الوقت، وأمام تصلب وتعنت منذ اللحظة الأولى، وأمام مساحة محدودة للحركة على أى مستوى، وأمام بدائل ونماذج شاركت فيها مؤسسات، ثم هو أمام رأى عام له وزنه حتى ولو كانت الأوهام غذاءه اليومى وهذا هو التطبيق العملى للعلم ـ الخطوة الرابعة فى أسلوب التفاوض الإسرائيلى.

□

نتابع أسلوب التفاوض الإسرائيلى خطوة خامسة بعد ذلك.

ولقد ألخص هذه الخطوة الخامسة والأخيرة فى أسلوب التفاوض الإسرائيلى بعبارة واحدة هى:

ـ ما هو الثمن؟»

كل حركة لها ثمن... كل همسة لها مقابل.

حتى إذا كانت الحركة إجرائية... وحتى إذا كانت الهمسة مجرد غمغمة يصعب ترجمتها إلى معنى واضح محدد.

والسوابق كثيرة.

ولكن اللواحق التى ما زالت أمامنا تشهد أكثر من غيرها.

ولقد برر الدكتور هنرى كيسنجر نفسه حجم المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل وكان فى حدود ٢٣٠٠ مليون دولار بقوله:

ـ لقد كان ذلك لازما لإقناع إسرائيل بقبول وقف إطلاق النار دون أن تشعر بأن أمنها ومستقبلها فى خطر».

كان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٧٣.

وفى هذه الأيام، وعملية الفصل بين القوات المتحاربة على جبهة السويس، موضوع تفاوض بين الدكتور هنرى كيسنجر وبين إسرائيل ـ فإن الأخبار من تل أبيب بدأت تتحدث فعلا عن: مقابل سوف تحصل عليه إسرائيل نظير قبولها بالفصل بين القوات...!»

□

ولقد يكون من الحق أن نتساءل:

إذا كان «المقابل» عن وقف إطلاق النار هو ٢٣٠٠ مليون دولار من الأسلحة ـ فما هو حجم «المقابل» نظير الفصل بين القوات؟ ـ ثم واهم من ذلك كله: ما هو المقابل نظير الانسحاب الكامل من كل الأراضى العربية المحتلة فى يونيو ١٩٦٧ واستعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين؟.

□

ثم لقد نتذكر أخيرا ـ وبغير تعصب أو تمييز عنصري ـ إن عقلية المرابى اليهودى المسيطرة على أدب وفكر التيه اليهودى والتقاليد اليهودية ليست غريبة عن أصول علم التفاوض الحديث.

كان المرابى دائما يدعى الفقر الشديد. ويتعلل بخرابه ودماره إذا لم يسترد ـ وإذا لم يضاعف ـ ما لديه من أموال الربا الفاحش وكان المرابى يحتكر كل الأموال وتصبح بدائله المعروضة هى البدائل الوحيدة الممكنة.

ثم إنه كان يصر دائما على أن تكون أمواله التى يقرضها للآخرين مقابل رهون تسلم إليه مقدما، ويخصم الربا الفاحش منها مقابل سداد القرض نفسه.

ثم إنه كان يتعامل مع كل منهم فى الخفاء وفى غيبة الآخرين.

* * *

ثم ننتظر حتى تتضح أمامنا القيمة الحقيقية لنتائج تفاوض الدكتور هنرى كيسنجر.

ننتظر لنحكم بعد أن تخفت الحركة ـ حركة الطائرات الذاهبة العائدة ـ ويتضح المضمون.

ننتظر حتى تتلاشى المؤثرات الصوتية والضوئية للمشهد الذى رأيناه هذا الأسبوع ونسمع صوت الحوار وحده بغير ضجيج مدخول عليه بالقصد. أو بالمصادفة!

وبعد ذلك نستطيع أن نحكم!

الفهرست

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٥٩٤٨
الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 - 09 - 0981 - 5

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)